

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

موسوعة الخطب العصرية

الجزء السابع

إعداد

الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة

إشراف وتقديم

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إلا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْـتُ وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فيسرنا أن نقدم للسادة الأئمة والخطباء والمثقفين والمعنيين بالشأن الدعوي في مصر والعالم الجزء السابع من الخطب العصرية الذي أعدته الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة بوزارة الأوقاف تحت إشرافنا ومراجعتنا.

وقد تنوعت موضوعات هذا الجزء من موسوعة الخطب العصرية شأن ما سبقه من أجزاء ما بين قضايا إيمانية وتربوية وأخلاقية ، تهدف إلى إيقاظ الضمائر وتهذيب الأخلاق ، وقضايا اجتماعية تسهم في دعم وتقوية أواصر المودة والرحمة بين أبناء المجتمع ، وتسهم في حفظ تماسكه وتلاحم نسيجه ، وأخرى تتصل بالمعاملات التي تعد جزءًا لا يتجزأ من السلوك القويم للمسلم ، وقضايا وطنية تهدف إلى تقوية الانتماء الوطني والحفاظ على أمن الوطن واستقراره ، إضافة إلى ما لا غنى عنه من بعض خطب المناسبات .

وقد صدرناه بخطبة عن " معية الله (عز وجل) وأثرها في حياة الفرد والمجتمع" ؛ تأكيدًا على أثر الإيمان في النفوس وبناء الشخصية السوية ،

وأن النفس المتصلة بالله (عز وجل) اتصالا حقيقيًّا صادقًا هي في سلام مع نفسها ، ومع الناس ، ومع الكون كله .

مع تأكيدنا أن الأمم والحضارات التي لا تبنى على القيم والأخلاق النبيلة تحمل عوامل سقوطها ومعول هدمها في أصل قيامها وأساس بنيانها .

وقد آثرنا في هذه الخطب أن تكون في إطار سماحة الإسلام ووسطيته ، بعيدًا كل البعد عن جميع ألوان التشدد والغلو والإفراط أو التفريط ، محققة لرسالة المسجد ، تجمع ولا تفرق ، وتهدف إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد ، من منطلق أن شرع الله (عز وجل) قائم على مراعاة هذه المصالح ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله وبما يؤدي إلى تشكيل وعي ديني صحيح ورشيد ومستنير ، وحس وطني صادق ونبيل.

كما راعينا في إخراجها السهولة واليسر ، والبعد عن التقعر والتكلف ، سائلين الله (عَزَّ وجَلَّ) أن يكتب لهذا العمل القبول ، وأن يكون زادًا علميًّا وفكريًّا ومعرفيًّا في مجال الثقافة الإسلامية الرصينة ، وأن يكون إضافة متميزة للمكتبة الدعوية ، في إطار دور مصر الريادي في نشر الفكر الوسطي المستنير وترسيخ سماحة الإسلام ، وإبراز معالمه الحضارية للبشرية جمعاء.

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أ . د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف

معية الله (عز وجل)
وأثرها في تحقيق الأمن النفسي والسلام الإنساني

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن معرفة العبد بالله (عز وجل) أصل كل خير ، وسببُ كل سعادة في الدنيا والآخرة ، فما أجمل أن يستشعر الإنسانُ معيةَ الله (عز وجل) فيلتزمَ أمره ، ويجتنبَ نهيه ، ويقف عند حدِّه ، ويأخذ بالأسباب ليصلح دنياه بدينه ، فيعيش في سلام مع نفسه ، وسلام مع أسرته ، وسلام مع عائلته ، وسلام مع جيرانه ، وسلام مع زملائه ، وسلام مع أصدقائه ، وسلام مع المجتمع ، وسلام مع الناس أجمعين .

ومما لا شك فيه أن استشعار العبد لمعية الله (عز وجل) يورثه الخوف والخشية في السر والعلن ، ومراقبة الله (عز وجل) في جميع أحواله وشئونه ، فالخوف من الله (عز وجل) طريق الصلاح والتقوى ، وهو الحصن الواقي من الزلل ، وسبب النجاة في الآخرة ، حيث يقول الله (عز وجل) في الحديث القدسي: (وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي

خَوْفَيْنِ ، وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ ، إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (صحيح ابن حبان) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن معية الله (عز وجل) لعباده على ضربين: معية عامة ، ومعية خاصة ، أما المعية العامة فهي اطلاع الله (عز وجل) على أفعال العباد ، ورؤيته إياهم على كل حال ، وفي كل وقت ، ووصفت بالعامة لأنها تعمّ جميع الخلق ، يقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد ٤] ، ويقول جل شأنه في بيان حال المنافقين: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}[النساء: ١٠٨] .

وأما المعية الخاصة فهي معية التأييد والحفظ والتوفيق والنصر ، وهي خاصة بأنبياء الله ورسله وأوليائه ، والصالحين من خلقه ، وهي تلكم المعية التي أشار إليها القرآن الكريم في مواطن عدة ، منها خطاب الله (عز وجل) لنبيين كريمين من أنبيائه – سيدنا موسى وسيدنا هارون (عليهما السلام) – حينما أرسلهما الله (عز وجل) إلى فرعون ، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا

أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٢ – ٤٦] ، وهي المعية التي تحدث عنها موسى (عليه السلام) حين ظن قومه أن فرعون قد أدركهم هو وجنوده ، وأن لا نجاة لهم من سطوته ، فالبحر أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم ، فصاحوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} فأجاب سيدنا موسى (عليه السلام) بيقين الواثق في معية ربه ونصره وتأييده: {قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: ٦١ ، ٦٢] .

وهي معية الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضي الله عنه) في ليلة الهجرة ، حيث يقول سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فِي الغَارِ فَنَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا} [متفق عليه] ، وفي هذا يقول الحق سبحانه: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة ٤٠] .

وإن من فضل الله (عز وجل) أن هذه المعية ممتدة لأمة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من بعده إكرامًا له (صلى الله عليه وسلم) ما داموا على العهد مع الله (عز وجل) ، محافظين على دينهم ، متمسكين بكتاب ربهم (عز وجل) وسنة نبيهم (صلى الله عليه وسلم) ، محققين الجندية الحقيقية لله (عز وجل) ، حيث يقول سبحانه: {وَلَقَدْ

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات ١٧١: ١٧٣] ، ويقول جل شأنه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١] .

ولقد أخبر الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، أن معية النصر والتأييد والحفظ والتوفيق ينالها أصناف من عباده الذين رضي الله عنهم، حيث يقول سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٦] ، ويقول عز وجل: {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩] ، ويقول جل شأنه: {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٤] ، ويقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٠] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغه عن رب العزة تبارك وتعالى: (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي) (متفق عليه) ، قال الأئمة والشراح (رحمهم الله): في هذا الحديث تصريح بأن الله (عز وجل) مع عباده عند ذكرهم له ، ومن مقتضى ذلك أن ينظر إليهم برحمته ، ويمدهم بتوفيقه وتسديده ، وهذه معية حاصلة للذاكر على الخصوص بعد دخوله مع أهل المعية العامة ، وذلك يقتضي مزيد العناية ، وموفور الإكرام له والتفضل عليه .

ويتجلى أثر هذه المعية في كونها تبعث السكينة والطمأنينة في قلب العبد؛ لأنه يعلم أن الله مطلع عليه ، يراه في كل أحواله ، فتراه محبًا للخير ، رحيمًا ، ودودًا ، سهلًا ، هينًا ، لينًا ، يألف ويؤلف مع الناس أجمعين ، لا يجزع ، ولا يضيق ، ولا ييأس ، ولا يحقد ، ولا يحسد ، ولا

يغش ، ولا يخون ، مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ) (سنن ابن ماجه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) ، وبهذا يعيش الإنسان في سلام فيما بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مجتمعه ، وبينه وبين الإنسانية ، بل الكون كله ، فمن كان مع الله (عز وجل) كان الله معه ، ومن كان الله (عز وجل) معه فلا يحزن ، ولله در القائل:

إذا صحَّ عونَ الخالقِ المرْءَ لم يجدْ عسيـرًا مـــن الآمـــالِ إلا مُيسَّـرَا

ولله در رابعة العدوية ، حيث تقول:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الوُدُّ فَالكُلُّ هَيِّـنٌ وَكُلُّ الَّـذِي فَـوْقَ التُّرَابِ تُـرَابُ

ولا يخفى على عاقل أن أعلى درجات السلام النفسي أن يكون الإنسان منصفًا للآخرين من نفسه يعمل في إطار الحقوق المتكافئة المتبادلة ، ويطبق عن قناعة مبدأ الحق والواجب ، فالعلاقة بين الرجل والمرأة مثلًا تقوم على الحقوق المتبادلة ، يقول الحق سبحانه: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: ٢٢٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلاَ وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ) (سنن الترمذي) .

ومن أدرك أن الله (عز وجل) معه فلا يمكن أن يقتل ، أو يسرق ، أو يفسد ، أو يكذب ، أو يغدر ، أو يخون ؛ لأنه يدرك أن الله (عز وجل) معه يراقبه حيث كان ، يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي: (ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري) ، ولن يؤدي ما عليه من واجبات وينصف الناس من نفسه ، إلا من استحضر في كل أقواله وأفعاله وأحواله رقابة الله (عز وجل) ، وتمثل أمام عينيه قول الحق تبارك وتعالى: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: ١٤] ، وقوله سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [آل عمران: ٥] ، وهذا هو الإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين ، (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) (صحيح مسلم) .

ولله در القائل:

إذا ما خلوْتَ الدّهرَ يوْمًا فلا تَقُلْ   خَلَوْتُ ولكِنْ قُــلْ عَلَـيَّ رَقِيـبُ
ولاَ تحْسَبَــنَّ اللهَ يغـفِــلُ ساعـة   وَلا أنَ مَــا يخفَــى عَلَيْــهِ يغيب

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن استشعار العبد معية الله (عز وجل) ، واستحضاره لعظمته ، يحقق أعلى درجات التعايش السلمي ، والأمن المجتمعي؛ لأن العبد إذا عَلِم عِلْم اليقين أنه لا يغيب عن نظر الله (عز وجل) يستقيم سلوكه ، ويحسن خلقه ، فتراه إنسانًا سويًّا في شخصيته ، منضبطًا في أفعاله وتصرفاته ومعاملاته فلا يتجرأ على ظلم أحدٍ ، ولا الاعتداء على أحدٍ ، ولا على أكل مال أحد ، فيصبح المجتمع ويمسي والدماء مصانة ، والأعراض والأموال محفوظة ، وترى العدل مع القريب والبعيد على حد سواء ، والوفاء بعهد الله مع الجميع المسلم وغير المسلم ، الصديق والعدو ، وإقامة الكيل والميزان بالقسط ، والبعد عن كل ألوان الاستغلال والتطفيف والغش والخداع ، مما يحقق أعلى درجات السلام الإنساني ، ويعيش الناس حياة آمنة في كل جوانبها ، وهذه هي رسالة الإسلام ، فالإسلام خير كله ، عدل كله ، رحمة كله ، سلام كله .

ومن المواقف التي خلدها القرآن الكريم موقف سيدنا يوسف (عليه السلام) حين راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وهو شاب في ريعان شبابه ولكنه يعلم أن الله (عز وجل) مطَّلعٌ عليه ، يرى مكانه ، ويسمع صوته فقال فيما حكاه القرآن الكريم عنه: {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: ٢١] ، ولقد حكى لنا القرآن الكريم -أيضًا- استعصام نبي الله يوسف (عليه السلام) واستمساكه بحبل الله ، فقال على لسان امرأة العزيز ، وهي تعلن براءة يوسف مما نُسب إليه: {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ}[يوسف: ٣٢] .

وفي صحيح البخاري في حديث الثلاثة الذين أووا إلى غارٍ في جبل ، فانحطت صخرة على باب الغار فاغلقته عليهم ، فقال بعضهم لبعضٍ: (انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا ، لَعَلَّ اللهَ أن يُفْرُجَ عَنْكُمْ) ، فرأينا الأول يتضرع إلى الله (عز وجل) ببره لوالديه قائلًا: (اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوانِ شَيْخَانِ كَبِيرانِ ، وكُنْتُ لاَ أَغبِقُ قبْلهَما أهلًا وَلا مالًا – أي لا أسقي الحليبَ أحدًا قبلهما– فنأَى بِي طَلَبُ الشَّجرِ يَوْمًا فَلمْ أُرِحْ عَلَيْهِما حَتَّى نَامَا فَحَلبْت لَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِميْنِ ، فَكَرِهْت أَنْ أُوقظَهمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أهلًا أَوْ مَالًا ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِى أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُما حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمي فَاسْتَيْقظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا) .

ورأينا الثاني يتضرع إلى الله (عز وجل) بتعففه عن ارتكاب الفاحشة قائلًا: (اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ ، فَجَاءَتْنِي ، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا ، قَالَتْ: لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إلا بِحَقِّهِ ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا) .

ورأينا الثالث يستثمر مال الأجير له ؛ خشية ومراقبة لله (عز وجل)، فقال: (اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي

بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي ، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالبَقَرِ وَالغَنَمِ وَالرَّقِيقِ ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي ، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ ، فَاسْتَاقَهُ ، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، وخَرَجُوا يَمْشُونَ) (صحيح البخاري) .

* * *

عفو الله الكريم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: ٢٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ العفو الغفور ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، الذي قال عندما سألته أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): يَا رَسُولَ اللهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَدْعُو ؟ فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (قولي: اللهُمّ إِنّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنّي) (مسند أحمد) .

اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن عفو الله (عز وجل) عن عباده ، وبيان سعة رحمته ولطفه بهم لا تستقصيه الكلمات ، ولا تصفه العبارات ، فسبحانه وتعالى هو العفو ، وهو الرءوف ، وهو الرحيم ، وهو الودود ، وهو الكريم ، وهو الشكور ، وهو واسع الفضل والرحمة ، يعفو ويصفح ، ويجود ويسمح ، ويعطي ويمنح ، كرمه مبذول ، وستره مسبول ، وعطاؤه موفور ، يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٤٣] ، ويقول سبحانه: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦] ، وفي الحديث القدسي يقول الله (عز وجل): (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا) (صحيح مسلم) .

ومما لا شك فيه أن مظاهر عفو الله (عز وجل) عن عباده متواترة في الكتاب والسنة ويشهد لها واقع الناس وأحوالهم ، ولا أدل على ذلك

من كونه سبحانه قد سمى نفسه العفو ، ولقد ورد هذا الاسم في خمسة مواضع من كتاب الله (عز وجل) ، حيث يقول سبحانه: {فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٣٤] ، ويقول (جل شأنه): {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٩٩] ، ويقول تعالى: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩] ، ويقول سبحانه: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } [الحج ٦٠] ، ويقول تعالى :{وَإِنّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [المجادلة: ٢] .

والعفو في حق الله (عز وجل) له معنيان:

الأول: الفضل ، فسبحانه هو الذي يُعطي الكثير ، ويهب الفضل الجزيل ، ويبتدئ عباده بالنعم قبل استحقاقها ، فكل نعمة منه فضل ، يقول سبحانه: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل: ١٨] ، وفي الحديث القدسي يقول (عز وجل): (يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ) (صحيح مسلم) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (يَدُ اللَّهِ مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ) (صحيح البخاري) .

الثاني: المحو والإزالة ، فسبحانه هو الذي يمحو السيئات ، ويتجاوز عن المعاصي ، ويعفو عن الذنب ، ولا يهتك الستر ، يقبل القليل من العمل ويُنميه ، ويعفو عن الكثير من الزلل ويمحوه ، يقول سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥] ،

ويقول (جل شأنه): {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] ، ولله در القائل:

وَهْوَ العَفُوُّ فعَفْوُهُ وَسِعَ الوَرَى   لَوْلاهُ غَارَ الأَرْضُ بالسُّكَّانِ

ويقول الآخر:

يَا رَبِّ إِن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً   فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنّ عَفوَكَ أَعظَمُ
إِن كانَ لا يَرجُوكَ إِلّا مُحسِنٌ   فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ
أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعًا   فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ
مَالِي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلا الرَجَا   وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمّ أَنّي مُسلِم

إن من جميل عفو الله (عز وجل) على عباده أن فتح لهم باب التوبة ودعاهم جميعًا إليه دون استثناء ، يقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى ٢٥] ، ويقول سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣]، قال بعض أهل العلم: هذه أرجى آية في كتاب الله (عز وجل) ؛ لأن الله خاطب عباده المسرفين على أنفسهم بقوله: {يَا عِبَادِيَ} ، فسماهم عباده على الرغم من إسرافهم ، فمهما كان ذنب العبد ، ومهما كانت معصيته ، ومهما بلغ تقصيره فإنه إذا تاب توبة نصوحا قبل الله (عز وجل) توبته ، وفي الحديث القدسي أن الله (عز وجل) يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ ، وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) (سنن الترمذي) .

وإن من سعة كرمه سبحانه أن عفوه لا يقف عند حدود توفيق العبد للتوبة أو قبولها منه فحسب ، فإن الكريم إذا عفا محا آثار الذنب والمعصية التي اقترفها العبد ، فلا يؤاخذه بها ، ولا يعاقبه عليها ، بل إن من جميل عفوه سبحانه أن العبد إذا تاب بدَّل الله (عز وجل) سيئاته حسنات ، فقد قال سبحانه: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان ٧٠] ، فأيُّ كرمٍ هذا ؟! وأيُّ عفو هذا ؟! ، ولله در الإمام الشافعي حين قال:

وَلَّمَا قسا قلْبِي وضَاقَتْ مَذَاهِبِي   جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنبِي فَلَّمَا قرنتهُ   بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظما
فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ   تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

ولا يخفى أن إدراك العبد لعظيم عفو الله (عز وجل) يفتح له باب الرجاء والأمل في سعة رحمته ، ويبعثُ السَّكينةَ في النفس ، والطُّمأنينةَ في القلب ، والثقةَ في أن عفو الله (عز وجل) أعظم من ذنوبه ، وأن الله (عز وجل) أرحم به من الوالدة بولدها ، لذا قال بعض الصالحين: لو قيل لي يوم القيامة سنجعل حسابك لأبيك وأمك لرفضت ذلك ؛ لأن الله (عز وجل) أرحم بي من أبي وأمي ، ولله در ابن الجوزي حين قال:

يَا كَثيرَ الصَّفْح عمَّن كثُر الذَّنبُ لديهِ
جاءك المذنب يرجو العَفْوَ عن جُرْم يديهِ
أَنَا ضَيفٌ وجزاءُ الضّيف إحْسَانٌ إليهِ

ولقد ذكر لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) مواقف يتجلى فيها عظيم عفو الله (عز وجل) على عباده يوم القيامة ، ومن ذلك:

ما رواه سيدنا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضي الله عنهما) أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قال: (إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ) (مسند أحمد) .

وعن سيدنا عبدِ الله بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ) (صحيح البخاري) .

وعن سيدنا أبي مسعود الأنصاري (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رسولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (حُوسِبَ رجلٌ ممنْ كَان قَبْلَكُم ، فَلم يُوجَد لَهُ مِنَ الخَيرِ إلا أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا يُخَالِطُ النَّاسَ ، وكَانَ مُوسِرًا فَكَان يَأمُرُ غِلمَانَهُ أَن يَتَجَاوزُوا عَن المُعْسِرِ ، قَالَ اللَّهُ (عز وجل): فَنَحنُ أَحَقُ بِذلكَ مِنهُ ، فَتَجَاوزُوا عَنْهُ) (صحيح مسلم) .

على أنه ينبغي أن لا يغتر العبد بهذا العفو العظيم ، وهذا الحلم الجميل ، وهذه الرحمة الواسعة ، حيث يقول سبحانه: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه: ٨٢] ، وقال الحسن البصري (رحمه الله): ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قومًا غرتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، قالوا نحسِنُ الظن بالله وكذبوا ؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من كرم الله (عز وجل) على عباده أن عفوه سبق عقابه ، وأن رحمته سبقت غضبه ، فعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي ، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ) (صحيح البخاري).

ولقد كان العفو من شيم النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَه، وَيعْطِي مَنْ حَرَمَه ، ويصِلُ مَنْ قَطَعَه ، ويحسنُ إلى من أساء إليه ، فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (رضى الله عنهما) ، فقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ

رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي التَّوْرَاةِ ، قَالَ: أَجَلْ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَنَذِيرًا ، وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِى وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ ، وَلاَ غَلِيظٍ ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (صحيح البخاري) .

فعلى العاقل أن يسعى لإدراك عفو الله (عز وجل) بأن يتخلق بخلق العفو ، فالجزاء من جنس العمل ، ولقد رغبّنا الحق (سبحانه وتعالى) في العفو ، ودعانا إليه ، وأخبر أن عفو الإنسان عن غيره سبب لعفو الله الكريم عنه ، فقال جل شأنه: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا إلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢] ، وقال سبحانه: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٣– ١٣٤] .

ألا ما أحوجنا إلى التقرب إلى الله (عز وجل) بهذا الخلق النبيل ، ليكون سُلوكًا عامًّا نتعايش به فيما بينَنا ، فنرى أثره في سلامة صدورنا ، وراحة قلوبنا ، رجاء أن نكون ممن أعزهم الله بعفوهم عن غيرهم في الدنيا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلاّ عِزًّا) (صحيح مسلم) ، ورجاء أن نكون من ورثة جنة النعيم في الآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران١٣٣ – ١٣٤] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَظَمَ غَيْظًا ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَاهُ الله (تبارك وَتَعَالَى) عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ) (مسند أحمد) ، ولله در القائل:

سَيُرسِلُ اللهُ أَملاكًا مُنَادِيَةً ... هَيَّا تَعَالَوا لِرَبٍّ مُطعِمٍ كَاسِ
هَيَّا تعالَوا إِلَى فَوزٍ ومغفِرَةٍ ... هَيَّا تَعَالَوا إِلى بِشْرٍ وَإِينَاسِ
أَينَ الذِينَ عَلَى الرَّحمنِ أَجرُهُمُ؟ ... فَلَا يَقُومُ سِوَى العَافِي عَنِ النَّاسِ

* * *

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم:{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، القائل في كتابه العزيز واصفًا الْكُمَّلَ من عباده: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤] ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، كان على منبره يوم جمعة ، فسأله رجل قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَأَشَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ أَنِ اسْكُتْ ، فردده‍ا ثَلَاثَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عِنْدَ الثَّالِثَةِ : (وَيْحَكَ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟)، قَالَ: حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ: (إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن محبة الله (عز وجل) ، ومحبة رسوله (صلى الله عليه وسلم) أصل عظيم من أصول الإيمان ، ومقام رفيع من أجَلِّ مقامات العبودية ؛ لذا فقد أجمعت الأمة على أن حب الله (عز وجل) ، وحب رسوله (صلى الله عليه وسلم) فرض على كل مسلم ومسلمة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}[البقرة: ١٦٥] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (متفق عليه) .

ومما لا شك فيه أن محبة الله (عز وجل) ، ومحبة رسوله (صلى الله (عليه وسلم) هي أسمى الغايات ، وأعلى الدرجات ، وكل مقام يبلغه

العبد بعد محبة الله (عز وجل) ، ومحبة رسوله (صلى الله (عليه وسلم) إنما هو من ثمرات هذه المحبة وآثارها؛ وفي هذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ) (متفق عليه) .

ولقد توعد الحق سبحانه من قَدَّم حب عَرَض الدنيا على حب الله (عز وجل) ، وحب رسوله (صلى الله عليه وسلم) فقال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[التوبة: ٢٤] ، فكفى بهذه الآية حضًّا وتنبيهًا ودلالة وحجة على وجوب محبة الله (عز وجل) ، ومحبة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وتقديمها على أي محبة أخرى .

ولقد ضرب لنا أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة في حقيقة المحبة الصادقة لله (عز وجل) ، ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يكن ذلك جبرًا أو إكراهًا ، إذ كيف يُجبر إنسانٌ على الحب ؟! بل كان ذلك مبادلة للحُبّ بالحُبّ ، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) عندما خرج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ليلة الهجرة ، جعل يمشي مرّة أمام النبي (صلى الله عليه وسلم) ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فسأله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك، فقال: (يا رسول الله أذكر الرّصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون

خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك) ، فلما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر (رضي الله عنه): "والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله قبلك ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك" (دلائل النبوة للبيهقي) . إنه التعبير عن شدة المحبة في أجلى صورها .

وهذا سيدنا عُمَرُ (رضي الله عنه) يقول للنبيّ (صلى الله عليه وسلم): (يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا مِنْ نَفْسِي) ، فقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ) ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ (رضي الله عنه): (فَإِنَّهُ الْآنَ ، وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (الْآنَ يَا عُمَرُ) (صحيح البخاري) ، أي الآن كمُل إيمانك .

وعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ إِنَّكَ لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وَإِنَّكَ لأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي ، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي ، وَإِنِّي لأَكُونُ فِي الْبَيْتِ ، فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ ، فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لا أَرَاكَ ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ) بِهَذِهِ الآيَةِ : {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[النساء: ٦٩] (المعجم الصغير والأوسط للطبراني) .

لقد كان حب الصحابة للنبي (صلى الله عليه وسلم) حبًّا صادقًا ؛ وذلك لأنه نابع من إدراكهم لنعمة الله (عز وجل) عليهم ، حيث أرسل إليهم رسوله (صلى الله عليه وسلم) ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى ، فكان الواحد منهم لا يتردد في فداء النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه وأهله وماله وولده والناس أجمعين ، فهذا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ (رضي الله عنه) يوم أن أسِرَه المشركون ، وأَخْرَجُوهُ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلوه ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِيهِمْ أَبُو سُفْيَان بْنُ حَرْبٍ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ ، حِينَ قُدِّمَ لِيُقْتَلَ: نَشَدْتُكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الآنَ بِمَكَانِكَ يُضْرَبُ عُنُقُهُ ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ ، وَأَنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا . (المعجم الكبير للطبراني) .

وإن من المواقف الخالدة التي تظهر حب الصحابة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما كان من سعد بن الربيع (رضي الله عنه) في يوم أحد حين بعث النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أُبيَّ بن كعب (رضي الله عنه) يبحث عنه ، فوجده في أنفاسه الأخيرة ، فقال له أُبيّ (رضي الله عنه): لقد بعثني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنظر ما فعلت ؟ فقال سعد (رضي الله عنه): أقرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مني السلام وقل له يا رسول الله إني لأجد ريح الجنة ، وأقرأ قومي من الأنصار السلام ،

وقل لهم يا قوم لا عذر لكم عند الله إن خلُص إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفيكم عين تطرف ، ثم فاضت روحه (رضي الله عنه) . (دلائل النبوة للبيهقي) .

وهذه أم عمارة (نُسيبة بنت كعب) تضرب لنا مثلًا آخر فريدًا في المحبة والتضحية لتعلِّم الرجال قبل النساء كيف تكون المحبة الصادقة ، فقد كانت تحثُّ ابنها عبدالله بن زيد (رضي الله عنه) يوم أُحُدٍ قائلة له: انهَض بُنَي وضارب القوم ، وقد نظر النبي (صلى الله عليه وسلم) إليها قائلا: (ومَن يُطِيق ما تُطِيقين يا أم عمارة ؟ ، سليني يا أم عمارة) ، فقالت: اُدْعُ اللّهَ أَنْ نُرَافِقَك فِي الْجَنّةِ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (اللّهُمّ اجْعَلْهُمْ رُفَقَائِي فِي الْجَنّةِ) ، فقَالَتْ أم عمارة (رضي الله عنها) : إذًا لا أُبَالِي مَا أَصَابَنِي مِن الدّنْيَا . (المغازي للواقدي) .

وهذا الموقف لا يقل روعة ولا فداءً ولا تضحية عن موقف تلك المرأة الأنصارية التي أُخْبِرَت بمقتل أبيها وابنها وزوجها وأخيها يوم أُحد حين قالوا لها: "أبوك ، زوجك ، أخوك ، ابنك قد قُتلوا" ، فقالت: "وما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)"؟ قالوا لها: هو بحمد الله كما تحبين ، قالت: "أرونيه أنظر إليه" ، فلما رأته (صلى الله عليه وسلم) فأخذت بناحية ثوبه ، ثم قالت: "بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كل مصيبة دونك تهون يا رسول الله" (السيرة النبوية لابن هشام) .

وهَذَا شَاب منْ صَحَابَةِ رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، ضعُف أمام الخَمْرِ فَشَرِبَ مِنْهَا ، فَحُمِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وسلم) فَأَمَرَ بِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ! مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ! فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (لا تَلْعَنُوهُ! فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ! لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ ، وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَه) (صحيح البخاري) .

لقد تعلقت القلوب بحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعظيم أخلاقه ، ولجميل طباعه ، وحسن عشرته ، ولا أدل على ذلك من موقف زيد بن حارثة (رضي الله عنه) مع النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل البعثة يوم أن جاء أبوه وعمه يريدان أن يقدما الفداء لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى يعود معهما زيد ، فقَال النبي (صلى الله عليه وسلم) لهما: (أَدْعُوهُ فَأُخَيِّرُهُ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بِغَيْرِ فِدَاءٍ ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَ اللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي أَحَدًا) ، قَالا: قَدْ زِدْتَنَا النَّصَفَ ، وَأَحْسَنْتَ ، فَدَعَاهُ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقَالَ له: (هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلاءِ ؟) ، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (مَنْ هَذَا ؟) ، قَالَ: أَبِي ، وَهَذَا عَمِّي . قَالَ: (فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ صُحْبَتِي لَكَ ، فَاخْتَرْنِي أَوِ اخْتَرْهُمَا) . فقَالَ زَيْدٌ: مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَدًا ، أَنْتَ مِنِّي بِمَكَانِ الأَبِ وَالْعَمِّ . فَقَالا: وَيْحَكَ يَا زَيْدُ ، أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ ، عَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ؟ قَالَ: نَعَمْ ، قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا ، مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا أَبَدًا . فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ: (يَا مَنْ حَضَرَ اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي ، يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ) . فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ طَابَتْ أَنْفُسُهُمَا ، ثم انْصَرَفَا ، فَدُعِيَ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَتَّى جَاءَ اللَّهُ

بِالإِسْلامِ ، ثم حُرِّم التبني (السيرة النبوية لابن هشام) ، فما أحوجنا إلى التأسي بهؤلاء الأفذاذ في حبهم لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وافتدائهم له بأنفسهم وأموالهم وأولادهم وآبائهم وأمهاتهم .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن ادعاء حب الله (عز وجل) ، وحب نبيه (صلى الله عليه وسلم) يبقى مجرد ادعاء لا يرقى إلى الحقيقة الواقعية ما لم يكن له شواهد تدل على صدقه ، وإن المرء ليعجب من أولئك الذين يتشدقون بمحبة الله ورسوله ، وأعمالهم السيئة تفضحهم ، هل من يحب الله ورسوله يمكن أن يكون محتكرًا ؟ هل من يحب الله ورسوله يمكن أن يكون غشاشًا ؟ هل يمكن أن يكون متاجرًا بأقوات الناس ؟ .

والجواب: لا يمكن أن يكون هذا ولا ذاك ، وإذا أخذنا أنموذجًا واحدًا كالاحتكار والتلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الضرورية والأساسية ، وعرضناه على شريعة الله (عز وجل) لوجدنا وعيدا شديدا لمن فعل ذلك ، فقد نهى الإسلام عن كل ألوان الغش والاحتكار ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم) ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَهُوَ

خَاطِئٌ) (مسند أحمد) ، وفي رواية : (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله ، وَالله بَرِئٌ مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعًا ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ الله) (مسند أحمد) .

إن المحبة الحقيقة هي التزام الأمر ، واجتناب النهي ، والوقوف عند الحد ، فشتان بين مدعٍ أطفأ الله (عز وجل) بصيرته ، وأعمى قلبه ، فحمل لواء الشر والعنف ، وجعل القتل والتخريب والإفساد منهجًا له ، وبين محب حقيقي لله ورسوله ، متبع صادق يدافع عن سنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ويصحح كل ما ينسب إليها زورًا وبهتانًا ، ولله در القائل:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّهُ   هَذا لَعَمْري في القِياسِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقًا لَأَطَعتَهُ   إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ

ويقول الآخر:

من يدّعي حُبّ النبي ولم يُفد   من هديهِ فسَفاهةٌ وهُراءُ
فالحُب أوّلُ شرطِهِ وفُروضهِ   إنْ كان صِدقًا طاعةٌ ووفاءُ

لا شك أن حبّ الله (عز وجل) ، وحبّ رسوله (صلى الله عليه وسلم) هو منهج وسلوك تظهر آثاره في أفعال المسلم ، وأقواله ، ومعاملاته مع الناس جميعًا ، وليس ادعاءً باللسان ، أو تظاهرًا بالفعل ، فالمحب الصادق هو من ينشر بين الناس الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، والرحمة والرأفة .

ولقد جعل الله (عز وجل) طاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) واتباع هديه ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) من علامات محبة العبد لربه سبحانه؛ حيث يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ

تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١] ، ويقول سبحانه: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠] ، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢] .

*　　*　　*

عالمية الرسالة المحمدية كما يجب أن نفهمها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [سبأ: ٢٨] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ القائل في محكم التنزيل: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، وصفيه من خلقه وخليله ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلا شك أن الرسالة المحمدية رسالة عالمية ، لم تكن يوما رسالة خاصة بالعرب وحدهم ، أو محدودة بمكان دون مكان ، أو مقيَّدة بزمان دون زمان ، ولم يكن القرآن يوما لقوم بعينهم ، حيث يقول سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١] ، ويقول تعالى: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [يوسف: ١٠٤] ، فهو منذ نزوله على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) يخاطب الناس كافة ، بمبدأ واحد ، وهدف واحد هو إخلاص العبودية لله (عز وجل) ، وحمل الخير للإنسانية قاطبة ، ونشر السلم والسلام ، والأمن والأمان ، والرحمة والعدل والمساواة بين البشر جميعًا .

وقد بعث الله (عز وجل) رسوله محمدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) هاديًا وبشيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا برسالةٍ خاتمةٍ عالميةٍ صالحةٍ ومصلحةٍ لكل زمان ومكان ، حيث يقول سبحانه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً

لِلنّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [سبأ: ٢٨] ، فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) أسوة وقدوة للبشرية كلها ، قال تعالى: {لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١] ، على أن البعد العالمي للرسالة المحمدية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان واضح كل الوضوح في مظاهر كثيرة ، منها:

عالمية المبادئ والقيم : فإن الرسالة المحمدية أرست الأخلاق الفاضلة ، والقيم العادلة ، والمبادئ السامية ، والأخوة الإنسانية التي تقوي ترابط وتماسك الأمم والشعوب وتعاونها ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }[النساء: ١] ، ويقول (عز وجل): { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }[الحجرات: ١٣] ، فهي رسالة عالمية تدعو إلى تعايش أفرادها مع اختلاف معتقداتهم ، في تعاملهم ، وفي أعمالهم ، وفي أقوالهم ، وفي كل شئون حياتهم .

والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقرِّر هذا الإخاء ويؤكِّده ، بقوله: (أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ) (سنن أبي داود) ، فهو (صلى الله عليه وسلم) يعلن من خلال هذا الدعاء أن الأخوة بين عباد الله جميعًا ، لا بين العرب وحدهم ، ولا بين المسلمين وحدهم ، بل هي أخوة بين بني البشر جميعًا ، على اختلاف أجناسهم وأعراقهم ، وألوانهم ، ومعتقداتهم .

وهذا الإخاء الإنساني حقيقة دينية لا ريب فيها ، ويزداد هذا الإخاء ترابطا إذا أضيف إليه الإيمان بالله فتكتمل الأخوة الإنسانية ، يقول سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات: ١٠] ، ولقد طبَّق الإسلامُ هذا الإخاء الرفيع ، وأقام على أساسه مجتمعا إنسانيا فريدا ، ذابت فيه فوارق الجنس واللون والعرق واللغة ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) ، وكلمة "أخيه" في الحديث لم تُقيد بصفة ، بل هي على إطلاقها لتشمل عموم الأخوة الإنسانية .

كما خَطَت الرسالة المحمدية بالحضارة الإنسانية خطوات وثابة ، ارتقت من خلالها بقيمة الإنسان إلى منزلة سامية ، ومكانة عالية لم يعرف التاريخ لها مثيلًا ، حيث رسّخ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) دعائم الأخلاق وأتمها ، وأعلى شأن القيم الإنسانية ورفع عمادها ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ) (مسند أحمد) .

عالمية الرحمة ، فقد تميزت عالمية الرسالة المحمدية بالرحمة للناس جميعًا ، حيث يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه (صلى الله عليه وسلم): {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، ويقول سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨] ، فهي الرحمة الواسعة الفياضة بكل معانيها ، كما نجدها واقعًا عمليًا أيضًا في شخص الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) خلقا وأدبًا وسلوكًا ، هذه الرحمة التي أنقذت البشرية من الضلال

إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، وأزالت العصبية والعنصرية ، وعم نفعها العالم كله ، فقد سوى الإسلام بين الناس جميعًا ، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، وهي التي جعلت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول في شأن من عادوه وآذوه: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ) (سيرة ابن هشام) ، ويدعو لهم بقوله: (اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ) (متفق عليه) .

ولقد أخبر (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الرحمة فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، وبهذه الرحمة والرأفة نجح (صلى الله عليه وسلم) في تأليف قلوب مَنْ حَوْلَه ، وصدق الله حيث قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . . . } [آل عمران: ١٥٩] ، فقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بأمته حدًّا يفوق كل تصورات العقول ، حتى شملت الإنسان والحيوان والطير والنبات وسائر المخلوقات .

ترسيخ مبدأ المساواة: فمن القيم التي عملت الرسالة المحمدية على ترسيخها مبدأ المساواة الإنسانية ، الذي قرره الإسلام ونادى به ، احترامًا للإنسان وتكريمًا له من حيث كونه إنسانًا ، ودعوتها إلى السلام بكل ما تحمله الكلمة من معان على مستوى الأفراد والمجتمعات ، يقول سبحانه: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٦] ، فهي رسالة تحمل كلَّ معاني الإنسانية والرحمة والسلام للناس جميعًا ،

حيث أَمَرَ الله (عز وجل) بِبِرِّ غير المسلمين والإحسان إليهم ، بقوله سبحانه: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٨] ، فالبر الذي هو قِمَّةُ الأدب والإحسان مع الوالدين ، مطلوبٌ هو بعينه مع الناس جميعًا ، والقسط والعدل والوفاء هو خُلق الإنسان مع أخيه في الإنسانية سواء بسواء .

التسامح والاعتدال: كما جاءت الرسالة المحمدية داعيةً إلى التسامح والاعتدال ونبذ كل مظاهر العنف والتشدد ، حيث وجهت الدعوة لجميع الخلق للتعارف والتآلف فيما بينهم ، تحمل السلام للعالم كله ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] ، وقال عمار بن ياسر (رضي الله عنهما): (ثَلاَثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلاَمِ لِلْعَالَمِ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ) (صحيح البخاري معلقًا) ، فنشر السلام عالميًّا توطيد للعلاقات الدولية والمجتمعية ؛ ولذلك نجد النبي (صلى الله عليه وسلم) يبدأ جميع رسائله ومكاتباته إلى الملوك والأمراء بالسلام .

فنشر السلام في العالم كله صمام أمان للمجتمعات ، ترتفع به دعائمها وتعلو به رايتها ، ويعيش أبناؤها في أمن وأمان وسلم) واستقرار ،

فيقوى اقتصادهم ، ويعيشون في سعة من العيش ورغد ورفاهية ، ومن ثم يعم الأمن ويكثر الخير وتفيض البركة ، وتلك بعض مظاهر عالمية الرسالة المحمدية ، التي ينبغي أن يعلنها المسلمون للدنيا كلها .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن عالمية الرسالة المحمدية شرف لهذه الأمة ، ولا غنى للبشرية عنها، فهي تحمل الخير والنفع للإنسانية جمعاء ، وبها يتحقق التقدم والرخاء ، وبتشريعاتها يأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وهذا بدوره يحقق الأمن والأمان بين أفراد المجتمع ويصنع جوًّا من التسامح والتحاب الذي هو أحوج ما تكون إليه البشرية الآن ، فالرسالة المحمدية تحمل أبعادًا إنسانية واجتماعية ، وتعمل لخدمة القضايا الإنسانية النبيلة التي تنمي العطاء المجتمعي والإنساني والخيري ، وتعزز روح المسئولية المجتمعية ، وتراعي الحقوق وتفي بالعهود ، وتحافظ على الواجبات مع جميع البشر ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم وأعراقهم ومعتقداتهم ، وقد علمنا ديننا أن خير الناس أنفعهم للناس كل الناس ، وهذا النفع معنى واسع يشمل المساعدات الإنسانية ، كما يشمل جميع المنافع المتبادلة سياسيًّا واقتصاديًّا وتجاريًّا وعلميًّا

وحضاريًّا ، وكما قالوا: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه ، وإننا لمأمورون بالإحسان إلى الخلق جميعًا ، والرحمة بهم جميعًا ، وحب الخير لهم جميعًا .

*   *   *

من مظاهر العظمة في الشريعة الإسلامية
السماحة والتيسير(*)

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله القائل: (بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فمما لا شك فيه أن مظاهر العظمة في الشريعة الإسلامية أكثر من أن تحصى أو تعد ، وأن من أجلِّ وأبهى ما تميزت به الشريعة الإسلامية السماحة والتيسير في أسمى معانيها ، فلا ترى فيها حرجًا ولا مشقة ، ولا شدّةً ولا عُسْرًا ، ولا يقدح في ذلك تشدد بعض المنتسبين إلى الإسلام ممن ظنوا أن التحوط في الدين يقتضي الأخذ بالأشد ، ففتحوا على الأمة أبواب التشدد التي ساقت وجرفت الكثيرين في طريق التطرف تحت مسمى الالتزام ، والاحتياط ، والأحوط ، حتى أصبح التشدد ميدانًا للتنافس بينهم ، ولسان حالهم يتوهم أن من يتشدد أكثر هو الأكثر تدينًا وخوفًا من الله (عز وجل) ، وهذا إنْ دل فإنما يدل على جهلهم بعظمة هذا الدين وسماحته ويسره ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن

---

*) الخطبة من إعداد معالي وزير الأوقاف أ. د/ محمد مختار جمعة .

قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [الحج: ٧٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري) ، ولله در سفيان الثوري حيث قال: إنما العلم عندنا الرخصة من الثقة ، أما التشدد فيحسنه كل أحد" (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر) .

إن السماحة في الشريعة الإسلامية ليست كلمة تقال ، أو شعارًا يرفع ، إنما هي منهج رباني ، ومبدأ من المبادئ التي عامل الحق سبحانه بها عباده ، وأمرهم أن يتعاملوا بها فيما بينهم ، فقال سبحانه: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦] ، وقال جل شأنه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] ، ويقول عز سلطانه: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] ، وفي أرجى آية من كتاب الله يفتح ربنا سبحانه باب الرجاء والعفو والرحمة لعباده أجمعين فيقول سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] ، ويقول سبحانه: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [الكهف: ٥٨] ، ويقول جل شأنه: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٠٦] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) ، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، أنه قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي

سَبَقَتْ غَضَبِي) (صحيح البخاري) ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) (سنن الترمذي) .

كما دعا الحق سبحانه عباده إلى العفو والتسامح في مواضع عديدة من كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩] ، ويقول سبحانه: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٥ ، ٣٦] ، ويقول تعالى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا إِلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢] .

ولا شك أن المتدبر في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدرك يقينًا أنه (صلى الله عليه وسلم) كان نعم القدوة لأمته وللإنسانية جمعاء في السماحة والتيسير ، وفي ذلك تقول أم المؤمنين عَائِشَةُ (رضي الله عنها): (مَا خُيِّرَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لِنَفْسِهِ إلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ بِها) (صحيح البخاري) .

ولنقف مع بعض النماذج من سيرته (صلى الله عليه وسلم) في الدعوة إلى الله (عز وجل) بالحكمة والموعظة الحسنة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ ، قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ ، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) الصَّلَاةَ ، قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا ، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ ، قَالَ: (أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا)، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ) (متفق عليه) .

وعن أبي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي المَسْجِدِ ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (صحيح البخاري) ، وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِصَبِيٍّ فَبَالَ عَلَى ثَوْبِهِ ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) بِمَاءٍ فَأَتْبَعَهُ إِيَّاهُ) (صحيح البخاري) .

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ ، مَا شَأْنُكُمْ ، تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، فَوَ اللهِ ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي ، إنما قَالَ: (إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) (صحيح مسلم) .

ولا شك أننا إذا تتبعنا كتاب ربنا سبحانه ، وسنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) لوجدنا فيهما ضروبًا من التسامح والتيسير والرفق التي تقضي على كل صور التطرف والغلو والعنف التي يعاني منها العالم الآن ، **ففي جانب العقيدة**: نجد أن الإسلام لم يجبر أحدًا على اعتناقه ، بل كفل حرية الاعتقاد للجميع ، فقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩] .

وفي جانب العبادات: دعا النبي (صلى الله عليه سلم) إلى التيسير والتخفيف ، والبعد عن التشدد ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إنَّ منكم مُنَفِّرِين ، فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ) (متفق عليه) ، وعندما اشتكى بعض الناس من سيدنا معاذ بن جبل (رضى الله عنه) أنه أطال الصلاة بهم ، قالَ له النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) معلمًّا: (يَا مُعَاذُ ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ – ثَلاَثًا – اقْرَأْ: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) ، (وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، وَنَحْوَهَا) (متفق عليه) ، وفي رواية: (فَإِنَّهُ يُصَلِّي وَرَاءَكَ الكَبِيرُ وَالضَّعِيفُ وَذُو الحَاجَةِ) (صحيح البخاري) ، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه سلم) المَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ ، فَقَالَ: (مَا هَذَا الحَبْلُ ؟) قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه سلم): (لاَ ، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ) (متفق عليه) ، وعن جابر (رضي الله عنه) ، قال: خَرَجنا في سَفَرٍ فأصابَ رجلًا معنا حَجَرٌ فشَجَّهُ في رأسِهِ ، ثمَّ احتَلَمَ ، فسألَ أصحابَه فقال: هل تَجِدُونَ لي رُخصةً في

التيمُّمِ؟ قالوا: ما نَجِدُ لكَ رُخصةً وأنتَ تَقدِرُ على الماء ، فاغتَسَلَ فماتَ ، فلمّا قَدِمْنا على النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) أُخبِرَ بذلك ، فقال: (قَتَلوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ ، ألا سألوا إذْ لم يَعلَموا ، فإنما شِفاءُ العِيِّ السُّؤالُ ، إنما كانَ يكفيهِ أن يَتَيَمَّم ويَعصِرَ -أو يَعصِبَ - ، على جُرحِهِ خِرقةً ، ثمَّ يَمسَحَ عليها ويَغسِلَ سائِرَ جَسَدِه) (سنن أبي داود) ، ووجه النبي (صلى الله عليه وسلم) عمران بن حصين (رضي الله عنه) عندما كان مريضًا فقال له: (صَلِّ قَائِمًا ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ) (متفق عليه) ، لقد جَسَّدَ لنا النبي (صلَّى الله عليه وسلم) السماحة تجسيدًا عمليًّا ، فأصبحت صورة مضيئة تشهد بعظمة الإسلام ، فتجده (صلى الله عليه وسلم) يقول عن الصلاة وهي أعظم شعائر الدين: (إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِه) (متفق عليه).

وفي جانب المعاملات: حثت الشريعة الإسلامية على السماحة والتيسير، ورفع المشقة والحرج بين الناس في البيع والشراء ، والاقتضاء ، فقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ لا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} [النساء: ٢٩] ، وقال تعالى: {وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨٠] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ ، وَإِذَا اشْتَرَى ، وَإِذَا اقْتَضَى) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (رَحِمَ

اللَّهُ عَبْدًا سَمْحًا قَاضِيًا ، وَسَمْحًا مُقْتَضِيًا) (المعجم الصغير للطبراني) ، والسماحة في البيع تعني: ألا يكون البائع شحيحًا ، مغاليًا في ربحه ، محتكرًا لسلعته ، مطففًا وزنه ، والسماحة في الشراء تعني: أن يكون المشتري سهلًا مع البائع فلا يبخس الناس أشياءهم ، والسماحة في الاقتضاء: تعني أن يطلب الرجل حقه ، أو ديْنه بلين ورفق وسماحة ، وأخبر (صلى الله عليه وسلم) أن السماحة في المعاملات سبب من أسباب النجاة في الآخرة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ بِسَمَاحَتِهِ قَاضِيًا وَمُتَقَاضِيًا) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ) (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) مخبرًا عن بعض مشاهد يوم القيامة: (يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا فِي النَّارِ: هَلْ تَلْقَوْنَ مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ ؟ قَالَ: فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلًا ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ: لا ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامِحُ النَّاسَ فِي الْبَيْعِ ، فَيَقُولُ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): أَسْمِحُوا لِعَبْدِي كَإِسْمَاحِهِ إِلَى عَبِيدِي) (صحيح ابن حبان) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلامِ:

إن مبدأ السماحة في الإسلام لا يقف عند حد تعامل المسلمين بعضهم مع بعض فحسب ، بل هو منهج حياة شامل يسع الناس جميعًا ، وقد قال ربنا سبحانه آمرًا عباده المؤمنين بحسن المعاملة مع الناس جميعًا: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة: ٨٣] ، ويقول سبحانه: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨] ، وكان عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما)إذا ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ ، يَقُولُ لِغُلامِهِ : أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ ؟ أَهْدَيْتَ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ ؟ إني سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) (سنن الترمذي)

ومن ألوان السماحة سماحة النفس ، بمعنى سخائها ، وجودها ، وبذل الخير للناس أجمعين ، يقول الشافعي (رحمه الله):

تستر بالسخاء فكل عيب ... يغطيه كما قيل السخاء

ولا ترَ للأعادي قط ذلًا ... فإن شماتة الأعدا بلاء

ولا ترج السماحة من بخيل ... فما في النار للظمآن ماء

اللهم احفظ مصرنا من كل مكروه وسوء ، وسائر بلاد العالمين

* * *

خيرية الأمة وخيرية نبيها
(صلى الله عليه وسلم)

الحمـد لله رب العـالمين ، القائـل في كتابـه الكـريم: {وَكَـذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [آل عمران: ١٤٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلقد كرم الله (عز وجل) الأمة المحمدية ، وبيّن فضلها ومكانتها ، وخيريتها بين الأمم ؛ وهذه الخيرية أمانة ومسئولية قبل أن تكون تشريفًا وتكريمًا ، حيث يقول الحق سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): {أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ}(مسند أحمد) .

ولا شك أن الأمة الإسلامية استمدت خيريتها من خيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهو رسول الله للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو من قرن الله (عز وجل) ذكرَه بذكرِه في كل وقت وحين ، وهو من جمع الله له النبيين فآمنوا به ، وصلوا خلفه أجمعين ، وهو من تكاملت رسالته مع الرسالات السابقة ، حيث يقول سبحانه: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}

[البقرة: ٢٨٥] ، فهو (صلى الله عليه وسلم) حظنا من الأنبياء ، ونحن حظه من الأمم ، فما أسعدنا بشرف الانتماء إليه (صلى الله عليه وسلم) ، ولله در القائل:

وممـــا زادنــــي شــرفًا وتيهـًـا   وكدتُ بأخمصـــي أَطــأُ الثريَّا

دخولِي تحتَ قَولكَ يَا عبــادِي   وأن صيَّرتَ أحمــدَ لِي نبيّــا

إن الحديث عن خيرية الأمة المحمدية ، وخيرية نبيها (صلى الله عليه وسلم) ليس حديثًا بدافع التفاخر أو التعالي أو العنصرية ، بل هو حديث من منطلق تحمل الأمانة ، وأداء الرسالة ، والشعور بالمسئولية ؛ لأن الخيرية التي وصف الله (عز وجل) بها الأمة المحمدية ليست خيرية مطلقة دون ضوابط أو علامات ، فقد جعل الله (عز وجل) لهذه الخيرية مقومات إذا أخذت بها الأمة ، وقامت بواجبها نحو أدائها تحققت لها هذه الخيرية ، ومن هذه المقومات تطبيق القيم والمبادئ والأخلاقيات التي جاءت بها الرسالة المحمدية بمفهوم شامل يحقق التسامح والتعايش السلمي بين البشر جميعًا ، ويدفع المسلم لتحقيق الخير والنفع لكافة الخلق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ ، وَلَا يُؤْلَفُ ، وَخَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) (المعجم الأوسط للطبراني) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ) (صحيح ابن حبان) .

وحتى تحقق الأمة هذه الخيرية بمفهومها الشامل الذي يجعل الإنسان يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه ، يجب أن تدرك الأمة المعنى الحقيقي للوسطية التي تحمل أبناء الأمة على التوازن والاعتدال في

كل الأمور ؛ من فهم مقاصد الدين ، وتحقيق مصالح المجتمع ونفع الناس ، والعمل من أجل إعمار الكون ، والفوز في الآخرة ، ويتأتى ذلك بالموازنة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد وفق منهج الإسلام المستقيم البعيد عن الإفراط والتفريط ، لذا فقد حذَّر الإسلام من جميع ألوان التشدد والغلو ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم): (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) (صحيح مسلم) ، وكررها ثَلَاثًا ؛ لبيان خطورة ذلك ، وهذه الوسطية الصحيحة هي التي تؤهل الأمة لتكون جديرةً بالقيام بحق الشهادة على سائر الأمم كما أراد الله لها ، في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] .

ومن مقومات تحقيق خيرية الأمة: **الأمر بالمعروف** ، **والنهي عن المنكر** ، حيث يقول سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وهذا يتطلب أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، فقوله تعالى: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} لا يتم إلا بتحقيق المعروف في الوسيلة وهي أسلوب الدعوة ، وفي الغاية وهو الفعل المأمور به ، فإذا تحول أسلوب الدعوة إلى تشدد فإن مَن فعل ذلك قد خالف الضوابط الشرعية التي أصَّلها الشرع الحنيف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ حيث يقول سبحانه: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥] .

والمتدبر في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وهديه في دعوته ، ووصيته لأصحابه يجد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم الناس ، ويأخذ بأيديهم ، ويبين لهم الحق برفق ولين ورحمة وذلك دون أن يقلل من شأنهم ، أو ينْتَقِصُ من أقدارهم ، والأدلة على ذلك من سيرته العطرة الشريفة أكثر من أن تحصى أو تعد ، ومن ذلك:

ما كان من مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، حيث قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَّاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصْمِتُونِي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، وَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي ، وَلاَ شَتَمَنِي ، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) (صحيح مسلم) .

وعَنْ أبي هُريرة (رضي الله عَنْهُ) قَال: بَينماَ نَحن جُلُوس عِنْدَ النبي (صلى الله عليه وسلم) إذ جَاءه رَجلٌ ، فقَالَ: يَا رَسولَ الله ، هَلَكتُ ! فقال: (ما أهلَكَكَ ؟) . قال: وَقَعْتُ على امْرَأْتِي ، وأنا صائمٌ . وفي رواية: "أصبتُ أهلي في رَمَضَانَ" ، فقالَ رَسُولُ الله (صلى الله عليه وسلم): (هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تعتقها ؟) قال: لا ، قال: (فهل تستطِيعُ أن تصوم شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعْين ؟) قال: لا ، قال: (فهل تجد إطعام ستين مسكينًا ؟) قال: لا ، قال: فَسَكَتَ النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فبينما نَحْنُ على ذلك إذْ أُتي

النبي (صلى الله عليه وسلم) بِمكتل فيهِ تَمرٌ ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَيْنَ السَّائِلُ ؟) ، قالَ: أنا ، قال: (خُذْ هذَا فتصَدَّق بِهِ) ، فقال: أعلى أفقرَ منِّي يَا رَسُولَ اللّه ؟ فَوَ الله مَا في المدينة أَهْلُ بَيْتٍ أفْقَر مِنْ أهل بَيْتي ! فَضَحِكَ النَّبِي (صلى الله عليه وسلم) ، ثمَّ قَالَ: (أطْعِمْهُ أهْلَكَ) (متفق عليه) .

كما أن قوله تعالى: {وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} متعلقٌ أولًا بكون المنكر الذي يُنهى عنه مُجمعًا على إنكاره ، كقوله (صلى الله عليه وسلم): (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) (متفق عليه) ، أما المسائل التي يكون الخلاف فيها سائغًا ومعتبرًا بين أهل العلم فلا إنكار فيها ، فإن القاعدة الفقهية تقرر أنه: (لا ينكر المُخْتلف فيه ، وإنما ينكر المُجمَع عليه) .

على أننا نؤكد على أمرين في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأول: أن أشد المنكر ما كان يتعلق بأمر عامٍ ؛ لأن الأمور العامة تتعلق بحقوق الناس جميعًا ، وليس حقًّا لفِئَة معيَّنة ، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات ؛ لذا كان التعدي على المصالح العامة من أشد أنواع المنكر .

الثاني: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يكون منضبطًا بضوابط الشرع الحنيف ، مراعيًا اختصاص من أناط الله بهم ذلك من

الحكام والعلماء والقضاة وغيرهم ، انطلاقًا من قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) (صحيح مسلم) ، فاليد للحاكم أو السلطان ، واللسان للعلماء ، والقلب لعامة الناس. كما أن من أهم مقومات خيرية الأمة **تحقيق الإيمان بالله** (**عز وجل**) ، فالإيمانُ بالله (عز وجل) يهدِي صاحبه إلى كل خيرٍ ، قال تعالى: {وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١] ، وبه يحيا الإنسان حياة طيبة ، مراقبًا لله (عز وجل) في كل حركاته وسكناته ، فلا يعتدي على حق غيره ، ولا يأخذ ما لا يحل له ، فيأمنه الناس ويألفونه ، وهذا هو جوهر الإيمان وحقيقته ؛ لذا قال (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ على أَمْوالِهِم وأَنْفُسِهم) (سنن الترمذي) .

أما مَن انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن حقيقة الإيمان فقد افتقد روح الإيمان ، وضيّع حقيقته ، وقد صرَّح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عمن يؤذي جاره ، أو من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (المعجم الكبير للطبراني) ، فالإيمان الحقيقي هو الذي ينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد والغل، والغدر والخيانة ، والفساد والإفساد ، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه

ويظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في الكون والحياة ، وتعامله مع خلق الله أجمعين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من أهم مقومات خيرية الأمة تحقيق الرحمة للعالمين ، وتحويلها إلى واقع نتعايش به في حياتنا ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم): {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، فنحن في حاجة ماسة إلى رحمة الطبيب بمرضاه ، والمعلم بطلابه ، والصانع بمعاونيه ، ورب المال والأعمال بعماله ، والعالم بمتعلميه وسائليه ومستفتيه ، ورئيس العمل بمرءوسيه ، والوالد بولده ، والولد بوالديه ، والأخ بأخيه ، والزميل بزميله ، فما أحوجنا إلى التخلق بأخلاق الإسلام النبيلة ، وقيمه الراقية ، وأن نعمل على أرضية إنسانية مشتركة ، لا ينتزع الإنسان فيها من إنسانيته ، ولا تنتزع منه إنسانيته ، حتى يشعر الإنسان بأخيه الإنسان ، بآماله ، وآلامه ، وأوجاعه ، ولنبدأ بأنفسنا أمة وأفرادًا مرددين: يا أمة الأخلاق عودي ، فسبيل الأخلاق هو سبيل الرشاد والتحضر والتقدم والرقي .

وختامًا . . لا شك أن الحديث عن خيرية الأمة وبيان فضلها ومكانتها يمنح أبناءها الثقة في مواجهة التحديات ، ويكون دافعًا لهم نحو التقدم

والتحضر ، والجد والاجتهاد في العمل والإنتاج ، وإن من أوجب الواجبات على الأمة الآن أن تسعى جاهدة لتحقيق الخيرية التي ميّزها الله (عز وجل) بها ، وأن تتحمل مسئوليتها وتؤدي رسالتها على الوجه الأكمل ، ولنعلم أننا جميعًا موقوفون بين يدي الله (عز وجل) ، ومن علم أنه موقوف علم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال أمام الله جوابًا ، فقد قال تعالى: {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف: ٤٣ ، ٤٤] .

ألا ما أحوجنا إلى أن نُجَسّد بأفعالنا وأحوالنا وأقوالنا خيرية التعاليم الإسلامية وسموها ورقيها ، لننال بذلك رضا الله (عز وجل) ، ونقدم للعالم شهادة عملية على أن الإسلام دين الحضارة والبناء والإنسانية بكل معانيها ، بعد ما تسللت الأفكار الهدامة إلى عقول بعض أبناء الأمة من خلال أناس زعموا أنهم يتحدثون باسم الإسلام ونبيه ، والإسلام ونبيه منهم براء .

اللهم احفظ مصرنا من كل مكروه وسوء ، وسائر بلاد العالمين

* * *

التأسي بأخلاق الرسول الكريم
(صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلقد بعث الله (عز وجل) رسوله محمدًا (صلى الله عليه وسلم) ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليتمم برسالته مكارم الأخلاق ومحاسنها ، فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قمة الكمال البشري بما حباه به ربه من أخلاق فاضلة ، وإنسانية كاملة ، ولا عجب في ذلك فقد اجتمع في شخصه (صلى الله عليه وسلم) كلُّ ما تفرّق من الخير والمعروف في الأنبياء السابقين ، حيث يقول تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠] ، فهو الأسوة والقدوة التي ارتضاها الله (عز وجل) للناس جميعًا .

ولقد حوَّل (صلى الله عليه وسلم) بأقواله وأفعاله وأحواله تعاليم القرآن الكريم إلى واقع ملموس ، فكان قرآنًا يمشي على الأرض ، وما أحوجنا اليوم إلى التأسي والاقتداء بأخلاق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه بعض جوانب أخلاقه الكريمة ، وصفاته النبيلة التي ينبغي لنا أن نتأسى بها ، ونجعل من هذا التأسي واقعًا عمليًّا في حياتنا . ومنها :

* **صدقه وأمانته**: فلقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) صادقًا أمينًا طيلة حياته ، حتى لقبوه بالصادق الأمين ، قبل بعثته ، وفي ذلك يقول شوقي:

لقبتموهُ أمينَ القومِ في صغرٍ   وما الأمينُ على قولٍ بمتّهمِ

وقد كان لصدقه وأمانته (صلى الله عليه وسلم) -أيضًا- الأثر الواضح في أن يكون أهلًا لمشورة قومه في عظام الأمور التي وقعت بينهم ، ومحل ثقتهم في حفظ أماناتهم ونفائسهم ، ومن أدل المواقف على ذلك، يوم أن أعادت قريش بناء الكعبة واختلفوا فيما بينهم من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، حتى يكتمل البناء فوقه ، ثم نزلوا على رأي الوليد بن المغيرة حين قال لهم: اجعلوا أول من يدخل من باب هذا المسجد حكمًا بينكم فيما تختلفون فيه ، ففعلوا فكان أَول داخلٍ عليهم رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به حكمًا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال (صلى الله عليه وسلم): (هلم إليّ ثوبًا) فأُتي به ، فأخذ الحجر فوضعه بيده الشريفة ، ثم قال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا) ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بُني عليه (سيرة ابن هشام) ، وأنهى النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الخلاف بحكمته ، وثقتهم في صدقه وأمانته .

ولقد ظهر خلق الأمانة جليًّا واضحًا في أعلى صوره وأبهى معانيه في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجرة المباركة ، حيث أمر

النبي (صلى الله عليه وسلم) عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن ينام في فراشه ، وأن ينتظر ليرد الأماناتِ المودعة عنده إلى أهلها ، رغم أنهم ناصبوه العداء ، وأخرجوه وآذوه وآذوا أصحابَه (رضوان الله عليهم) وأخذوا منهم كل ما يملكون ؛ ذلك لأن المؤمن لا تحل له الخيانة حتى مع أعدائه ، والله تعالى يقول: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨] ، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ) (مسند أحمد) .

* **جوده وكرمه** ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس ، وكان يعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفقر ، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: (مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لاَ) (متفق عليه) ، وعن سهل بن سعد (رضي الله عنهما) قال: جاءت امرأة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بِبُرْدَةٍ ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ ، فَأَخَذَهَا النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، فَلَبِسَهَا ، فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا ، فَقَالَ: (نَعَمْ) ، فَلَمَّا قَامَ النبي (صلى الله عليه وسلم)لاَمَهُ أَصْحَابُهُ ، قَالُوا: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لاَ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعَهُ ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا) (صحيح البخاري) .

ولمكانة هذا الخلق الكريم وبيان منزلته أمر به الحق تبارك وتعالى ، وحثَّ عليه سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يقول سبحانه: {وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٢] ، وفي الحديث القدسي: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ) (متفق عليه) ، وحثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على الجود والكرم فقال: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم) .

* **وسطيته واعتداله:** فإن المتأمل في أحكام الشريعة والعقائد التي دعا إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرى منهج الاعتدال والوسطية واضحًا في كل مجالات الحياة ، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه) (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري) .

ومن أجل المحافظة على هذه الوسطية وذلك الاعتدال ، حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كل مظاهر الغلو وخاصة الغلو في التدين ، فأنكر على من بالغ من أصحابه (رضوان الله عليهم) في التعبد

والتقشف مبالغةً تخرجه عن حدّ الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (سنن النسائي) ، وعَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِحَاجَةٍ ، فَإِذَا أَنَا بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَمْشِي بَيْنَ يَدَيَّ ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي مَعًا ، فَإِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ بَيْنَ أَيْدِينَا يُصَلِّي ، يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَتَرَاهُ يُرَائِي – أَوْ قَالَ يُرَائِي ؟) قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ: فَتَرَكَ يَدَهُ مِنْ يَدِي ، وَجَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ يُصَوِّبُهُمَا وَيَرْفَعُهُمَا ، وَيَقُولُ: (عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا ، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا ، فَإِنَّهُ مَنْ شَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ) (مسند أحمد) .

ولا شك أن الاعتدال الذي دعا إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن قاصرًا على الأمور التعبدية وصلة العبد بربه فحسب ، بل كانت دعوته للاعتدال دعوة شاملة لكل مناحي الحياة ، ففي دعائه وتَبتله كان (صلى الله عليه وسلم) يقول: (اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي) (صحيح مسلم) ، وعن المِقْدَامِ (رضي الله عنه) ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي) .

* **الإنصاف وإعطاء كل ذي حق حقه**: لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، أو غني وفقير ، أو قريب وبعيد ، أو حاكم ومحكوم ، أو لونٍ ولونٍ ،

فالمسلم مطالب بأن يحقق العدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وألا يظلم أحدًا من الناس أبدًا ، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: ٥٨] ، وقال (عز وجل): {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٣٥] ، وقال سبحانه: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى إلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨] ، أي: لا يحملنّكم كراهية قوم وبغضهم على عدم التعامل بالعدل معهم .

ولله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريم فريضة   واللؤم مقرون بذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا   وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ولقد حثّنا القرآن الكريم على هذا الخلق العظيم ، وأمر به في كثير من آياته البينات ، وليس أدل على ذلك من أن ينزل جبريل الأمين (عليه السلام) على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) بآيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فيها براءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة ، فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا} [النساء ١٠٥ – ١٠٧] .

وهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته يعلمنا الإنصاف حتى من نفسه ، فقد أخذ بيد الفضل بن العباس حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ قَدْ دَنَى مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا ، فَهَذَا مَالِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، ولَا يَقُولَنَّ رَجُلٌ: إِنِّي أَخْشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ ، إلا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِي ، وَلَا مِنْ شَأْنِي ، إلا وإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقًّا إِنْ كَانَ ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيتُ اللَّهَ (عز وجل) وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ، إلا وَإِنِّي لا أَرَى ذَلِكَ بِمُغْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مِرَارًا) (المعجم الأوسط للطبراني) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن الناظر في أخلاق بعض المسلمين ومعاملاتهم في زماننا هذا يجدهم أبعد ما يكونون عن الامتثال الصحيح لتعاليم الإسلام ، فالإسلام بتعاليمه وهديه وسماحته وعدله ووفائه وبره في واد ، وبعض المسلمين بسلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم في واد آخر .

ولنعلم جميعًا أن الله (عز وجل) قد جعل اتباع نبيه (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بأفعاله ، والتأسي بأخلاقه ، دليلًا على محبة العبد لربه ،

وفي هذا يقول الحق سبحانه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١].

كما أن اتباعه وطاعته (صلى الله عليه وسلم) هي طاعة لله (عز وجل)، فقد قرن الله (عز وجل) في كتابه الكريم بين طاعته وطاعة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وجعل قبول أحدهما مقرونًا بفعل الآخر، فقال سبحانه: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠]، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران: ١٣٢].

فما أحوجنا إلى التأسي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بهديه، واقتفاء أثره في نشر رسالة النور والهداية صافية رائقة كما أنزلها الله تعالى إلى الخلق أجمعين، باللين والرفق والرحمة وتأليف القلوب، فرسالة الإسلام عدل كلها، رحمة كلها، تسامح كلها، نفع كلها، إنسانية كلها.

اللهم تول أمرنا، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

محمد (صلى الله عليه وسلم) نبي الرحمة
فلنحمل رحمته للعالمين

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[الأنبياء: ١٠٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّين .

وبعـــد:

فلقد خلق الله الخلقَ واصطفى منهم الرسل والأنبياء ، واصطفى منهم الخمسة أولي العزم (نوحًا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدًا ، عليهم الصلاة والسلام) ، واصطفى منهم محمدًا (صلى الله عليه وسلم) فشرح له صدره ، وأعلى شأنه ، ورفع ذكره ، وجمع له مكارم الأخلاق والآداب ، فقال سبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] .

وإن من عظيم الأخلاق التي تحلَّى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خُلُقَ الرحمة فظهرت آثارها علي البشرية كلها ؛ لأنها رحمة ربانية ، قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩] .

وقد كانت الرحمة التي أودعها الله تعالى قلب رسوله (صلى الله عليه وسلم) رحمة عامة وشاملة ، مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، لم يقل رب العزة رحمة للمؤمنين ولا للمسلمين ، وإنما قال رحمة للعالمين ، وقد بلغت رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالبشرية حدًّا يفوق كل تصورات العقول ، فقد كان (صلى الله

عليه وسلم) يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، ويحسن إلى من أساء إليه ، شهدت له بذلك أم المؤمنين خديجةُ (رضي الله عنها) قائلة: (كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقّ . . .) (متفق عليه) ، وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فِي التَّوْرَاةِ ، قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ وَاللَّهِ ، إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ ، وَيَفْتَحُوا بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا) (صحيح البخاري) ؛ لذا تنوعت مظاهر الرحمة وتعددت في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ذلك:

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بغير المسلمين ، وشفقته عليهم ، ورغبته في هدايتهم** ، ولا أدل على ذلك مما حدث يوم الطائف ، والذي كان من أشد الأيام صعوبة على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كذبه أهل الطائف إلى الحد الذي حدا بأمين وحي السماء جبريل (عليه السلام) أن ينزل بأمر من ربه (سبحانه وتعالى) ومعه ملك الجبال مُستأمِرًا رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) في أن يُوقع بهم العذاب ويجيب الرحمة المهداة (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: (بَلْ أَرْجُو أَنْ

يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) (متفق عليه) ، بل ولما قيل له (صلى الله عليه وسلم): ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: (إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) (صحيح مسلم) .

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالجاهلين والعصاة من أمته:**

فكان يأخذ بأيديهم ويبين لهم سوء فعلهم برفق ولين ، وحكمة وموعظة لا تقلل من شأنهم أو تَنْتَقِصُ من أقدارهم ، فقد صحّ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (دَعُوهُ ، وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ) (صحيح البخاري) .

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمَّاهُ ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لكِنِّي سَكَتُّ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ، وَاللَّهِ مَا قَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي ، وَلاَ شَتَمَنِي ، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ) (صحيح مسلم) .

وبلغت رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مداها مع العصاة حين جيء إليه برجلٍ شرَّابٍ للخمر ، فَقَالَ رَجُلٌ: اللهُمَّ الْعَنْهُ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسلم): (لا تَلْعَنُوهُ ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (صحيح البخاري) ، إنها رحمةٌ ألّفت حوله (صلى الله عليه وسلم) القلوب ، وأذابت ما فيها من ضغائن ، فقد صب رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) على أوضار القلوب فأزالها ، وصدق الله العظيم إذ يقول: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}[آل عمران: ١٥٩] .

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالأطفال:** لقد اتسعت رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لتشمل الأطفال ؛ إذ يقول أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) يَأْخُذُنِي فَيُقْعِدُنِي عَلَى فَخِذِهِ وَيُقْعِدُ الْحَسَنَ عَلَى فَخِذِهِ الأُخْرَى ، ثُمَّ يَضُمُّهُمَا ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُمَا فَإِنِّي أَرْحَمُهُمَا) (صحيح البخاري) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يسلم على الصبيان ، ويمسح على وجوههم (صحيح البخاري) .

وكانَ (صلى الله عليه وسلم) يصَلي وهو حاملٌ أُمامةَ بنتَ زينبَ بِنْتِ رسولِ اللهِ(صلى الله عليه وسلم) على عاتقِه ، فإذا سجدَ وضَعَها ، وإذا قامَ حملَها (متفق عليه) ، وما أروع ما قاله أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ (رضي الله عنه) : (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ولما مات ولده إبراهيم دمعت عيناه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : (يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ) ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى ، فَقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلاَ نَقُولُ إلا مَا يُرْضَى رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ) (متفق عليه) .

* **رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالمرأة والضعيف** : فقد أخذت المرأة حظها من رحمة رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فكثيرًا ما كان يوصي بحسن معاملتها ، والرفق بها ، وإكرامها ، وحمايتها ، فالمرأة في شريعته جسدٌ يُرحم وعرضٌ يُصان ، فقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (متفق عليه) ، بل وكان يشفق على المرأة حين يسرع الحادي في قيادة الإبل التي تركبها النساء ، فيقول له : (رفقًا بالقوارير) (متفق عليه) ، بل بلغ من رحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أنه كان يتجوَّز في صلاته إذا سمع بكاء الصبي رحمةً بأمه ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ) (متفق عليه) ، وذلك على الرغم من أن قرة عينه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) في الصلاة ، وهذا من كمال شفقته ورحمته (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بالمرأة .

ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في رحمته باليتيم ، والمسكين ، والأرملة ، حين جاءه (صلى الله عليه وسلم) رَجُلٌ يَشْتَكِي قَسَاوَةَ قَلْبِهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَتُحِبُّ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ ؟) فَقَالَ: نَعَمْ ، قَالَ : (ارْحَمِ الْيَتِيمَ ، وَامْسَحْ رَأْسَهُ ، وَأَطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلَيِّنُ قَلْبَكَ ، وَتَقْدِرُ عَلَى حَاجَتِكَ) (مسند أحمد) ، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ "وَأَحْسِبُهُ قَالَ: "وَكَالْقَائِمِ لا يَفْتُرُ ، وَكَالصَّائِمِ لا يُفْطِرُ) (متفق عليه) .

هذه الصور العظيمة للرحمة التي أسكنها الله (عز وجل) قلب نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أكبر دليل على سماحة الإسلام ، ورحمته ويسره ،

فشريعة الإسلام هي شريعة السلام ، والرحمة ، واليسر بكل معانيها ، فلْنتراحم فيما بيننا ، ولنرحم من في الأرض ليرحمنا من في السماء ، فقد قال: (صلى الله عليه وسلم): (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) (سنن الترمذي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

لقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) للإنسانية على مر التاريخ أعظم الأمثلة في الرحمة بحيث استحق بها أن يكون كما قال الله عنه: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ}[الأحزاب: ٦] ، وأكد (صلى الله عليه وسلم) على هذا المعنى تصريحًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} (متفق عليه) ، فكان (صلى الله عليه وسلم) ربما ترك عملًا مُعَيَّنًا رفقًا ورحمةً بأمته خشية أن يفرض عليهم ، فعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: (إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهْوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ) (متفق عليه) ، وقد امتدت تلك الرحمة لتشمل أمته يوم القيامة ، إذ يقول (صلى الله عليه وسلم): (لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ) (متفق عليه) .

ولم تقف مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) عند حدود البشر فحسب ، بل اتسعت **لتشمل الطير** ، **والحيوان** ، **والجماد** ، فعن رحمته (صلى الله عليه وسلم) بالطير ، قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) : كنَّا مع رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم) في سَفَرٍ ، فانطلقَ لِحاجَتِه ، فرأينا حُمَّرَةً معها فَرْخَانِ ، فأخذنا فَرْخَيْهَا ، فجاءتِ الحُمَّرَةُ ، فجعلت تُعَرِّشُ ، فجاء النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : (مَنْ فَجَعَ هذهِ بولدِها ؟ رُدُّوا ولدَها إليها) (سنن أبي داود) .

وعن عبد الله بن جعفر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل حائطًا لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) حَنّ وذرفت عيناه ، فأتاه (صلى الله عليه وسلم) فمسح ذفراه فسكت ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟) ، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله ، فقال له : (أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ) (سنن أبي داود) .

ومن مظاهر رحمته (صلى الله عليه وسلم) ، بالجماد أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب الناس على جزع نخلٍ ، فلما كثر الناس اتخذ منبرًا ، فحن الجذع لفراق رسول الله ، (فَأَتَاهُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) فَاحْتَضَنَهُ فَسَكَنَ ، فَقَالَ: (لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (صحيح ابن خزيمة) . ولله در الحسن البصري حين قال: « يا معشر المسلمين الخشبةُ تَحِنُّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شوقًا إلى لقائه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه ؟» .

ما أحوجنا إلى أن نقتدي بأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سلوكنا ، وأخلاقنا ، ومعاملاتنا ، فنتحلى بالرحمة والرأفة واللين والسماحة ، وأن نعامل الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) ، نشرًا لرسالته ، وبيانًا لهديه وسنته ، فتتحول الرحمة إلى سلوك عملي في حياتنا ، ونحملها إلى البشرية كلها كما حملها أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الناس وساقوها إليهم سوقًا جميلًا ، فكان ذلك سببًا في إجلال الناس واحترامهم للإسلام كدين من جهة ، وكأسلوب راق للتعامل الإنساني من جهة أخرى .

اللهم احفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

شهادة النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه
وبيان فضلهم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن الله (عز وجل) كما يصطفي لرسالاته من يشاء من عباده – وفق ما فطرهم عليه من طهارة القلب ، وصفاء الذهن ، وكريم الطباع ، وعظيم الأخلاق – فإنه (سبحانه وتعالى) يختار لأنبيائه من يصلح لصحبتهم ، والدفاع عن رسالتهم ، والقيام بأداء هذه الرسالة بأمانة وصدق وتضحية من بعدهم ؛ حيث يقول الحق سبحانه: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[الحج: ٧٥] ؛ لذا كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) خير هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، ولا عجب في ذلك ، فهم قوم اختارهم الله (عز وجل) لصحبة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وإقامة دينه ، وتبليغه للعالمين .

إن الحديث عن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حديث عن الصفوة من البشر بعد الأنبياء والمرسلين ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أهل الاصطفاء في قول الله (عز وجل): {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} [النمل: ٥٩] ، هم أصحاب رسول الله (صَلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وسلم) (تفسير الطبري) ، وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: "إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ، يُدافعونَ عَن دِينِهِ ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ" (مسند أحمد) .

ولا شك أن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يدرك رفعة مكانة أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وعلو منزلتهم ، وعظيم فضلهم ، فهم الذين رضي الله (عز وجل) عنهم ، وشهد لهم بصدق الإيمان ، حيث يقول الحق سبحانه : {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]، قال أهل التفسير: {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}أي: من الصبر والصدق والوفاء والسمع والطاعة ، وحُسن بصيرتهم بالحقّ الذي هداهم الله إليه .

ولقد زكى الحق سبحانه أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مواطن عديدة من كتابه الجليل ، منها : قوله سبحانه: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٣ ،١٧٢] ، وقوله جل شأنه في شأن المهاجرين

والأنصار:{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر: ٨ ، ٩] .

وكما جاءت آيات الذكر الحكيم لتخلد ذكر أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) بأبلغ الثناء وأعطره ، وأعظم التقدير وأجمله ، فقد جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة شاهدة على مكانتهم عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وموضحة تضحياتهم ، ومظهرة صدق عزائمهم ، فهم الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، وقدموا محبته على محبة أنفسهم ، وأهليهم ، والناس أجمعين ، فمنحهم النبي (صلى الله عليه وسلم) أرفع الأوسمة ، وتوجهم بأعلى المناقب ؛ حيث شهد لهم في الكثير من المواقف الجليلة ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي ، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي ، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ) (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَنِي ، وَاللهِ لا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي ، وَصَاحَبَ مَنْ صَاحَبَنِي ، وَاللهِ لا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي، وَصَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَنِي) (مصنف بن أبي

شيبة) ، وما فُضِّل بعدهم ممن جاء في هذا الحديث إلا بشرف صحبتهم لأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

ولقد اختص النبي (صلى الله عليه وسلم) بعض الصحابة بالثناء عليهم لبيان سبقهم وتقدمهم في الفضل ، لا سيما السابقون الأولون منهم ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَقْوَاهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَمِينُ أُمَّتِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ، وَأَعْلَمُ أُمَّتِي بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذٌ ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدٌ) (سنن الترمذي) ، ويوم أن صعد النبي (صلى الله عليه وسلم) أُحُدًا ، ومعه أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ (رضي الله عنهم) ، فَرَجَفَ الجبل بِهِمْ فرحًا بالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) وأصحابه ، فَقَالَ له النبي (صلى الله عليه وسلم) : (اثْبُتْ أُحُدُ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ ، وَصِدِّيقٌ ، وَشَهِيدَانِ) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) موضِّحًا مكانة أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) : (إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى يَرَاهُم مَنْ أَسْفَلُ مِنْهُمْ كَمَا يُرَى الْكَوْكَبُ الطَّالِعُ فِي الْأُفُقِ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ مِنْهُمَا وَأَنْعمَا) (سنن ابن ماجه) .

لقد كان (صلى الله عليه وسلم) حريصًا على إظهار مكانة أصحابه ، وبيان شرفهم وقدرهم ؛ تشجيعًا لهم ، واستنهاضًا للهمم حتى يكونوا قدوة لغيرهم من أبناء الأمة ، فيقول (صلى الله عليه وسلم) عن أبي بكر (رضي الله عنه) : (لَا تُؤْذُونِي فِي صَاحِبِي ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْتَ ، وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) سَمَّاهُ صَاحِبًا لَاتَّخَذْتُهُ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ اللهِ . .) (صحيح

البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) عن عمر (رضي الله عنه): (إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ وَقَلْبِهِ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) عن عثمان (رضي الله عنه) : (أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) عن علي (رضي الله عنه) : (أنتَ مِنِّي وَأَنَا مِنك) (متفق عليه) .

إن المتتبع لأحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أصحابه ، وشهادته لهم ، يدرك أنه (صلى الله عليه وسلم) قد ضرب أروع الأمثلة في الوفاء والمحبة الصادقة ، وحسن المعاملة لأصحابه ، بصورة لم يشهد التاريخ لها مثيلًا ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يشعر بآلامهم ، ويشفق عليهم ، ويتفقد غائبهم ، ويزور مريضهم ، ويشهد جنائزهم ، ويجيب دعوتهم ، ويشاورهم في الأمر ، ويخفض جناحه لهم ، ويقضي عنهم دينهم، ويدعو لهم ولأبنائهم ، فعنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) ، قالت: دخل رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ (رضي الله عنه) وَهُوَ مَيِّتٌ ، فَأَكَبَّ عَلَيْهِ ، فَقَبَّلَهُ ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى رَأَيْتُ الدُّمُوعَ تَسِيلُ عَلَى وَجْنَتَيْهِ (مصنف عبد الرزاق) ، وتفقد النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه يومًا بعد انتهاء إحدى المواقع التي كانت بينهم وبين المشركين ، فقال لهم: (هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟) ، قَالُوا: نَعَمْ ، فُلَانًا ، وَفُلَانًا ، وَفُلَانًا ، ثُمَّ قَالَ: (هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟) ، قَالُوا: نَعَمْ ، فُلَانًا ، وَفُلَانًا ، وَفُلَانًا ، ثُمَّ قَالَ: (هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟) ، قَالُوا: لا ، قَالَ: (لَكِنِّي أَفْقِدُ جُلَيْبِيبًا ، فَاطْلُبُوهُ) ، فَطُلِبَ فِي الْقَتْلَى ، فَوَجَدُوهُ إِلَى جَنْبِ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ، ثُمَّ قَتَلُوهُ ، فَأَتَى النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ: (قَتَلَ سَبْعَةً ، ثُمَّ قَتَلُوهُ ،

هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ) ، ثم وَضَعَهُ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى سَاعِدَيْهِ ، لَيْسَ لَهُ إلا سَاعِدَا النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، حتى وُضِعَ فِي قَبْرِهِ (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا ، أَوْ ضَيَاعًا ، فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ) . (صحيح مسلم)

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

لقد أوصى النبي (صلى الله عليه وسلم) الأمة كلها بأصحابه جميعًا ، وحذر من الإساءة إليهم ، أو الانتقاص من حقهم ، وبيّن أن محبتهم دليل محبته (صلى الله عليه وسلم) ، وأن بغضهم دليل بغضه (صلى الله عليه وسلم) ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي ، لا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) ، وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ) (سنن الترمذي) ، وقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، وَلاَ نَصِيفَهُ) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اخْتَارَنِي وَاخْتَارَ بِي أَصْحَابًا ، فَجَعَلَ لِي مِنْهُمْ وُزَرَاءَ وَأَنْصَارًا وَأَصْهَارًا ، فَمَنْ سَبَّهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ

وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ) (المستدرك على الصحيحين) .

إن الناظر في سيرة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدرك أنهم ما بلغوا هذه الدرجة العالية ، والمكانة السامية إلا بإخلاصهم لله (عز وجل) ، وصدق محبتهم لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وجهادهم لأنفسهم ، وانتصارهم للحق والدفاع عنه ، وإيثارهم للمصلحة العامة ، وتقديمها على المصلحة الخاصة ، وحسن أخلاقهم وجميل معاملتهم مع الناس جميعًا ، فاستحقوا ثناء الله (عز وجل) عليهم ، ومدحه لهم ، وكانوا أهلًا لمحبة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومحلًّا لثقته .

ولله در القائل:

هم صفوةُ الأقوامِ فاعرف قدرهم   وعلى هداهم يا موفق فاهتدِ

لقد كان لجيل الصحابة (رضي الله تعالى عنهم) قصب السبق في تغيير وجه الحياة ، وتبديد ظلمات الباطل والجور والظلم الذي امتلأت به أرجاء المعمورة قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فحولوها بنور الوحي الإلهي إلى الحق والعدل والمساواة ؛ لذا كانت محبة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سنة ، والدعاء لهم قربة ، والاقتداء بهم وسيلة ، والأخذ بآثارهم فضيلة ، يقول الحق سبحانه بعدما ذكر وصف المهاجرين والأنصار: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠] ، قال الإمام الرازي (رحمه الله): إنَّ مِنْ شأن مَنْ جاء مِنْ بعد المهاجرين والأنصار أن يذكرهم بالدعاء والرحمة .

على أننا نؤكد أن الحديث عن مكانة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبيان فضلهم يعزز دور القدوة الحسنة التي لا غنى لأبنائنا وشبابنا عنها ، فإن للتربية بالقدوة أثرًا بالغًا في ترسيخ منظومة القيم النبيلة والأخلاق العالية والسلوكيات الإيجابيّة في المجتمع بصفة عامة ، ولدى النشء والشباب بصفة خاصة ، وعلى شبابنا أن يتمسك بالفكر الوسطي المعتدل النابع من فهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحيح للإسلام ، وأن تكون له شخصيته المتميزة ، حتى يكون مؤهلا لحمل الرسالة ، وتأدية الأمانة ، وقيادة سفينة النجاة ، لإنقاذ الأمة من حيرتها وتخبطها ، والوصول بها إلى طريق الرشاد والأمن والسعادة والاستقرار والتقدم .

فيا ليتنا ندرك قدر أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ومكانتهم ، ونقتدي بأخلاقهم ، ونقتفي أثرهم ، ونستلهم من سيرتهم روح التضحية ، والبذل ، والعطاء ، والفداء بالنفس والمال والولد ، ونسير على دربهم من أجل إعمار هذا الكون ، وصناعة الحضارة ، ونفع البلاد والعباد بما يظهر حقيقة الإسلام وسماحته .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

أثر الدين في سعادة الناس
وضبط ميزان الحياة (*)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعـــد:

فإن الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {فِطْرَت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠] ، ويقول سبحانه: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣] ، ويقول (عز وجل) في الحديث القدسي: (وإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا) (صحيح مسلم) .

---

*) الخطبة مأخوذة من مقالين لمعالي وزيرالأوقاف أ.د/ محمد مختار جمعة .

ولقد أرسل الله (عز وجل) الأنبياء والمرسلين بالشرائع التي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأخيه الإنسان ، وعلاقته بالكون كله ؛ ليتحقق في الأرض الحق والعدل ، حيث يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}[الحديد: ٢٥] ، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيه داود (عليه السلام): {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} [ص: ٢٦] .

ومما لا شك فيه أن الشرائع السماوية كلها قد جاءت لتحقق السعادة للبشرية جمعاء ، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم): {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١ ، ٢] .

والمتدبر لكتاب الله (عز وجل) لا يخفى عليه أن رسالات الأنبياء والرسل غايتها هداية الخلق ، وإقامة الحق والعدل ، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق ، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة ، فها هو خطيب الأنبياء شعيب (عليه السلام) يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان ، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الشعراء: ١٨١ – ١٨٣] ، وهذا نبي الله صالح (عليه السلام) يقول لقومه: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [الشعراء: ١٥٠–١٥٢] .

وعندما نقف مع الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين ؛ الأولى: في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، أما الركيزة الثانية: فهي الأعم وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): {إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ} (مسند أحمد) .

فلا خلاف أن الشرائع السماوية كلها قد أجمعت على ما فيه خير البشرية ، وما يؤدي إلى سلامة النفس والمال والعرض ، وقيم: العدل ، والمساواة ، والصدق ، والأمانة ، والحلم ، والصفح ، وحفظ العهود ، وصلة الأرحام ، وحق الجوار ، وبر الوالدين ، وحرمة مال اليتيم ، وهي كلها مبادئ إنسانية عامة ، لم تختلف عليها الشرائع السماوية ، ولم تنسخ في أي شريعة منها ، حيث يقول الحق سبحانه: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام: ١٥١-١٥٣] ، قال ابن عباس (رضي الله عنهما) : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهي

محرمات على بني آدم جميعًا ، وهن أم الكتاب – أي أصله وأساسه – ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار .

فالدين الحقيقيّ الذي شرعه الله (عز وجل) لعباده ميزانٌ قويمٌ لضبط سلوك الإنسان ، وقيمه ، وأخلاقه ، وحسن مراقبته لله (عز وجل) ، ليس في عباداته التي يتوجه بها إلى الله (عز وجل) فحسب ؛ بل في سائر حركاته وسكناته ، سرِّه وعلنه ، رضاه وغضبه ، عمله وعلاقاته ، وسائر تصرفاته ، وهو صمام أمان للبشرية جمعاء ؛ لذا فإن الدين فن صناعة الحياة ، وعمارة الكون ، وهو الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله (عز وجل) للبشرية ، حيث يقول سبحانه : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣] .

أما الإلحاد والخروج على منهج الله وفطرته التي فطر الناس عليها ، فله مفاسد وشرور لا تُحصى ولا تُعد على الفرد والمجتمع ، والأمم والشعوب ، منها : اختلال القيم ، وانتشار الجريمة ، وتفكك الأسرة والمجتمع ، والفراغ الروحي ، والاضطراب النفسي ، وتفشى ظواهر خطيرة كالانتحار ، والشذوذ ، والاكتئاب النفسي .

فالسير في طريق الإلحاد والضلال مُدمِّر لصاحبه ، مُهلِك له في دنياه وآخرته ، فواقع الملحدين مُرٌّ ، مليء بالأمراض والعقد النفسية ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ

أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآَيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}[طه: ١٢٤ – ١٢٧] ، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ٨] .

الدينُ الحقيقي ليس جزءًا من مشاكل واقعنا المعاصر ، ولا يمكن أن يكون ، ومن يقول ذلك فهو ظالمٌ للأديان كلِّها ، الدين الصحيح الرشيد القويم جزء من الحل دائمًا ، فالأديانُ رحمة ، والأديانُ سماحة ، والأديانُ هداية ، والأديانُ بناءٌ لا هدم فيه ؛ إنما المشكلة في المتاجرين بالدين ، وعلينا كشفهم وبيان أمرهم والتصدي لهم ، وفِي الذين لا يحسنون فهم الدين الحقيقي ، وعلينا بالحكمة والموعظة الحسنة بذل الجهد لتعليمهم ، ومن ثم فإنه يجب على علماء الدين المخلصين بيان صحيح الدِّين ، وردُّ الناس إليه ردًّا جميلاً ، لا عنف فيه ، ولا إكراه ، ولا إفراط ، ولا تفريط ، ولا غُلُوّ ، ولا تقصير .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إن جوهر الأديان السماوية يجمع بين القيم والمثل الإنسانية التي تجسد الصورة المثلى للأخلاق الفاضلة في شموليتها لجميع جوانب الحياة ، فلم تترك فضيلة من الفضائل إلا دعت إليها ورغبت فيها ، وحثت

على التمسك بها ؛ لتكون أساسًا للتعايش السلمي بين البشر جميعًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) (صحيح البخاري) ، وكان من تعاليم سيدنا عيسى (عليه السلام) لأتباعه (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) ، وجاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق التي جاءت بها الرسالات السابقة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ) (مستدرك الحاكم) .

نحن في حاجة إلى فهم صحيح للدين ، وتطبيقٍ واعٍ لهذا الفهم الصحيح ؛ لضبط ميزان حياتنا ، وتحقيق سعادتنا في الدارين ، فإن جميع الأديان السماوية قائمة على عمارة الكون ، والعمل والإنتاج ، وعلى رعاية الحقوق والواجبات ، كحق الأسرة ، وحق الأبناء ، والأوطان ، وتحري الحلال ، إعمارًا للأرض ، وتحقيقًا للسعادة والتقدم ، ونفعًا للبشرية جمعاء ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥] ، وهو ما لو التزمنا به ، وفهمناه فهمًا صحيحًا ، وطبقناه تطبيقًا واعيًا لنلنا سعادة الدنيا والآخرة .

وعندما رأى أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) رجلًا قويًّا جلدًا نشيطًا خرج مبكرًا إلى العمل ، فأعجبوا بقوته ونشاطه قالوا ما أجمل هذه القوة!! ما أجمل هذا النشاط لو كان في سبيل الله ؟! فوضح لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) المفهوم الشامل لكلمة (في سبيل الله) لبيان قيمة العمل وأهميته وترغيب الإسلام فيه ، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ ، قَالَ : مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ

(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جِلْدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، وما ذلك إلا لترسيخه (صلى الله عليه وسلم) لقضية العمل وقضية الإنتاج ، وقضية الإتقان ، فحيث تجد العمل والإتقان تجد سعادة الإنسان وتطبيق الأديان ، وحيث تجد البطالة والكسل والتخلف عن ركب الحضارة فاعلم أنه لا علاقه لذلك لا بالإسلام ، ولا بالأديان في شيء .

اللهم ارزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى ، اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

*   *   *

برُّ الوالدين وإكرامُ ذي الشيبة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء: ٢٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعد:

فلقد جاءت الشريعة الإسلامية برسالة إنسانية داعية إلى كل خلق كريم ، وسلوك مستقيم ؛ لأن الأخلاق هي الأساس الذي تقوم عليه الأمم، وتُبنى عليه الحضارات ، وهي العماد الذي يضمن بقاءها واستمرارها ، ويرجى معه تقدمها وعزها ، فسلامة الأمة وقوة بنيانها لا يكون إلا بتمسكها بالأخلاق الفاضلة ، فالأمم التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها ، ولله در القائل:

إِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا

وإن من مظاهر عظمة الإسلام ورحمته وسماحته وعدله وإنصافه اهتمامه بتكريم الإنسان ، ووصيته برعايته في جميع مراحل حياته وفق منهج رباني محكم يراعي الحقوق والواجبات ، ويضمن للناس جميعًا حياةً آمنةً كريمةً مستقرة ، ولا شك أن من أجلى وأوضح مظاهر هذه العظمة أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالإحسان مع الناس جميعًا ، حيث

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة: ٨٣] ، ويتأكد هذا الأمر بل تعظم الوصية به في حق الوالدين ، فلقد أمر الله (عز وجل) الناس عامة بالإحسان إلى الوالدين ، والبر بهما ، والتلطف معهما ، وخفض الجناح لهما في أكثر من آية ، فقال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء: ٣٦] ، وقال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣- ٢٤] ، والمتدبر في هذه الآية الكريمة يرى لفتة إنسانية واجتماعية تميز بها الإسلام في حديثه عن بر الوالدين ، في قوله تعالى: {إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} ، ففيها ما يُشعر بضرورة أن يكون الوالدان في كنف أبنائهم ، وتحت عنايتهم عند الكبر ، لا سيما وأن تلك المرحلة إنما هي مرحلة الضعف التي يحتاج الإنسان فيها إلى عظيم عناية ورعاية .

إن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يرى أن الدعوة إلى بر الوالدين جاءت مقرونة بالدعوة إلى توحيد الله في ست آيات من كتاب الله ؛ وذلك لعظم منزلتهما ، وجليل قدرهما ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثٍ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا ، الأولى: قَوْله تَعَالَى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}[النساء: ٥٩]، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِعْ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وسلم) لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ، وَالثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} [البقرة: ٤٣] ، فَمَنْ

صَلَّى وَلَمْ يُزَكِّ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ ، والثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى: {أَنْ اُشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: ١٤] ، فَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ) .

لقد أعلى الإسلام من قيمة بر الوالدين والإحسان إليهما ، ولا أدل على ذلك من إشارات القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن بر الوالدين هو خلق الأنبياء والمرسلين ، وهدْي الأولياء والصالحين ، فهذا نبي الله نوح (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا : {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلا تَبَارًا} [نوح: ٢٨] ، وأبو الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلًا : {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ*رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}[إبراهيم: ٤٠ – ٤١] .

وهذا الابن البارُّ إسماعيل (عليه السلام) يجُيب أباه بقوله: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[الصافات: ١٠٢] ، وهذا نبي الله عيسى (عليه السلام) يتحدث عن بره بأمه فيما حكاه عنه القرآن الكريم: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا}[مريم: ٣٢] .

ومما لا شك فيه أن بر الوالدين والإحسان إليهما صورة من أرقى وأنقى صور البرّ والوفاء ؛ ولله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريـم فريضة ... واللؤم مقـرون بـذي الإخـلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا ... وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ويقول الآخر:

إن الكرام إذا ما أيســروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومَن أحق بالوفاء من الوالدين ؟! مَن أحق بالوفاء ممن حَملتك فِي بَطنهَا تِسْعَة أشهر كَأَنَّهَا تسع حجج ، وكابدت عِنْد وضعك مَا يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لَبَنًا ، وغسلت بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى ، وآثرتك على نَفسهَا بالغذاء ، وإِن أَصَابَك مرض أَو شكاية أظهرت من الأسف فَوق النِّهَايَة ، وَلَو خيرت بَين حياتك وموتها ، لاختارت حياتك بِأَعْلَى صَوتهَا ، لذلك وصانا ربنا سبحانه وتعالى بها في قوله (عز وجل) : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥] .

ومَن أحق بالوفاء مِن أبٍ عطوفٍ مُتعَبٍ في همِّه لا يشتكي ؟! كم تكبد الصعاب وتحمل المشاق من أجلك ؟! يبذل إليك النصيحة بصدق وكل آماله أن ترتقي ، لله در الآباء كم تحملوا من ألم وتعب من أجل أبنائهم ، من أحق بالوفاء والبر من الوالدين ؟ !

لذا فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) بر الوالدين في مرتبة عالية ، ومكانة سامية ، حيث عدَّه (صلى الله عليه وسلم) من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) بعد الصلاة المكتوبة ، بل وقدم (صلى الله عليه وسلم) ذكره على الجهاد في سبيل الله ، فعندما سُئل (صلى الله عليه وسلم) : أيّ العَمَلِ أحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى ؟ قَالَ: (الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا) ، قيل: ثُمَّ أيّ ؟ قَالَ: (بِرُّ الوَالِدَيْنِ) ، قيل: ثُمَّ أيّ ؟ قَالَ: (الجِهَادُ في سبيلِ الله) (سنن النسائي) ، وعندما جاءه رجل يستأذنه (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، سأله النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، قائلًا: (أَحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟) ، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) (متفق عليه) .

ومما لا شك فيه أن حق الأم في البر جدّ عظيم ؛ فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ ، قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ ، قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه). وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا) . قلت: فأي الناس أعظم حقا على الرجل ؟ قال: (أُمُّهُ) (المستدرك للحاكم) . وجَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ ، فَقَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟) قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (فَالْزَمْهَا ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا) (سنن النسائي) .

ولا ينتقص من بر الوالدين ولا ينال من حقهما أن يكونا على غير الملة ؛ فقد قال الله تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: ١٥] ، أَيْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَهُوَ الْبِرُّ وَالصِّلَةُ وَالْعِشْرَةُ الْجَمِيلَةُ ، فقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تدينًا من والده ، فيغلظ له القول ، أو يسيء معاملته، فنلفت أنظارهم إلى أمر الله (عز وجل) بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين، أو حتى لو أرادا أن يحملاك على معصية الله ، أو حتى على الكفر ، فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا يخوّل لك سوء معاملة أيّ منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك ، كما أمرك الحق سبحانه: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} ، مع علمك بأن ذلك ليس تفضلًا منك إنما هو حق وواجب عليك تأثم إن لم تقم به أو قصرت فيه ، وعَنْ

أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقُلْتُ يا رسول الله: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ ؟ أَفَأَصِلُهَا ؟ قَالَ: (نَعَمْ ، صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه) .

فلنكن بارين بآبائنا وأمهاتنا ، أوفياء لهم ، ولنوقن بأن البرَّ دين يسدد في الحياة قبل الممات ، وعلينا أن ندرك أن عقوق الوالدين مما يعجل له العقوبة في الدنيا مع ما فيه من غضب الله (عز وجل) في الآخرة . مصداقًا لقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (اثْنَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ: الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) (الأدب المفرد) .

وفي الحديث: (لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَّانٌ ، وَلَا عَاقٌّ وَالِدَيْهِ ، وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟) ثَلاَثًا ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ) (صحيح البخاري) .

ولنعلم جميعًا أن رضا الله (عز وجل) من رضا الوالدين ، وسخطه من سخطهما ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (رِضَا اللهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسَخَطُ اللهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ) (شعب الإيمان) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يوم الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إن الإسلام دين الأخلاق الفاضلة ، والمعاملة الحسنة ، دين الوفاء وحفظ العهد ، ورد الجميل ، دين لا يعرف الجحود ولا التطاول على الآخرين ؛ لأنه دين الإنسانية بكل معانيها ، وتتجلى مظاهر هذه الإنسانية في رعاية ذي الشيبة عمومًا ، وكفالة حقوقهم ، وقضاء حوائجهم، والسعي على مصالحهم ؛ فلقد جاءت نصوص الشريعة الإسلامية تدعو إلى الاهتمام بكبار السن ، والعطف عليهم ؛ تقديرًا وإجلالًا لهم ، فعن أَبي موسى (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ تَعَالَى: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ ، وَحَامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ ، وَالجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ (سنن أبي داود) ، أي أن: تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام ، بتوقيره في المجالس ، والرفق به ، والشفقة عليه ، ومناداته بأحب الأسماء إليه ، وعدم التقدم عليه في الكلام ، أو المشي أمامه ونحو ذلك ، كل هذا مِن كمالِ تعظيم الله (عز وجل) وإجلاله ، لما لهذا الكبير من مكانة وحرمة عند الله تعالى .

ولقد بلغ اهتمام الشرع الحنيف بالكبير والمسن أن أوصى بمزيد من التخفيف عليهم والتيسير لهم في أداء الطاعات والعبادات رأفة بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة التي هي أعظم شرائع الدين من أجل أصحاب الأعذار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ ، وَذَا الْحَاجَةِ) (مسند أحمد) .

على أنه ينبغي أن نعلم أن الإسلام لم يفرق بين ذي الشيبة المسلم وغير المسلم في المعاملة ؛ فهذا خامس الخلفاء الراشدين سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يكتب إلى عامله في البصرة كتابًا يقول فيه : "وانظر مَن قِبلَك من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجْر عليه من بيت مال المسلمين ما يُصلحه " .

ولما رأى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلًا مُسنًّا من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فقال : والله ما أنصفنا هذا إن أكلنا شبيبته وضيعناه في شيبته ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

وهذا ما أقره سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) في صلحه لأهل الحيرة : "وجعلتُ لهم أيُّما شيخ ضعُف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيًّا فافتقر ، وصار أهلُ دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعِيل من بيت مال المسلمين" .

فالإسلام يدعو إلى التكافل والتوازن بين أفراد المجتمع حتى تسود روح الوئام والسلام ، ويتحقق السلام النفسي ، والأمن المجتمعي بين أبناء المجتمع جميعًا .

فما أحوجنا إلى عودة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية من بر الوالدين ، وحسن معاملتهما ، وإكرام الكبير ، وذي الشيبة ، والإحسان إلى الخلق جميعًا .

اللهم اغفر لأبائنا وأمهاتنا وأصحاب الحقوق علينا
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

الإسلام والعلم

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: ١١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعد:

فنحن على وشك استقبال عامٍ دراسيٍ جديدٍ – نسأل الله (عز وجل) أن يكون عام فلاحٍ ونجاحٍ لكل طالب علم مجتهد – ، مما يستوجب علينا أن يكون حديثنا حول رؤية الإسلام الشاملة لقيمة العلم ؛ تصحيحًا لبعض المفاهيم الخاطئة ؛ وبيانًا لبعض آداب العالم والمتعلم ، فلقد كان العلم وأدواته هو القضية الأولى التي اعتنى بها الوحي الشريف وصافحت مسامع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وخالطت فكره ووجدانه، حيث كان قول الله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[العلق: ١ – ٥] ، هو أول أمر إلهي يستقبله النبي (صلى الله وسلم)؛ ليكون ذلك إشارة صريحة إلى أن الإسلام هو دين العلم والمعرفة ، كما سمى ربنا (سبحانه وتعالى) سورة كاملة في القرآن الكريم باسم "القلم" ، واستهلها بقوله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم: ١]، تأكيدًا أيضًا على أهمية أدوات العلم ووسائله .

فالعلم هو السبيل الأوحد لمعرفة الله (عز وجل) من خلال النظر والتدبر في آيات الله الكونية ، فالله (عز وجل) لا يُعبد إلا بالعلم ، والكون لا يُعمَّر إلا بالعلم ، والحياة لا تستقيم إلا بالعلم .

ومما يؤكد على أن الدين الإسلامي هو دين العلم والمعرفة أن الله (عز وجل) أمر به وقدَّمه على العمل ، فقال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} [محمد: ١٩] ، وقد قالوا التعلم قبل التعبد ؛ ليكون التعبد على هدى ، وقال الحسن البصري (رحمه الله): "العامل على غير علم كالسّالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح" (جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر) ، وقد ترجم الإمامُ البخاري (رحمه الله) في صحيحه قائلًا: "باب العلم قبل القول والعمل" ؛ لبيان أنَّ العلم هو الأساس الذي يبنى عليه ، والأصل الذي يرتكن إليه ، فهو ركيزة البناء والتعمير على مر التاريخ ، وبه تبنى العقول ، وترتقي الدول ، وتقام الحضارات .

لذا فقد عبر القرآن الكريم عن العلم بلفظ بالسلطان في أكثر من موضع ، فقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ} [الرحمن: ٣٣] ، وقال سبحانه: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ} [غافر: ٣٥] ، ولم لا ؟ والله (عز وجل) لم يأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) بالازدياد من شيء في الدنيا إلا من العلم ، حيث يقول سبحانه: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤] ، بل إن النبي (صلى الله عليه وسلم) جعل

الخروج لطلب العلم خروجًا في سبيل الله (عز وجل) ، فقَالَ(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيل الله حَتَّى يرجع) (سنن الترمذي) .

على أنه ينبغي أن ندرك أن العلم الذي رغَّب فيه الإسلام وحث عليه ليس مقتصرًا على العلم الشرعي فحسب ، وإنما يشمل كل علم ينفع الناس في شئون دينهم ، وشئون دنياهم ، من العلوم الشرعية ، أو العربية، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا ، أو الطاقة ، وسائر العلوم والمعارف .

والمتدبر في قول الله (عز وجل) : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] يرى أنه قد جاء في معرض الحديث عن العلوم الكونية ، حيث قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[فاطر: ٢٧ ، ٢٨] ، وفي ذلك دلالة على اهتمام الإسلام وعنايته بالعلوم الكونية كاهتمامه وعنايته بالعلوم الشرعية ، فكلاهما يهدي ويرشد ، وهما جناحان تقوم عليهما الحضارات وترتقي .

ومن ثم فكل علم لا يُستغنى عنه في قوام أمور الحياة وضرورياتها مما يجلب للناس الخير والنفع ، يكون من العلم الذي حث عليه الشرع الشريف ، وجعل السعي إلى تحصيله فريضة ، وطريقًا من طرق الجنة ، وعندما حث النبي (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم ورغب فيه ،

جعل حديثه عامًّا يشمل جميع العلوم والفنون والمعارف ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) (سنن ابن ماجه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) (سنن أبي داود) .

ولا شك أن ثناء الله (عز وجل) على أهل العلم ، وأمره بالرجوع إليهم وسؤالهم هو ثناءٌ عامٌ وشاملٌ لكل أهل العلم والمعرفة في جميع مناحي الحياة ، كلٌّ على حسب التخصص الذي تميز به ، وأبدع فيه ، حيث يقول تعالى : {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}، ويقول سبحانه: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ}[الزمر: ٩] ، ويقول جل شأنه : {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[المجادلة: ١١] ، فكل هذه النصوص وغيرها أعم من أن نحصرها أو نقصرها على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع نعمر بها دنيانا ، ويستقيم بها أمر ديننا .

ولقد كان من مظاهر عناية الإسلام بالعلم والتعلم أن وضع آدابًا للمتعلم وواجبات على المعلم يحسن بنا أن نُذكِّر بها ، فمن أجل ما ينبغي لطالب العلم أن يتزين به **حسن الخلق** فإن العلم وحده لا يحقق

نهضة ولا سعادة ، إن لم ترافقه أخلاق حسنة ، وقيم نبيلة ، وصدق الشاعر حين قال:

لا تَحْسَبنَّ العِلمَ يَنفعُ وَحدَهُ ما لَمْ يُتَوَّجْ ربُّهُ بِخَلاق

فإذا ما أصبح حسن الخلق والعلم توأمان ، كان العلم نافعًا يحث صاحبه على فعل الفضائل وترك الرذائل ، ويكون سبيل هدى ورحمة ورشد له في أمر دينه ودنياه ؛ ولذا رأينا سيدنا موسى (عليه السلام) يقول للعبد الصالح: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [الكهف: ٦٦] .

كما ينبغي على طالب العلم **إخلاصُ النية لله** (**عز وجل**) في طلب العلم ، بأن تكون نيته أن يرفع الجهل عن نفسه ، وعن غيره ، وأن يكون عنصرًا مفيدًا منتجًا في مجتمعه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) (متفق عليه) .

وعلى طالب العمل أن يتحلى **بالصبر في تحصيله** ، وقد حكى لنا القرآن الكريم ما كان من نبي الله موسى (عليه السلام) في رحلته إلى العبد الصالح التي أمره الله (عز وجل) بها ، حيث قال سبحانه حكاية عنهما: {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [الكهف: ٦٧] .

كما ينبغي لطالب العلم أن يغتنم وقته في مذاكرة دروسه ، وأداء واجباته ، والتركيز الكامل مع الجد والاجتهاد ، وَقَدْ قِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): بِمَ نِلْت هَذَا الْعِلْمَ ؟ قَالَ: "بِلِسَانٍ سَئُولٍ وَقَلْبٍ عقُولٍ" (المعجم الكبير للطبراني) ، ولله در القائل:

فَسَلْ الْفَقِيهَ تَكُنْ فَقِيهًا مِثْلَهُ لا خَيْرَ فِي عِلْـمٍ بِغَيْـرِ تَدَبُّرِ
وَإِذَا تَعَسَّرَتْ الْأُمُورُ فَأَرْجِهَا وَعَلَيْك بِالْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يَعْسِرِ

وعلى طالب العلم أن يستعين على كل ذلك بطاعة الله (عز وجل) ، حيث يقول سبحانه : {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٢] .

وكما اهتم الإسلام بالعلم ووضع لطلابه آدابًا أوجب على المعلم أمورًا يلزمه أن يراعيها مع طلابه ، فالمعلم صاحب رسالة سامية ، يقوم من خلالها بتربية الأجيال ، ونشر المعارف والعلوم ، فيجب عليه أن يكون مخلصًا في أداء رسالته ، متقنًا لها ، قدوة لطلابه ، منضبطًا في سلوكه وقوله وفعله ، مهتمًّا بطلابه سلوكيًّا ، وثقافيًّا ، صبورًا متواضعًا ، بعيدًا عن الكبر والغرور ، فالتواضع صفة من الصفات المحمودة ، وسبيل إلى نيل رضا الله (عز وجل) يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنّ اللَّهَ أَوْحَى إِلىَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ؛ حَتّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) (صحيح مسلم) ، وعن أبي هُريرة (رضي الله عنه) أَنّ رسولَ اللّه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ: (. . . وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للَّهِ إلا رَفَعَهُ اللَّهُ) (صحيح مسلم) ، وقد سُئل الفضيل بن عياض عن التواضع ، فقال: " أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته منه ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه " ، وكان عروة بن الورد يقول: "التواضع أحد مصايد الشرف ، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع" .

فإذا كان التواضع محمودًا من جميع الخلق فإنه من أهل العلم والشرف والجاه أحمد وأعظم، لأن أهل العلم يدركون أن العلم نعمة

ومنة وفضل من الله سبحانه ، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: ٢٦٩] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

إخوة الإسلام :

إن العلم النافع هو أشرف ما يسعى الإنسان إلى تحصيله في الدنيا ، ومن أعظم ما يعدّه للقاء الله في الآخرة ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) (صحيح مسلم) ، وتلك جملة من الآداب ينبغي للعالم والمتعلم أن يتحلى بها من باب الأخذ بأسباب العلم، ولا يعني ذلك عدم التوكل على الله (عز وجل) فإن المسلم مطالب بالأخذ بالأسباب المشروعة ؛ لأن الأخذ بالأسباب من الإيمان ، ولقد أمرنا النبي (صلى الله عليه وسلم) بالأخذ بالأسباب ، فعندما قال له رجل: يا رسول الله: أُرْسِلُ نَاقَتِي وَأَتَوَكَّلُ ؟ ، قَالَ: (اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ) (سنن الترمذي) ، فأمره بالأخذ بالأسباب مع صدق التوكل على الله (عز وجل)، وَعندما سُئِلَ الإمام أَحْمَدُ (رحمه الله) عَنْ رَجُلٍ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ وَقَالَ لا أَعْمَلُ شَيْئًا حَتَّى يَأْتِيَنِي رِزْقِي ، فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ

جَهِلَ الْعِلْمَ ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): (لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) (سنن الترمذي) فَذَكَرَ (صلى الله عليه وسلم) أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ قَالَ: وَكَانَ الصَّحَابَةُ (رضي الله عنهم) يَتَّجِرُونَ وَيَعْمَلُونَ " (فتح الباري).

فالتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب التي ترتبط بمسبباتها ، بل إن مباشرة الأسباب من تمام التوكل؛ لأن الله تعالى قد جعل لكل شيء سببًا ، وإن من جملة الأخذ بالأسباب التداوي ، والتحصن بسائر أنواع التطعيمات التي تعلن عنها ، وتقوم بها وزارة الصحة والسكان من تطعيم الأطفال ؛ حماية لأبنائنا وأطفالنا وكذلك سائر أنواع التطعيمات التي تهدف إلى حماية المجتمع ورعايته رعايةً صحيَّةً تليق به ، ويجب علينا جميعًا أن نمدَّ يد المساعدة والدعم للقائمين على هذه الحملات ؛ حماية لأطفالنا وفلذات أكبادنا فأطفال اليوم هم شباب الغد وهم بناة الوطن وحماته .

اللهم اغفر لنا وارحمنا ، وارزقنا الفردس الأعلى من لجنة
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين .

*   *   *

المسـئولـية

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[لأحزاب: ٧٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، أجمعين .

وبعــد:

فلقد كرم الله (عزَّ وجلَّ) الإنسان فخلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وفضَّله على كثير من خلقه بأمور كثيرة ، منها: تحمله للمسئولية والتكاليف الشرعية ، فلا يخلو عاقل رشيد من أمر المسئولية مهما كانت منزلته في المجتمع ، فكل إنسان مسئول بقدر استطاعته ونطاق تحمله والمهام الموكلة إليه .

ومما لا شك فيه أن المسئولية تكليف قبل أن تكون تشريفًا ، ومن نظر إليها نظرة تشريف فقط متشوقًا إليها متطلعًا لها بإشراف نفس ، غالبًا ما تجرفه مزالقها وتبعاتها ، ومن أخذها بحقها مأخذ التكليف أو مأخذ الرسالة ، فله فيها من الله (عز وجل) معين ، وفي هذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبدَ الرَّحمن ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا) (متفق عليه) ، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رضيَ اللهُ عنهُ) قَالَ : قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إلا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ، ثُمَّ

قَالَ: (يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْىٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِى عَلَيْهِ فِيهَا) (صحيح مسلم) .

وللمسئولية صور كثيرة ، منها: **المسئولية الأسرية**: فإنّ للأسرة دورًا عظيمًا في استقرار المجتمع وتماسكه ، فهي الركيزة الأساسية في بنائه وخط الدفاع الأول عنه ، والوالدان مسئولان أمام الله (عز وجل) عن بناء هذه الأسرة واستقرارها من خلال قيام كل منهما بواجباته وأداء ما عليه من حقوق .

ولقد وضح الإسلام هذه الواجبات وتلك الحقوق ، وقسمها بين جميع أفراد الأسرة ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه) ، فنجاح الأسرة واستقرارها مرهون بالمحافظة على الحقوق والواجبات بين جميع أفرادها ، وعدم تجاهلها أو التفريط فيها.

فالمسئولية بين أفراد الأسرة تكاملية تبادلية : حقوق وواجبات ، واحترام متبادل ، على أن يؤدي كل فرد فيها دوره بحب وود وأمانة ، أما من قصر أو فرط أو ضيع فهو مسئول أمام الله (عز وجل) ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ ، حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) (صحيح ابن حبان) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) (صحيح مسلم) .

ومن صور المسئولية: **المسئولية الوظيفية** ، فإن أمر المسئولية يتعاظم بتعاظم المهمة التي تُوكل إلى كل مسئول ، فكلما اتسع نطاق المسئولية تطلَّب مواصفات خاصة أهمها: الكفاءة ، والكفاية ، والخبرة ، والأمانة ، والقدرة على القيام بمهام تلك المسئولية وتبعاتها ؛ حيث يكون كل إنسان مسئولًا أمام نفسه ، وأمام الناس ، وأمام الله (عز وجل) عما ولَّاه إياه، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إلا أَتَى اللهَ مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ) (مسند أحمد) .

كما ينبغي لكل من يتولى أمرًا من أمور الناس ، أو وظيفة من الوظائف أن يدرك أنه مأمور بحسن الأداء ، ومراقبة الله (عز وجل) ، وعليه أن يعي أنه يتعامل مع مال عام ، فيتصرف فيه في حدود أداء وظيفته ، فلا يدخل على نفسه سحتًا أو حرامًا ، تحت أي مسمى من المسميات .

على أننا نؤكد أن أي مسئول وعلى أي مستوى لا يصح ولا ينبغي أن يكون اتكاليًّا ، أو غير متابع ولا مدقق لتفاصيل جميع المهام الواقعة في نطاق مسئوليته ، مهما بدا له ذلك الأمر صغيرًا أو بسيطًا ، فقد يترتب على الإهمال فيما يظنه البعض صغيرًا أو بسيطًا ما لا يحتمل من الضرر ، وعلينا أن ندرك جميعًا أن الثقة لا تعني عدم المتابعة ، وأن المتابعة لا تعني عدم الثقة .

كما أن كل مسئول في نطاق مسئوليته مطالب بأن يختار من المعاونين القويَّ الأمين ، وأن يختار الأكفأ فالأكفأ ، فمن ولَّى رجلا على

جماعة وفيهم من هو أصلح للمهمة منه – بكل ما تعنيه كلمة أصلح من معان – فقد خان الله ورسوله والوطن والأمانة التي يتحملها .

ومن صور المسئولية كذلك **المسئولية المجتمعية** ، فقد وضع الإسلام ضوابط مجتمعية يحيا الناس من خلالها حياة آمنة مستقرة ، يسودها المودة والإجلال والاحترام ، والتكافل والتضامن الاجتماعي ، علي أساس المساواة بين بني البشر جميعًا ، فيكون المجتمع جسدًا واحدًا .

والمتأمل في واقع الناس اليوم يجد منهم الفقير الذي لا يجد ما يسد جوعه ، والمريض الذي لا يجد دواءه ، والأرامل ، واليتامى والضعفاء ، ومن لا عائل لهم ، وقضاء مصالح هؤلاء وحوائجهم من المسئولية المجتمعية والشرعية والوطنية بل هي من فروض الكفايات التي إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين ، وإن لم يقم بها أحد أثم الجميع ، وفي ذلك يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (متفق عليه) .

ولقد أعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من شأن القيام بهذه المسئولية المجتمعية فجعل قضاء حوائج الناس مقدمًّا على الاعتكاف في مسجده (صلى الله عليه وسلم) ، فعن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ (رضي الله عنه) قَالَ: بينَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَال رسولُ اللَّه (صلى الله عليه وسلم): مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَن كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَن لا زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم)، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ

لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ – يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ – شَهْرًا . . . وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الأَقْدَامِ) (الأوسط للطبراني) .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه في قضاء حوائج الناس والسعي في مصالحهم ، فيسأل عمن فعل واستجاب وعمن حرص واقتدى ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) ذَاتَ يَوْمٍ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه): أَنَا ، قَالَ: (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟) ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟) . قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَا اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم) .

ومن صور المسئولية كذلك: **المسئولية الوطنية**: فإن للوطن حقوقًا علينا جميعًا ، وعلينا مسئولية كبرى تجاهه ، من أجل حمايته ، والعمل على رفعته وتقدمه ، ولقد ربَّى النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أصحابه على أن التضحية بالنفس والمال دفاعًا عن الأوطان وحرماتها ومقدساتها جهاد في سبيل الله ؛ ولا أدل على ذلك من أن الله (عز وجل) قد أعلى من شأن من بذلوا أرواحهم دفاعًا عن دينهم وأوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ}[التوبة ١١١] .

كذلك من المسئولية الوطنية: العمل على إعمار البلاد ، ورفعتها ، وتقدمها ، بإعلاء المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وتوحيد الجهود ، ونبذ الخلافات ، وعدم شق الصف وأن نكون على قلب رجل واحد ، امتثالًا لقول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفرَّقُوا} [آل عمران١٠٣] ، وقوله جلَّ شأنُه: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال ٤٦] .

وعلينا أن ندرك أنه سيأتي اليوم الذي يقال للجميع فيه: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ} [الصافات ٢٤] ، ولنستشعر قول الله (عز وجل): {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} [الحاقة ١٨] ، صغر أمرها أو كبر ؛ حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان ١٦] .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام:

ساعات قليلة ونستقبل موسمًا من مواسم الخير والبركة والطاعة ألا وهو شهر شعبان المبارك ، شهر ترفع فيه الأعمال لتعرض على الله (عز

وجل) ، لذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخصه بمزيد من العبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله سبحانه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يكثر فيه من الصيام لدرجة لفتت أنظار أصحابه (رضوان الله تعالى عليهم) حتى أن بعضهم سأله عن سرِّ ذلك الاهتمام ، فعن أُسَامَة بْن زَيْدٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ ، قَالَ: (ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ} (سنن النسائي) .

وعَنْ أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) أَنَّهَا قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ: لا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ: لا يَصُومُ ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إلا رَمَضَانَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْهُ صِيَامًا فِي شَعْبَانَ) (متفق عليه) .

كما اختص الله (عز وجل) شهر شعبان بليلة مباركة ، يطَّلع الله فيها على عباده ، وينظر إليهم نظر رأفة ورحمة ، ويتفضل عليهم بغفران الذنوب وستر العيوب ، ألا وهي ليلة النصف من شعبان ، فعن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قال: (إِنَّ اللَّهَ لَيَطَّلِعُ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إلا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ) (سنن ابن ماجه) ، وفي رواية: (يطَّلعُ الله إلى عِبادِه لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبانَ ؛ فيَغْفِرُ لِلْمُؤمِنينَ ، ويُمْهِلُ الكافِرينَ ، ويَدعُ أَهْلَ الحِقْدِ بحِقْدِهم حتَّى يَدعُوهُ) (سنن ابن ماجه) .

فينبغي علينا أن نغتنم هذه الأيام المباركة في كثرة الطاعات ، وفعل الخيرات ، والتقرب إلى الله (عزّ وجل) ، امتثالًا لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ الدَّهْرِ نَفَحَاتٌ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ نَفْحَةٌ فَلَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

مفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه ورسوله القائل في حديثه الشريف: (إِنَّ خِيَارَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ الْمُوفُونَ الْمُطَيَّبُونَ) (مسند أحمد) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن الإسلام دين الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، والبر والإحسان ؛ ولا شك أن الوفاء بالعهد قيمة أخلاقية وإنسانية عظمى ، بها تُدعم الثقة ويتحقق الأمن والأمان بين الشعوب بعضها مع بعض ، وتنمو بها أواصر التعاون والمودة والبناء والتقدم بين أبناء المجتمع الواحد ، لذا كان الوفاء بالعهد شعبة من شعب الإيمان ، ودليلًا من دلائل الصدق والإحسان ، فهو أدب رباني جليل ، وخلق نبوي كريم ، وسلوك إسلامي قويم .

ولقد أمر الإسلام أتباعه بضرورة التحلي بخلق الوفاء بالعهود والعقود والمواثيق ، وأكَّد على ذلك تأكيدًا جازمًا ، فقال تعالى: {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٤] ، وقال جل شأنه: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: ٩١] ؛ أي: التزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم ، سواء أكان فيما بينكم وبين الله (عز وجل) ، أم فيما بينكم وبين الناس ، ولا تنكثوا الأيمان بعد أن

أَكَّدْتموها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا وضامنًا حين عاهدتم ، فمن أبرم عقدًا وجب عليه احترامه ، ومن أعطى عهدًا وجب عليه الالتزام به .

كما أخبر الحق سبحانه وتعالى أن أهل الوفاء الملتزمين بعهودهم ومواثيقهم هم أهل محبته ، وهم أهل الصدق والتقوى من خلقه ، حيث يقول سبحانه: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦] ، ويقول جل شأنه: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] ، وبيَّن سبحانه أنهم أصحاب الأجر العظيم ، وورثة جنة النعيم ، فقال جل شأنه: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ١٠] ، ثم بيَّن سبحانه هذا الأجر العظيم في موضع آخر من كتابه ، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المؤمنون: ٨] .

ولقد أعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) من قيمة الوفاء بالعهود ، وحذر من نقضها ، أو عدم الوفاء بها ؛ حيث إن في خيانتها وعدم الوفاء بها فسادًا للمجتمعات ، وفقدًا للثقة بين الناس ، وتضييعًا للأمانات ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب ، وإذا وعدَ أَخلفَ ، وإذا اؤْتمِنَ خانَ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلًا ، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا) (صحيح البخاري) ، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من عقوبة الغدر ، فقال: (إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ،

فَيقال: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ) (متفق عليه) ، قال ابن كثير (رحمه الله): والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًّا ، لا يطلع عليه الناس ، فإذا كان يوم القيامة يصير علمًا منشورًا على صاحبه بما فعل ، وهكذا يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر والخيانة ، ويخزيهم الله (عز وجل) على رؤوس الخلائق .

وإن من جملة العهود التي أمر الشرع الحنيف التزامها ، وأكد على الوفاء بها ، وعدم نقضها "عهد الأمان" ؛ وهو بمفهوم العصر الحاضر : ما تمحنه الدولة من تصريح ، أو تأشيرة ، أو إذن بالدخول إلى أراضيها لأحد رعايا الدول الأخرى ، سواء أكان سائحًا ، أم زائرًا ، أم مقيمًا ، بموجب الأعراف ، والمواثيق ، والاتفاقيات الدولية في التعامل مع الدبلوماسيين ، ومن في حكمهم ، أو بموجب الاتفاقيات الثنائية بين الدول ، بأي طريق من الطرق المقرة ، المعتبرة قانونا ، والمعترف والمعمول بها لدى الدولة المضيفة ، وفق قوانينها المنظمة ، وبمجرد حصول هذا الشخص على تصريح الإقامة ، أو تأشيرة أو إذن الدخول أصبح له حق وحرمة داخل هذا الدولة ، وأصبح هذا العهد الذي أعطته الدولة له مُلزمًا لكل مواطنيها ، والمقيمين بها ، لا يجوز نقضه ، أو الالتفاف عليه ، أو التحلل منه ، لا شرعًا ، ولا قانونًا ، ومن رأى مخالفة تمس أمن وطنه ، أو تخالف النظام العام لدولته ، فليس له إلا أن يرفع الأمر لأهل الاختصاص ، حتى تتمكن أجهزة الدولة من محاسبته في ضوء ما تقتضيه وتنظمه القوانين ، إذ ليس لآحاد الناس محاسبته على ما بدر منه ، أو التعرض له بسوء ، وإلا صارت الأمور إلى الفوضى وعدم الانضباط .

ومما لا شك فيه أن الوفاء بهذا العهد من أوجب الواجبات وألزمها شرعًا ، وقانونًا ، ووطنيةً ، وإنسانيةً ، فإذا كان ديننا الحنيف قد أعلى من شأن عهد الأمان ، فإن ذمة المسلمين في ذلك واحدة ؛ بمعنى أن العهد الذي يقطعه أحد المسلمين على نفسه ، يكون مُلزمًا لجميع المسلمين ، فما بالنا إذا صار هذا العهد ميثاقًا يضبطه وينظمه الشرع والقانون معًا ، متعاضدين ، يقوي كل منهما الآخر ، ويدعمه ، ويستوجبه ؟ لا شك أن ذلك يقتضي الوفاء بالذمم والعهود ، لا نقضها ، ولا تضييعها ، ولا حتى مجرد المساس بها .

إن الإسلام دين حفظ العهود والعقود ، دين لا يعرف الغش ، ولا الخداع ، ولا الخيانة ، فلم يثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) – منذ بداية دعوته – ولا عن أحد من أصحابه (رضوان الله عليهم) أنهم منعوا أحدًا الأمان ، أو نقضوا عهد أمان منحوه لأحد ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم):{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ}[الأنفال: ٥٨] ، وكان بين سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) وبين الروم عهد ، فأراد معاوية (رضي الله عنه) أن يخرج على مقربة من حدود الروم ، فإذا انتهى الموعد باغتهم ، فلحق به رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول: الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا ، فإذا عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) ، فأرسل إليه معاوية (رضي الله عنه) فسأله ، فقال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) يقول : (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ، ولا يحلّها حتّى ينقضي أمدها ، أو ينبذ

إليهم على سواء) ، فرجع معاوية (رضي الله عنه) (سنن أبي داود) ، بل وتظهر عظمة الإسلام وتتجلى في أعلى صورها في أمر الله (عز وجل) لنبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يجير ويأمن من استجاره ، ولو كان مشركًا ، بل ولو كان محاربًا ، حيث يقول سبحانه: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ}[التوبة: ٦] .

ولقد رسخ النبي (صلى الله عليه وسلم) لهذه القيم النبيلة التي تحقق الأمن والأمان للإنسانية كلها بقوله وفعله ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) (سنن الترمذي) ، وها هو النبي (صلى الله عليه وسلم) يجسد لنا عمليًّا أروع الأمثلة في الوفاء بالعهد حتى مع أعدائه ؛ فعن يوم بدر يقول حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه): مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (انْصَرِفَا ، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) (صحيح مسلم) .

وعليه ، فإننا نؤكد أن من واجبنا جميعًا الحفاظ على العهود والمواثيق التي تلتزم بها الدولة تجاه كلِّ إنسان يدخل إلى بلادنا ، وأن نكون متعاونين ومتضامنين على حفظ دمه ، وعرضه ، وماله ، وخصوصيته ، كما أن من واجبنا حسن استقباله ، وإكرامه؛ ليرى منا ما نحب أن يتصوره عن عظمة ديننا ، وعمق حضارتنا ، ورقي إنسانيتنا ؛ بما يسهم في تكوين الصورة الذهنية التي نريدها لديننا ، ووطننا ، ومجتمعنا ، وهذا هو حال الأمم والشعوب الراقية المتحضرة .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن الإسلام دين العدل والتسامح والتعايش السلمي ، والمسلم دائمًا أمن وأمانٌ ، سلمٌ سلامٌ في كل مكان يحل فيه ، في بلاده ، وفي غيرها ؛ فإذا انتقل المسلم لبلد آخر ، سواء أكان من بلاد المسلمين ، أم من غيرها ، فإن التأشيرة التي تمنحها هذه الدولة له – كعهد أمان ، يأمن به على نفسه – هي في المقابل عهد أمان منه لأهل هذا البلد ؛ يأمنون به على أنفسهم وأموالهم ، ويُلزمه ذلك أن يخضع لقوانين هذا البلد ، ويلتزم بها ، ويؤدي ما عليه بأمانة وصدق ، فيحرم عليه أخذ شيء من أموالهم بغير حق ، أو الاعتداء على أعراضهم ، أو الغدر بهم بأية صور من الصور ، حتى يكون خير سفير لدينه ، ووطنه ، وحضارته ، فبمجرد دخوله

تلك البلاد قد التزم وعاهد الله (عز وجلّ) على الوفاء ، حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}[البقرة: ٢٧] .

يقول الإمام الشافعي (رحمه الله): إذا دخل الرجل دار غير المسلمين بأمان منهم ، فلا يحل له أن يأخذ شيئا من أموالهم – قل أو كثر – حتى ولو كانوا في حالة حرب مع المسلمين ؛ لأنه إذا كان منهم في أمان ، فهم منه في أمان مثله ؛ ولأنه لا يحل له في أمانهم إلا ما يحل له من أموال المسلمين .

ولله دَرُّ القائل:

وَفاءُ العَهدِ مـن شِيَـــمِ الكـرامِ ونقضُ العَهدِ من شِيَــمِ اللِّئَــامِ
وعندي لا يُعَــدُّ مــن السّجايـا سِوَى حِفظِ المَـوَدّةِ والذِّمـامِ

اللهم اهدنا واهدي بنا واجعلنا سبباً لمن اهتدي ، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

* * *

احترام النظام العام

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم: {لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، أحسن كلّ شيء خلقه ، وأتقن كلّ شيء صنعه ، وكلّ شيء عنده بمقدار ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن من أسباب تقدم الأمم وعوامل رقيها وحضارتها احترام أبنائها للنظام العام ، فحفظ النظام واحترامه ، والالتزام بالقوانين سلوكٌ دينيٌّ وحضاريٌّ ؛ إذ لابد لكل فئة تتعايش في مجتمع واحد من بعض الأنظمة والقواعد العادلة التي تضبط سلوك الأفراد ، وتحفظ على الإنسان حقوقه ، ويُلزم فيها بأداء ما عليه من واجبات . وبدون النظام لن ينال النَّاسُ حَقوقهم ، ولن يتحقق لهم العَدلُ .

والمتأمِّل في هذَا الكونِ الواسعِ يرى أن النظام سنة من سنن الله الكونية في الخلق ، فالكون كله يسير وفق نظام دقيق ، وترتِيبٍ بديع ، وتنسيقٍ محكم ، وإتقانٍ يُبهِرُ العقولَ ، ولا عجب في ذلك فتلك صنعة بديع السموات والأرض التي قال عنها: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل: ٨٨] ، فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ خَلقَهُ اللهُ (عزَّ وجلَّ) وسَخَّرهُ لحِكْمةٍ وبحِكْمةٍ ، فلم يخْلُق سبحانه شيئًا في الكَونِ عبثًا ، فالعبث

محال على الله (عز وجل) ، قال سبحانه: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦] ، وكل شيء في هذا الكون يؤدي دوره ووظيفته التي خلقه الله (عز وجل) من أجلها ، بانتظام وإتقان وإحكام ، بحيثُ لا يتقدم لاحِقٌ على سابِقٍ ، ولا يتأخر سابِقٌ على لاحِقٍ ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٣٨ – ٤٠] ، ويقول جلَّ شأنُه: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: ٤٩] .

وكما أنَّ النظامَ سُنَّةٌ كونيةٌ ، فهو أيضًا مبدأٌ أصيلٌ من مبادئِ الشريعة الإسلامية ، فلقد جاءت الشريعة الإسلامية بنظام دقيق متناسق ومتناغم مع نظام هذا الكون المنضبط ، ليدل ذلك دلالة قاطعة على أن خالق الكون هو من أنزل هذا الشرع الحنيف ، ففي أمور العبادات نجد أن الصلاة وهي أعظم شرائع هذا الدين لها أوقات محددة ، وطريقة أداء منضبطة ، سواء أداها الإنسان منفردًا أم في جماعة ، بل جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) تسوية الصفوف من تمام الصلاة ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يقول للصحابة: (سَوُّوا صُفُوفَكُمْ ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ) (متفق عليه) ، وكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يُعلِّمُ أصحابَهُ احترامَ النظامِ في صلاة الجماعة قائلًا: (إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَإِذَا

صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا فإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا ، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعُوا . . .) (متفق عليه) ، ولاشك أن هذه صورة من أرقى وأبهى وأجمل صور النظام . وكذلك الزكاةُ ، والصيام ، والحج ، وسائر العبادات تُؤدَّى وفقَ نظامٍ دقيقٍ مُفَصَّلٍ ومُوَضَّحٍ كمًّا وكَيفًا وأداءً .

فالنظام مبدأ دعا إليه الإسلام ، وأمر أتباعه بأن يجعلوه سلوكًا يمارسونه في حياتهم اليومية ، حتى يكون المجتمع الإسلامي مجتمعًا منظمًا يتحمل كل فرد فيه مسئوليته فتتحقق المصلحة العامة التي يحصد ثمارها المجتمع كله ، يقول نبينا (صَلى اللهُ عَلَيه وسلم): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . . .) (متفق عليه) ، فالمجتمع المسئول مجتمع منظم متماسك ، يعرفُ كل واحد فيه دوره ، ويحترم غيره ، وينظر بعين الخير للجميع .

لقد أسس الإسلام نظامًا عاما لم يُسبق إليه ، فأعاد صياغة منهج الحياة؛ ليصير منهجًا وسطًا متوازنًا في كل مناحيها حتى عند الطعام والشراب ، فقد وضع له نظامه وآدابه وثقافته ، فعَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يَقُولُ: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي) ، وعن عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ (رضي الله عنه) قال: كُنْتُ غُلَامًا فِي حجْرِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ،

فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ" (متفق عليه) .

ومن أهم المواضع التي ينبغي أن يراعى فيها النظام ويسود:

احترام القانون ، فإن احترام القانون بصفة عامة يعد أهم أعمدة النظام ، وصورة من صور استقامة السلوك الإنساني ؛ تحقيقًا لمصالح الفرد والمجتمع ، ونزعًا لفتيل الكثير من الأحقاد والمشكلات ، فالقانون وُضع ليطبق على الجميع بلا استثناء حماية لكل المواطنين ، وتنظيمًا للعلاقات والمعاملات ، فلا يتصور بقاء المجتمع مستقرًا دون احترام القوانين .

والمتأمل في حال الدول المتقدمة ، والمجتمعات الراقية يعلم يقينًا أنها ما وصلت إلى ما وصلت إليه إلا باحترامها للقوانين ، والتزامها بتطبيقها ، وإنك لتعجب حينما تجد كثيرًا من أبنائنا الذين سافروا إلى هذه الدول يعلنون إعجابهم بِدقة النظام ، والتزام الناس به ، وإخلاصهم في عملهم ، وانضباطهم في مواعيدهم ، ولكنهم هم أنفسهم إذا عادوا إلى أوطانهم مرة أخرى ترى بعضهم عاد سيرته الأولى مِن عدم الالتزام بالنظام ومحاولة التفلت من الالتزام بالقوانين وما ينظم الشأن العام .

ومن مظاهر احترام النظام: **الالتزام بقواعد المرور وضوابطه** ، فإن هذه القوانين وإن كانت من الأمور الحضارية المستجدة إلا أنها مستندة إلى أصول ثابتة في ديننا الحنيف الذي أصّلَ لحقوق الطّريق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ

الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) (متفق عليه) ، فإذا كانت إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وشعبة من شعب الإيمان ، وسبيلاً لدخول الجنة ، فكيف بمن يحترم قوانين المرور وضوابطه ولا يخالفها بالسير عكس الاتجاه ، أو بزيادة السرعة ، أو غير ذلك من الأمور التي تعتبر تعديًا على حقوق الطريق ، وعلى حقوق الناس والتي قد تتسبب في إزهاق روحه أو أرواح غيره ، أو إصابتهم ، أو ترويعهم ، والله (عز وجل) يقول : {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[البقرة: ١٩٥] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَا ضَرَرَ ولا ضِرَار) (مسند أحمد) .

ولقد بين لنا النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أن للطريق حقًّا ينبغي علينا القيام به في قوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ : مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ) ، قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ) (متفق عليه) ، فحق الطريق حق عام ينبغي احترامه والالتزام بما ينظم التعامل معه أو فيه .

ومن احترام النظام: الالتزام بمبدأ الحق والواجب ، فكما يريد الإنسان أن يأخذ حقه عليه أن يفي بواجبه تجاه مجتمعه سواء في أداء ما عليه من التزام أو سداد ما يُحصل من خدمات ، ولا يعمد إلى التفلت مما عليه من استحقاقات .

إن الأخذ بمبدأ مقابلةِ الحق بالواجب ضرورة شرعية ومجتمعية لضمان العدل بين الناس والتعايش في سلام وأمان ، فإذا نظرنا إلى هذا المبدأ بين صاحب العمل والعامل مثلًا وجدنا أن الإسلام قد بين حقوق وواجبات الطرفين ، فالعامل يجب عليه أن يلتزم بأخلاقيات العمل التي دعا إليها الإسلام من الصدق والوفاء بالعقود ، وأداء الأمانة على الوجه المطلوب والشكل المرغوب ، وكذلك صاحب العمل عليه أن يؤدي للعامل حقه ، وأن لا يظلمه شيئًا ، وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية ، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معا، حيث يقول سبحانه في العلاقة بين الزوجين: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة: ٢٢٨] ، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري) .

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا ، وبخاصة في مجال العمل ، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد ، فيكون أحد الشقين معتدلا والآخر مائلا ، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معا ، والوفاء بالحقوق والواجبات معا ، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله (عز وجل) في الذي لنا .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن النظام سُنَّةٌ كونيةٌ ، وقيمةٌ إنسانيةٌ ، وضرورةٌ اجتماعيةٌ تعنى به المجتمعات المتقدمة ، وتحرص عليه الأمم المتحضرة ، وتحت مظلته يتساوى الناس في الحقوق والواجبات ، فيحترم الإنسان غيره ، ويؤدي إلى الناس حقوقهم ، ويحب لهم ما يحب لنفسه ، فاحترام الآخرين بصفة عامة دليل احترام الإنسان نفسه ، ولو كان ذلك في بعض الأمور التي يرى بعض الناس أنها هينة كالالتزام بالصف وعدم تجاوز الآخرين والتعدي على حقهم في الأسبقية في أي مكان ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) .

وعلى هذا المبدأ – من القيام بالواجبات واحترام حقوق الآخرين – عاش أصحاب النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) من بعده ، ففي عهد أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) كُلف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بولاية القضاء في المدينة ، فمكث سنة لم يختصم إليه اثنان ، فطلب من الصديق (رضي الله عنه) إعفاءه من القضاء ، فقال أبو بكر (رضي الله عنه): أَمِنْ مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر ؟ قال: لا يا خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن لا حاجة بي عند قوم

مؤمنين ، عرف كل منهم ما له من حق ، فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجب ، فلم يقصر في أدائه ، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه ، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب عزوه وواسوه ، دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ففيمَ يختصمون ؟! ففيمَ يختصمون"؟! (أخبار القضاة لوكيع القاضي مختصرًا) .

ألا ما أحوجنا إلى احترام النظام والتزام القوانين ، ومراعاة حقوق الآخرين ، وتربية أبنائنا على ذلك ، حتى يسود العدل ، وتنتشر روح الإخاء والمحبة والمودة ، وينعم المجتمع كله بالأمن والأمان والاستقرار، ونرى بلادنا في المكانة التي تليق بها بين الأمم .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد المسلمين .

*   *   *

ضوابط الأسواق وآدابها

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * إلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ١– ٦] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن الله (عز وجل) قد شرع لعباده البيع والشراء وصولًا إلى الغرض ، ودفعًا للحاجة ، حيث يقول سبحانه: {وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا} [البقرة: ٢٧٥] ، ولقد جرت عادة الناس منذ الأزل على إقامة الأسواق التي يتبادلون فيها منافعهم ، ويحققون من خلالها مصالحهم ، وجاءت آيات الذكر الحكيم لتبين أن ذلك سمة من سمات البشر ، حيث يقول سبحانه: {وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [الفرقان: ٢٠] ، وحكى القرآن الكريم قول المشركين عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}[الفرقان: ٧] ، وفي قصة أصحاب الكهف يقول سبحانه حكاية عن حالهم: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ} [الكهف: ١٩] .

ومما لا شك فيه أن أحوال الأسواق أحد أهم مظاهر التطبيق العملي للإسلام الحقيقي ، فإذا أردت أن تعرف أثر العبادة في السلوك فاذهب

إلى الأسواق ، وإذا أردت الحكم على صدق التدين أو كونه تدينًا شكليًّا فعليك بمعرفة أحوال الشخص في معاملاته بيعًا وشراءً ، لذلك عندما

شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ سيدنا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ) بِشَهَادَةٍ فَقَالَ لَهُ سيدنا عمر:" لَسْتُ أَعْرِفُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ أَنْ لاَ أَعْرِفُكَ ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا أَعْرِفُهُ قَالَ : بِأَىِّ شَىْءٍ تَعْرِفُهُ؟ قَالَ : بِالْعَدَالَةِ وَالْفَضْلِ. فَقَالَ : فَهُوَ جَارُكَ الأَدْنَى الَّذِى تَعْرِفُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَمَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قَالَ : لاَ.قَالَ : فَمُعَامِلُكَ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الْوَرَعِ؟ قَالَ : لاَ. قَالَ : فَرَفِيقُكَ فِى السَّفَرِ الَّذِى يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ؟ قَالَ : لاَ. قَالَ : لَسْتَ تَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ : ائْتِ بِمَنْ يَعْرِفُكَ"(السنن الكبرى للبيهقي) .

فالمعاملات – بيعا وشراء – تُظهر صدق التدين من كذبه أو شكليته ، فيتجلى من خلالها التدين الشكلي أو التدين الفعلي ؛ وكم من ذاكر بلسانه ليوهم الناس ويخدعهم ، وهو أبعد ما يكون عن الذكر ! وكم من متخفٍّ خلف صورة المتدين رياءً وسمعة ، ووسيلة للتكسب ، لترويج بضاعته ، معتمدًا على حب الناس للدين ، وثقتهم في أهله .

ومن تلك الصور المزيفة أيضًا: إطلاق بعض الأسماء التي لا تنطبق على مسمياتها ، قصد إيهام الناس بالتدين أو المتاجرة به ، مع كون الأمر في الحقيقة على غير ذلك ، ليجني كسبًا ومالًا ، وهو بذلك يضر دينه ، ويشكل صورة سيئة في نفوس الناس ، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ}[البقرة: ٢٠٥] .

ولقد جعل الإسلام للأسواق آدابًا وضوابطَ ينبغي أن يتحلى بها المسلم في بيعه وشرائه ، منها: **ذكر الله تعالى وحسن مراقبته** ، فذكر الله يلتزمه المسلم في كل حال ، ويكون باللسان والجوارح ، فللسوق دعاء يقوله المسلم أو المسلمة قبل الدخول ، فقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ قَالَ حِينَ يَدْخُلُ السُّوقَ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ كُلُّهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (سنن ابن ماجه) ، على أننا نؤكدُ أن ذكر الله لا يكون باللسان فقط ؛ وإنما يكون – أيضًا – بحسن مراقبة الله تعالى في تحري الحلال والبعد عن الحرام .

ومنها: **الصدق واجتناب الكذب**: فالأصل أن المسلم صَادق في كل حال ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] ، ومنها حال البيع والشراء في الأسواق ، فلا يجوز للمسلم أن يكذب ليروج لسلعته ، فإن هذا الترويج الكاذب للسلعة يكون سببًا في محق البركة في الدنيا ، والطرد من رحمة الله تعالى في الآخرة ، ويشتد الإثم ويعظم إذا سولت له نفسه أن يقسم كاذبًا ليستحلَّ مال غيره ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ علَى سِلْعَةٍ لقَدْ أَعْطَى بهَا أَكْثَرَ ممَّا أَعْطَى وَهو كَاذِبٌ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ علَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ ،

وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فيَقولُ اللَّهُ: اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كما مَنَعْتَ فَضْلَ ما لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ) (صحيح البخاري) ، وفي رواية: (الْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ) (صحيح مسلم) ، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ ، لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ) (صحيح البخاري) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول لأصحابه: (إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فِي الْبَيْعِ ، فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ، ثُمَّ يَمْحَقُ) (صحيح مسلم) .

كذلك من الآداب والضوابط : **الأمانة والتراضي وعدم** الغش ، والأمانة تقتضي الوضوح الكامل في البيع والشراء حتى يتحقق الرضا التام بين الطرفين ، يقول سبحانه: {إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ} [النساء: ٢٩] ، ولقد قال النبيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) لِعُثْمَانَ بن عفان (رضي الله عنه) : (إِذَا ابْتَعْتَ فَاكْتَلْ ، وَإِذَا بِعْتَ فَكِلْ) (مسند أحمد)، وَعَنِ السَّائِبِ (رضي اللهُ عنه) قَالَ: "أَتَيْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فجعلوا يُثْنُونَ عليَّ ويذكروني ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَنَا أَعْلَمُكُمْ) ؛ يَعْنِي بِهِ ، قُلْتُ: "صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي: كُنْتَ شَرِيكِي فَنِعْمَ الشَّرِيكُ ، كُنْتَ لا تُدَارِي ، وَلَا تُمَارِي" (سنن أبي داود) .

ولقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحاب الضمائر الفاسدة التي لا تراقب ربها ، وحذر كل من تسول له نفسه الخبيثة خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل من الغش فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) (صحيح مسلم) .

كما وجه (صلى الله عليه وسلم) الشركاء إلى أن تكون الأمانة والصدق هما أساس الشراكة بينهما ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (يَقُولُ اللَّهُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَإِذَا خَانَ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا) (سنن أبي داود) .

ومن الآداب كذلك: **عدم تطفيف الكيل والميزان** ، والتطفيف معناه: الاستيفاء من النّاس عند الكيل أو الوزن منهم ، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم ، ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير الّتي يتعامل بها النّاس ، فالله (عز وجل) أمر بإقامة الوزن بالقسط في كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا} [الإسراء: ٣٥] ، وتوعد سبحانه من فعل ذلك فقال: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} [المطففين: ١ – ٣] .

وقد حذر نبيُّ الله شعيب (عليه السلام) قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان ، كما حكى ذلك القرآن الكريم ، فقال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥] .

ومن آداب السوق: **عدم التعدي على حقوق الآخرين** ، ومن ذلك نهي النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أن يبيع الإنسان على بيع أخيه ،

فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لاَ يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ) ، وفي رواية: (لاَ يَبِيعُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ ، وَلاَ يَسُومُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ ، حَتَّى يَأْذَنَ لَهُ أَوْ يَتْرُكَ) (متفق عليه) ، وذلك من الأدب الرفيع في البيع والشراء ، فلا يزايد على من يشتري سلعة ، وكذلك لا ينفِّر من سلعة أخيه فيعيبها حتى يبيع هو سلعته .

ومن صور التعدي على حقوق الآخرين الاحتكار الذي يمثل تلاعبًا بأقوات الناس ، ويضر بالبلاد والعباد ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَا يَحْتَكِرُ إلا خَاطِئٌ) (صحيح مسلم) ، فالمحتكر شخص غلبته أنانيته فاختار الأثرة على الإيثار ، وتناسى أن الربح الزائد الذي يجنيه ويتحصل عليه من احتكاره واستغلاله هو مال حرام ، وهذا المال الحرام السحت مدمر له في الدنيا وسبب لِلَّعنة والطرد في الآخرة حيث يَقُول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامَهُمْ ، ضَرَبَهُ اللَّهُ بِالْجُذَامِ وَالْإِفْلَاسِ) (سنن ابن ماجه) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَرِئَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ ، وَأَيُّمَا أَهْلُ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى) (مسند أحمد) .

على أننا نؤكد أن الرقابة على الأسواق من الولايات العامة للدولة ، وأنه يجب التعاون مع كل الأجهزة المعنية لمنع كل جرائم الغش والاحتكار واستغلال المستهلك ، لأن القضاء على هذه الظواهر السلبية يسهم بقوة في تحقيق الأمن الغذائي والنفسي للمجتمع ، ويسهم في دفع عجلة الاقتصاد الجاد وفي التميز والإتقان محليا ودوليا ، أما الغش فباب واسع من أبواب الفساد وتدمير اقتصاديات الدول .

كما أننا نؤكد على أن الإشراف على الأسواق ومراقبتها أمانة كبيرة ، ومسئولية عظيمة في أيدي كل من كلّف بمهمة من مهامها ، وإن الله عز وجل سائل كل إنسان عما كلّف به أحفظ أو ضيع .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، صَلى الله عليه ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ .

إخوةَ الإسلامِ:

إن أمن الناس في طعامهم وشرابهم وحوائجهم قضية مجتمعية وإنسانية تأتي على رأس الأولويات في حقوق الإنسان ؛ إذ لا يمكن تصور حياة كريمة بدون أن يكون الإنسان آمنًا على غذائه ودوائه ، فيجب أن تتضافر الجهود في مواجهة جميع ظواهر الغش والاحتكار ولا سيما ما يتصل بشئون الغذاء والدواء .

على أن التاجر الفاهم لدينه يظهر أثر عبادته من صلاة وصيام ، وغيرها في صدقه وأمانته ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر ، وقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بعلو منزلة التاجر الصدوق الأمين ورفعة درجته فقال (صلى الله عليه وسلم): (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ) (سنن الترمذي) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ أَطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجَّارِ الَّذِينَ إِذَا حَدَّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا ، وَإِذَا

اؤْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا ، وَإِذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا ، وَإِذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمُّوا ، وَإِذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا ، وَإِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا ، وَإِذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسِّرُوا) (شعب الإيمان للبيهقي) .

كما أخبر (صلى الله عليه وسلم) أن التاجر الصدوق في ظل عرش الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله ، قال (صلى الله عليه وسلم): (التَّاجِرُ الصَّدُوقُ تَحْتَ ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

فما أحوجنا إلى أن نتعاون معًا من أجل المصلحة العامة الشاملة التي نحصد ثمارها جميعًا ، فينظر كل واحد لأخيه بعين الرحمة ، ويحب له ما يحب لنفسه ، فيصدق البائع المشتري وكأنه هو المشتري ، ويصدق المشتري البائع وكأنه هو البائع ، وهذا هو دليل الإيمان ، حيث يقول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (متفق عليه) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

روح العمل الجماعي وضوابطه

الحمـد لله رب العـالمين ، القائـل في كتابـه الكـريم : {وَقُـلِ اعْمَلُـوا فَسَـيَرَى اللَّـهُ عَمَلَكُـمْ وَرَسُـولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَـى عَـالِمِ الْغَيْـبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد :

فإن الأمم لا تُبنى بالكلام ولا بالشعارات ، إنما تبنى بالعلم ، والعطاء ، والتضحية ، ومن أهم سبل بناء الأمم وتقدمها العمل الجاد المتقن ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُـونَ وَسَـتُرَدُّونَ إِلَـى عَـالِمِ الْغَيْـبِ وَالشَّـهَادَةِ فَيُنَبِّـئُكُمْ بِمَـا كُنْـتُمْ تَعْمَلُونَ} ، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنّ اللهَ (عز وجل) يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ) فالدين والوطنية معًا يتطلبان منا الجهد والعرق والعمل والإنتاج ، ولا سيما أن ديننا هو دين العمل والإتقان .

وإذا كان الفرد هو العنصر الأساس في بناء المجتمع فإن دوره الحقيقي في هذا البناء لا يكتمل ولا يتم إلا من خلال العمل مع بقية أفراد المجتمع ، حيث إن الإنسان بمفرده قد ينجز بعض الأعمال لكن إذا أُضيف فِكره إلى فِكر غيره ، وجهده إلى جهد غيره لا شك أن الإنجاز سيكون أكبر وأعظم وأنفع ؛ لذا فقد أعلى الإسلام من شأن العمل الجماعي وجعله من أهم عوامل وأسس بناء الدول والحضارات ، لما فيه

من استثمار للطاقات ، وتوحيد للهمم ، وتعاون من أجل تحقيق الأهداف المشتركة التي تحمل الخير للناس جميعًا ، يقول سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}.

والمتدبر في الخطاب القرآني يرى أن الآيات التي تحث على بث روح العمل الجماعي ، والقيام بالمهام كفريق واحد كثيرة ومتعددة ، ومن ذلك قول الحق سبحانه في الأمر بعبادته: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ، وفي شأن الصلاة التي هي أعظم شعائر الدين ، يقول سبحانه {وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} بصيغة الجمع ، ويقول سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} ، ويقول جل شأنه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم) : {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}، ويقول سبحانه : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}، وحذرنا سبحانه من الفرقة فقال: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

ومما لا شك فيه أن القيام بالأعمال ، وأداء المهام بهذه الروح الجماعية يقوي أواصر المودة والمحبة و الأخوَّة والتآلف بين أبناء المجتمع الواحد ، فيتحقق فيهم وصف الله تعالى : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، ويصدق فيهم قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ

عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) ، وعندما أراد أحد الشيوخ أن يعلم أبناءه أهمية الوحدة وأنها سبب القوة ، وخطورة الفرقة وأنها سبب الشتات والضياع، جاء بحزمة من الحطب وقال : من يستطيع منكم أن يكسر هذه الحزمة بضربة واحدة أو بضربتين ، فحاول كل واحد منهم فلم يفلح ، ففكك حزمة الحطب ووزعها على أبنائه ، وأعطي كل واحد منهم عودًا فكسره بضربة واحدة ، فقال:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا *** وإذا افترقن تكسرت أفرادًا

ولقد ضرب لنا القرآن الكريم الكثير من الأمثلة الرائعة التي تُرغب في العمل الجماعي ، وتحثُّ عليه ، وتُوضح كيف كان أثره في تحقيق الأهداف العظيمة ، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة ؛ ذَهَبَ إِلَى ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَالَ لَهُ : (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ . قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ ، قال: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا . فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ (عليه السلام) يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) يَبْنِي) ، فشَيَّدَا مَعًا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، وَقَدْ خلّد الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْمَوْقِفَ الْعَظِيمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

وفي سورَةِ الْكَهْفِ يحدثنا ربنا سبحانه عن أُنموذج رَاقٍ مِنَ التَّعَاوُنِ وَالتَّكَامُلِ والعمل بروحٍ جماعيةٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ، وذلك عندما وصل هذا الملك العادل إِلَى قَوْمٍ لَا يَعْرِفُهُمْ وَلَا يَعْرِفُونَهُ، فَطَلَبُوا مُسَاعَدَتَهُ،

فَأَجَابَهُمْ لما طلبوا ، ولكنه ألزمهم أن يتعاونوا معه ، وأشركهم في العمل واسْتَثْمَرَ طَاقَاتِهِمْ ، فكانوا جميعًا يدًا واحدةً حتى تم هذا البناء الضخم ، الذي كان سببا في حمايتهم من أذى يأجوج ومأجوج، وفي ذلك يقول الحق سبحانه : {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}.

وهذا كليم الله موسى (عليه السلام) يسأل الله (عز وجل) أن يشد من أزره بأخيه هارون (عليه السلام) ليكون له سندا وعونا له في المهمة التي كلفه الله (عز وجل) بها، وفي ذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا موسى (عليه السلام) : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا*إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا}.

وكذلك المتدبر في السِّيرة النبوية العطرة يرى فيها صفحات مشرقة منَ التعاون والمشاركة والعمل الجماعي في حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) مع أصحابه الكرام ، يقول سَيِّدُنَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): (إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ) .

وكذلك كان (صلى الله عليه وسلم) يشاركهم العمل والبناء بنفسه ، ويحثهم على الاجتماع وعدم الفرقة ، ففي يوم الخندق يقول البراء بن عازب (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ: (اللهم لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا ، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا ، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ، وإِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا) .

وحِينَما أَرَادَ سيدنا سلمان الفارسي (رضي الله عنه) زِرَاعَةَ ثَلَاثِمِائَةِ نَخْلَةٍ ليفتدي بها نفسه من الرق ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) لِأَصْحَابِهِ:(أَعِينُوا أَخَاكُمْ). قَالَ سَلْمَانُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ): فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ: الرَّجُلُ يَأْتِي بِثَلَاثِينَ فَسِيلَة، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ يَأْتِي بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلَاثُمِئَةِ فَسِيلَةٍ، فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) أَنْ أَحْفِرَ لَهَا وَقَالَ: (فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي ؛ أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ) . قَالَ : فَحَفَرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) مَعِي إِلَيْهَا ، فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ النَّخْلَ وَيَضَعُهُ (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ .

ولقد أثنى النبي (صلى الله عليه وسلم) على الأشعريين بأبلغ ثناء عندما كانت روح العمل الجماعي غالبة عليهم في تصرفاتهم وأفعالهم في أصعب المواقف ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي

ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلمْ وَبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلامِ :

إن العمل الجماعي الذي نسعى إليه هو العمل الذي يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق ، هو الذي يقوم على أسس شرعية كالتكافل بين أبناء المجتمع بحيث لا يُرى فيهم جائع ولا محتاج ، أو على أسس تربوية وعلمية كتعاون العلماء في بحوثهم العلمية ، والطلاب في منجزاتهم الدراسية والعملية ، أو على أسس وطنية من أجل العمل على نهضة الوطن ورقيه في جميع المجالات .

وليس العمل القائم على الدعوات الهدامة التي تجتمع على القتل والتخريب وسفك الدماء ، وتدمير الأوطان ، ومحاولات إضعافها أو إسقاطها ، تلك الدعوات

القائمة على الكذب والافتراء ، وتزييف الحقائق ، لا تألو على دين أو وطن أو ضمير.

إن العمل الجماعي الذي ننشده هو العمل البناء لصالح الدين والوطن والإنسانية، وهي متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض ، فما

أحوجنا إلى ترسيخ هذه الروح في نفوس أبنائنا وتحويلها إلى منهج حياة يعيشون به فينتشر الحب ويسود الوئام بين أبناء المجتمع الواحد ، ونرقى بأمتنا إلى المكانة التي تليق بها في كل المجالات ، على أننا نؤكد أن الشعب المصري حينما تسود روح العمل الجماعي بين أبنائه فإنه يحقق من الأعمال ما يراه غيره مستحيلًا ، والمشاهدة والتجربة والواقع قديما وحديثا خير شاهد ودليل على ذلك .

اللهم أمّنا في أوطاننا ، ووفق أئمتنا وولاة أمورنا واحفظ بلادنا من كيد الكائدين وفساد المفسدين.

* * *

خدمة المجتمع بين العمل التطوعي
والواجب الكفائي والعيني

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الحج: ٧٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد:

فإن ديننا الإسلامي الحنيف قد دعا إلى كل عمل إنساني من شأنه أن يحقق النهضة والرقي في المجتمعات ، ولا شك أن خدمة المجتمع من أهم عوامل تحقيق النهضة والرقي ، ونشر المحبة والتآلف بين أبناء المجتمع الواحد ؛ وإن من أهم سِمات المُجتمعات الراقية أن تكون مترابطة قوية ، متماسكة في بنيانها ، يشد بعضها بعضًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه) .

ولقد حثَّنا الشرع الحنيف على خدمة المجتمع من خلال الترغيب في العمل التطوعي ، والدعوة إلى المسابقة في الخيرات ، والمنافسة فيها ، والمسارعة إليها حتى لا تسيطر علينا الفردية ، أو الأنانية ، أو السلبية، فقال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}

[المائدة: ٢] ، وقال سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جميعًا} [المائدة: ٤٨] ، وقال سبحانه: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٣] ، وقال جل شأنه في وصف المؤمنين: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} [المؤمنون: ٦٠ ، ٦١] ، وقال تعالى في الحثِّ على نفع الناس ، وقضاء حوائجهم ، والسعي إلى تفريج كربهم: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] .

وقد أرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهمية العمل التطوعي وفضله ، وبين مكانته بدعوة صريحة إلى تقديم يد العون للآخرين ، وبذل الفضل لهم ، والتوسعة عليهم ، فعن أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم) . وقال (صلى الله عليه وسلم) : (يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّك إِنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَك ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَك ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ

بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...) (صحيح مسلم) ، وعندما سُئل النبيّ (صلى الله عليه وسلم): أيُّ الناس أحب إلى الله (تعالى) ؟ وأي الأعمال أحب إلى الله (عز وجل) ؟ قال (صلى الله عليه وسلم): (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعَهُمْ لِلنَّاسِ ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُرُورٍ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً ، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دِينًا ، أَوْ تُطْرَدُ عَنْهُ جُوعًا ، وَلِأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ ، (يعني المسجد النبوي) شَهْرًا ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ - وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ - مَلَأَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثْبَتَ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ) (المعجم الأوسط للطبراني) .

وكان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يحرص على متابعة أصحابه ، ويتعهدهم بالسؤال عن ذلك ؛ تحفيزًا لهم على فعل الخير ، ومن ذلك أنه (صلى الله عليه وسلم) سألهم ذَاتَ يَوْمٍ : (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضي الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه): أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ

أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا) ، فقَالَ سيدنا أَبُو بَكْرٍ (رضى الله عنه) : أَنَا يا رسول الله ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (مَا اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم) .

والعمل التطوعي هو: ما تَبَرَّعَ الإنسان ليقوم به من تلقاء نفسه مما لا يلزمه ولا يجب عليه ، ولا يبتغي من وراء ذلك نفعًا ماديًّا ولا معنويًّا ، وإنما يقدمه عن طواعية واختيار ؛ رغبة في نفع الناس ومساعدتهم ؛ وطلبًا لمرضاة الله (عز وجل) ، فالعمل التطوعي دليل على الإيجابية التي يجب على المسلم أن يتحلى بها ، والتي تعني الشعور بالمسئولية والمشاركة الفاعلة في بناء المجتمع بالتوجيه والإصلاح والارتقاء بالفرد والوطن ، ومن ثم يتحقق فيه قول الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١] .

والعمل التطوعي بالنسبة للمسلم نوع من أنواع العبادة يقوم به المسلم انطلاقًا من شعوره بالمسئولية تجاه مجتمعه ، وتجاه الإنسانية كلها، بل وتجاه جميع المخلوقات ، وقد ذكر لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أن رجلا دخل الجنة في كلب سقاه ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا ، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ، ثُمَّ

أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ) (متفق عليه). وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهَرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

وعلى الرغم من أن العمل التطوعي لخدمة المجتمع من باب المندوب أو المستحب ، فإن الأمر قد يتحول من الندب إلى الوجوب ، وقد قسم أهل العلم الواجب إلي عيني وكفائي ، فالواجب العيني: هو ما يجب وجوبا لازما علي كل فرد من الأمة ، لا يقوم غيره فيه مقامه ، والواجب الكفائي: إذا قام به بعض الناس سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثموا جميعًا ؛ فلو أن رجلًا تطوع لإدارة عمل خيري تكلف إنشاؤه مبالغ كثيرة ، وتعلقت بهذا العمل مصالح بعض أفراد المجتمع ، فإن عليه أن يتم هذا العمل ولا يتوقف في منتصف الطريق بحجة أنه متطوع وليس ملزمًا بشيء ، ويكون هذا الوجوب كفائيًّا إذا كان هناك أحد غيره يمكنه القيام بهذا العمل ، ويكون واجبًا عينيًّا في حقه إذا لم يكن هناك من يقوم بهذا العمل بدلًا منه ، فضلًا عن أن النكوص عن تحمل المسئولية المجتمعية يتنافى مع الشهامة والمروءة التي يُحتِّمها علينا الواجب الإنساني ، وقد قال بعض الحكماء: أعظم المصائب أن تقدر على المعروف ثم لا تصنعه ، ولله در المتنبي حيث قال:

وَلم أرَ في عُيُوبِ النّاسِ شَيْئًا كَنَقصِ القادِرِينَ على التّمَامِ

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

لا شك أن خدمة المجتمع من خلال العمل التطوعي صورة من صور حماية الأوطان والعمل على رقيها وتقدمها ، فإن حماية الأوطان لا تقتصر على مواجهة العدوان فحسب ، بل إن العمل على تحقيق التكافل الاجتماعي ، والتعاون علي البر والتقوى وصولًا إلى حياة اجتماعية كريمة ينعم فيها الفقير بنعمة الأخوة الإنسانية الرحيمة ، ويجد فيها المحتاج من يشاطره الألم ويفرج عنه همومه وأحزانه من بني وطنه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (متفق عليه) .

فإن واجب الوقت وفقه الأولويات يحتمان على جميع أبناء الوطن المخلصين المدركين لطبيعة المرحلة ، وحجم التحديات المحيطة بنا أن يقفوا جميعًا صفًّا واحدًا حتى تحقق الكفاية لوطنهم كل في مجال عمله ، فأهل الطب يتعاونون في تحقيق الكفاية لوطنهم ، وكذلك رجال القانون ، والهندسة ، والزراعة ، والتعليم ، وسائر التخصصات والصناعات وذلك بتنمية روح البذل والعطاء والتطوع ، والبعد عن الأثرة والأنانية

وحب الذات ، وبهذا يتحقق التكافل الاجتماعي ويتحقق التكامل أيضًا ، فهذا يعمل بيده ، وذاك ينفق من ماله ، وهذا يعلم الناس ، وبهذا يتم توظيف جميع الطاقات والمواهب لخدمة مجتمعنا ، ولعل من أهم الأولويات سعي رجال الأعمال المخلصين الوطنيين لاستثمار أموالهم في بلدهم وتوفير فرص العمل لأبناء هذا الوطن الكريم ، ويقول الشاعر:

كُونُوا جميعًا يَا بَنِيّ إذَا اعْتَـرَى خَطْـبٌ ، وَلاَ تتفرقُـوا آحَـادًا

تَأبَى الرِّمَاحُ إذَا اجتَمَعْنَ تَكَسُّرًا وَإذَا افْتَـرَقْـنَ تَكَسَّـرَتْ أَفْـرَادًا

إن حوائج الناس متنوعة ، ودروب العمل التطوعي كثيرة ما بين إطعام جائعٍ ، وكسوة عارٍ ، وعيادة مريضٍ ، وتعليم جاهل ، وإنظار معسرٍ ، وإعانة عاجزٍ ، وتفريج هم ، وإزالة غم ، وكفالة يتيم ، وسعيٍ في شفاعةٍ حسنةٍ تفكُّ بها أسيرًا ، أو تصلح بها بين متخاصمين ، أو تحقنُ بها دمًا فكل ذلك من التطوع بالخير ، فإن كنت لا تملك هذا ولا ذا فادفع بكلمةٍ طيبةٍ ، وإلا فكُفَّ أذاك عن الناس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: (يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ: (يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ) ، قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: (يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ) ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ : (يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ) (متفق عليه) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

* * *

الابتلاء بالخير والشر

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: ٣٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلا شك أن الابتلاء سنة من سنن الله (عز وجل) في الخلق حيث يقول سبحانه: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢] ، ويقول جل شأنه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[الملك: ٢] ، ويقول (عز وجل): {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٣ – ١٥٥] .

والابتلاء لا يكون بالشر وحده كما يتصور البعض ، بل إن الإنسان يُبتلى بالخير كما يُبتلى بالشر ، ويُبتلى بالسعة كما يُبتلى بالضيق ، ويُبتلى باليسر كما يُبتلى بالعسر ، وهذه سنة اللَّه (عز وجل) في خلقه ، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢] .

إن العاقل من أدرك أنه مُبتلى على كل حالٍ في الدنيا ، فالابتلاء يكون بالسعة في المال أو ضيق ذات اليد فيه ، حيث يقول

سبحانه: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا . . }[الفجر: ١٥- ١٧] أي ليس الأمر كذلك ، فالدنيا ليست محل جزاء للطائع بالنعم ، ولا عقاب للعاصي بالنقم ، وليست السعة أو الضيق أمارة على إكرام الله (عز وجل) للعبد أو إهانته ، وإنمَّا يُعطِي ربنا ويمنع ليختبر عباده .

فالأول يبتلى ليُنظر هل يشكر ويؤدي حق الله (عز وجل) في المال أم لا ؟ يقول الحق سبحانه: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨]، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ) (سنن الترمذي) .

فالعبد إذا ابتُلي بالسراء وجب عليه أن يشكر ، ومن شكر فله المزيد وحسن الجزاء ، ومن كفر فعليه السخط وزوال النعمة ، ولعذاب الآخرة أكبر ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}، ويقول سبحانه : {وَضَرَبَ اللَّهُ

مثلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: ١١٢]، ويقول جل شأنه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٥٣] .

والآخر يبتلى بقلة المال ؛ لاختبار صبره وصلابة إيمانه ، أو جزعه وسخطه وضعف إيمانه بالله (عز وجل) ، وفي هذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ) (صحيح مسلم) .

والابتلاء يكون بالصحة والمرض ، فيبتلى العبد بالصحة لينظر هل سيشكر صاحبها نعمة الله (عز وجل) عليه ويجعلها في خدمة الضعيف ، والشيخ الكبير ، وذوي الاحتياجات الخاصة ؟ أم يفتري بصحته وقوته على خلق الله ؟ وقد يكون الابتلاء بالمرض لينظر هل سيصبر صاحبه على ما أصابه أم لا ؟ فمن صبر ورضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط .

وقد يكون الابتلاء بالولد أو بالحرمان منه ، يقول سبحانه: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشورى: ٤٩ ، ٥٠] ، فمن ابتُلي بالولد ينظر هل سيشكر هذه النعمة، بحسن تربية أبنائه وتعهدهم ، والوفاء بحقهم ، والإنفاق عليهم ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ ، أَوْ بِنْتَانِ أَوْ أُخْتَانِ ، اتَّقَى اللهَ فِيهِنَّ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ أَوْ يَمُتْنَ ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ) (مسند أحمد)، أم أنه سيضيع الأمانة ؟ والنبي (صلى الله

عليه وسلم) يقول: (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ) (السنن الكبرى للنسائي)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ) (صحيح ابن حبان) .

وقد يكون الابتلاء بعدم الولد لينظر هل سيرضى الإنسان ويقنع ويرضى بقضاء الله وقدره أو سيجزع ويسخط ، وهكذا الشأن في الحال كله ما بين ابتلاء بالخير وابتلاء بالشر ؛ حتى يميز الكاذب من الصادق ، والخبيث من الطيب ، والشقي من السعيد ، قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٢ ، ٣] .

ومما ينبغي علينا أن ندركه أن ابتلاء الله (عز وجل) لا يخلو من حكمة عَلِمَها من علمها ، وجهلها من جهلها ، فالحق (سبحانه وتعالى) يدبر أمر عباده بما فيه صلاحهم ؛ لأنه سبحانه يعلم ما يُصلح العبد أكثر من علم العبد بما يُصلح نفسه ، يقول ربنا سبحانه: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٢١٦] ، وقال الحسن البصري (رحمه الله) : "لا تكرهوا البلايا الواقعة ، والنقمات الحادثة ، فَلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ، ولَرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك" . والواقع والتجربة يؤيدان ذلك فقد يسعى

الإنسان لتحصيل أمر فيه هلاكه ، وقد يفر من أمر فيه نجاته ، ولله در القائل:

ربّ أمـــرٍ تتقيـــــهِ   جَـرّ أمـرًا تَـرتَجيـهِ
خَفيَ المَحبُوبُ منهُ   و بـدا المكـروهُ فيهِ
فاتركِ الدهـرَ وسلمـ   ـهُ إلى عَـدلٍ يَليـهِ

ولقد ضرب لنا أنبياء الله ورسله (عليهم الصلاة والسلام) المثل الأعلى في تحمل أشد ألوان الابتلاء ، فها هو نبيٌّ الله إبراهيم (عليه السلام) يمتحن في ولده إسماعيل (عليه السلام) الذي رزقه الله إياه بعد ما بلغ من الكبر عتيًّا فيؤمر بذبحه ، وهذا ابتلاء من أشد أنواع الابتلاءات كما بين القرآن الكريم ، قال تعالى مبينًّا حال سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل (عليهما السلام) وهما يمتثلان أمر الله (عز وجل) ، في رضًا تامٍ ، واستسلامٍ كاملٍ: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}[الصافات: ١٠٣ – ١٠٦] .

وهذا نبي الله أيوب (عليه السلام) يبتلى في جسده ، وفي ماله ، وولده فما كان منه إلا الرضا بقضاء الله (عز وجل) حتى فرّج الله عنه واستجاب لدعائه ، فأثنى عليه ربه قائلًا: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص: ٤٤] ، ولله در القائل:

يا صاحب الهم إن الهــم منفـرج   أبشـر بخيـر فـإن الفـارج الله
اليأس يقطـع أحيانـا بصاحبـه   لا تيأسـن فـإن الكافـي الله

الله يحدث بعـــد العسر ميســـرة	لا تجزعـــن فـــإن القاســـم الله
إذا بليـــت فثق بالله وارضَ بـــه	إن الذي يكشف البلوى هـو الله
والله مالـك غيـر الله مـــن أحـد	فحسبـك الله فـي كلٍ لـك الله

وهذا نبي الله سليمان (عليه السلام) كان أشهر من ابتلي بالنعمة، يقول سبحانه عن هبته لعبده ونبيه سليمان (عليه السلام) : {فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ *وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[سورة ص: ٣٦ – ٤٠] ، وكان سيدنا سليمان (عليه السلام) يدرك أن ما هو فيه ابتلاء واختبار من الله (عز وجل) ، فكان ينسب الفضل في ذلك كله لله (تعالى) ، وكان دائم الشكر لربه ، قال تعالى حكاية عنه بعد ما رأى عرش ملكة سبأ مستقرًا عنده: {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[النمل: ٤٠] .

ولا زالت سنة الله (عز وجل) ماضية لتؤكد أن العبد كلما ارتفعت منزلته عندَ ربه (عز وجل) ازداد ابتلاء الله (عز وجل) له؛ لذا كان أنبياء الله ورسله (عليهم السلام) وهم أكمل الناس إيمانًا وأعلاهم منزلة عند الله (عز وجل) أكثرهم ابتلاءً ، وعندما سُئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ ، قَالَ: (الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ) (سنن الترمذي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن المؤمن الحقيقي هو من يشكر في الخير والسراء ، ويصبر في البأس والضراء ، فبالشكر والصبر ينجح العبد في كل الاختبارات ، وتصبح حياته كلها خيرًا في كل أحوالها ، وفي هذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) (صحيح مسلم) .

يقول سيدنا علي (رضي الله عنه): "إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد" (شعب الإيمان للبيهقي) . ويقول الحسن البصري (رحمه الله): "إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها زالت" ؛ ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ الجالب؛ لأنه يحفظ النعم الموجودة ، ويجلب النعم المفقودة .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ ، وَأَقْرَعَ ، وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ اللهُ (عز وجل) أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الْأَبْرَصَ ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ،

وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْإِبِلُ – أَوْ قَالَ الْبَقَرُ– إلا أَنَّ الْأَبْرَصَ ، أَوِ الْأَقْرَعَ ، قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا ، قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْبَقَرُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا ، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا ، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا ، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إلا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ، وَالْمَالَ بَعِيرًا ، أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا ، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ

وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إلا بِاللهِ ، ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي ، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، وَدَعْ مَا شِئْتَ ، فَوَ اللهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ) (متفق عليه) .

اللهم اهدنا واهدِ بنا واجعلنا سبباً لمن اهتدى ، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

*　　*　　*

الصدق وأثره في صلاح الفرد والمجتمع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[التوبة: ١١٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، القائل: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن من القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها ديننا الحنيف ورغَّبَ فيها ، وحثَّ على التخلق بها خُلق الصدق ، فالصدق عمود الدين ، وأصل الأدب ، وعنوان المروءة ، وواحد من أهم موازين الاستقامة والاعتدال في حياة الأفراد والمجتمعات ، حتى عرَّف بعض العلماء الإيمان الحقيقي بالصدق واعتبروه من أهم علامات الإيمان والثقة في الله (عز وجل) ، فقالوا: الإيمان هو أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك ، وألا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك، ليقينك أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . وقالوا –أيضًا–: "تَحَرَّوُا الصِّدْقَ وإِنْ رَأَيْتُمْ أنَّ فِيهِ الهَلَكَةَ ، فإِنَّ فيهِ النَّجاةَ، واجْتَنِبُوا الكَذِبَ وإِنْ رَأَيْتُمْ أنَّ فِيهِ النَّجاةَ ، فإنَّ فِيهِ الهَلَكَةَ" (مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا).

والمتدبر لكتاب الله (عز وجل) يرى أن القرآن الكريم قد جعل الصدق والإيمان متلازمين ، فلا يتحقق إيمان العبد إلا بالصدق ، فالإيمان أساسه الصّدق ، والنّفاق أساسه الكذب ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ} [الحديد: ١٩] ، وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ فَقَالَ: نَعَمْ ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا ؟ فَقَالَ: لَا) (شعب الإيمان للبيهقي) .

وليس هناك أدل على شرف الصدق ، وفضله ، ومكانته من أن يصف الله (عز وجل) نفسه به ، حيث يقول سبحانه: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ} [آل عمران: ٩٥] ، ويقول جل شأنه: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢] ، ويقول تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧] .

والصدق هو صفة الأنبياء والمرسلين ، فقد وصف الله تعالى به خليله إبراهيم (عليه السلام}فقال: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: ٤١] ، وقال سبحانه في شأن نبيه إسماعيل (عليه السلام): {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [مريم: ٥٤] ، وفي شأن نبيه إدريس (عليه السلام) قال سبحانه: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: ٥٦] ، وقال (عز وجل) في وصف يحيى (عليه السلام): {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: ٣٩] ، وفي معرض التزكية لسيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول سبحانه مادحًا صدقه (صلى الله عليه وسلم): {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٤] .

ولقد أمر الله (عز وجل) عباده المؤمنين بالصدق ، فقال سبحانه: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] ، وأخبر جل شأنه أن أهل الصدق من عباده في صحبة المُنعم عليهم من النّبيّين والشّهداء والصّالحين ، فقال سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} [النساء: ٦٩] ، فهم أهل المكانة الأسمى ، والرّفيق الأعلى ، وَحَسُن أولئك رفيقًا .

إن المسلم الحقيقي هو من يدرك أن الكلمة أمانة فيتحرى الصدق في أقواله وأفعاله وأحواله ، ويتخذ من حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) أسوة وقدوة له ، فقد عاش النبي (صلى الله عليه وسلم) حياته قبل البعثة وبعدها أنموذجًا للإنسان الكامل الذي يريده الله (عز وجل) ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يُلقب بين قومه بالصادق الأمين ، حتى إنه (صلى الله عليه وسلم) اتخذ من الصدق مدخلًا ليكون بداية لإعلان رسالته للناس ، فعندما نزل قول الله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] صَعدَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ ، يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ ، حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: (أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟) قَالُوا: نَعَمْ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا ، قَالَ: (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (متفق عليه) .

ولقد رغَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) في الصدق بمرغبات عديدة تعملُ على تربية النفوس وتقويمها ، وإصلاح أمرها في الدنيا والآخرة ، حيث أخبر (صلى الله عليه وسلم) أن الصدق يجلب البركة وراحة البال في الدنيا ، فعن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم): (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا) (متفق عليه) ، وعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا يَضُرُّكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، صِدْقُ حَدِيثٍ ، وَحِفْظُ أَمَانَةٍ ، وَحسن خَلِيقَة ، وعفة طعمة) (مسند أحمد) .

كما أخبر (صلى الله عليه وسلم) أن الصدق طريق لدخول الجنة، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أن رجلا جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله ما عملُ الجنة ؟ ، قال: (الصِّدْق ، وإذَا صَدَق العَبدُ برَّ ، وإذا برَّ آمَنَ ، وإذا آمَنَ دخل الجنة) (مسند أحمد) ، وعن عبادة بن الصّامت (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (صلّى الله عليه وسلم) قال: (اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) (مسند أحمد) .

وكما رغب النبي (صلى الله عليه وسلم) في الصدق ، وبيّن لنا فضائله ، حذّر من الكذب ووضح لنا خطورته ، حيث يقول (صلى الله

عليه وسلم): (آية الْمُنَافِقِ ثَلَاثَ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (متفق عليه) ، فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الكذب علامة من علامات النفاق وأمارة من أماراته ، فحريٌ بالمسلم الحقيقي أن يضبط لسانه ، وأن يتحرى الصدق فيما يقول وفيما يكتب ، لأن الكلمة أمانة ومسئولية عظيمة ، سواء أكانت مقروءة ، أم مسموعة ، أم مرئية ، فلا ينبغي للعاقل أن يردد كل ما يسمع دون تثبت أو علم ، فليس كل ما يُقال يُصدق ، وليس كل ما يُسمع يُقال ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦] ، ويقول سبحانه: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: ١٨] ، ويقول تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: ٣٦] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) (صحيح مسلم) .

ولما كانت الكلمة أمانة ، ولها تأثيرها في حياة الأفراد والمجتمعات جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) الكلمة الطيبة دليلًا على إيمان صاحبها حيث قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) (متفق عليه) ، وفي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) بعد

أن بين له النبيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فرائضَ الإسلام ، وأبوابَ الخير ، قال له: (وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ) ، قَالَ معاذ: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ: (أَمَّا رَأْسُ الْأَمْرِ فَالْإِسْلَامُ ، وَأَمَّا عَمُودُهُ فَالصَّلَاةُ ، وَأَمَّا ذِرْوَةُ سَنَامِهِ فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ) ، فقَالَ: مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: (فَأَهْوَى بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ) ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّا لَنُؤَاخَذُ بِمَا نَقُولُ بِأَلْسِنَتِنَا ؟ قَالَ: (ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، هَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟) (سنن الترمذي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن للصدق أثارًا طيبة ، وثمرات يانعة ، يجنيها من لازمه وتخلق به ، وحرص عليه ، أهمها توفيق الله (عز وجل) وتأييده لأهل الصدق ، فهذا سيدنا عمير بن سعد بن الأنصاري (رضي الله عنه) يحمله حبه للنبي (صلى الله عليه وسلم) وغيرته على الإسلام أن يذهب للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبره بما كان من زوج والدته الجُلاس بن سويد عندما ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) بسوء ، فبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الجلاسِ فحلف الجلاسُ أنه ما قال ، وكذَّب عُميرًا ، فأنزل

الله (عز وجل) الوحي على نبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [التوبة: ٧٤] ، فاعترف الجلاس وقال: بل أتوب يا رسول الله ، بل أتوب ، فأقبل النبي (صلى الله عليه وسلم) على عمير ، ومد يده الشريفة إلى أذنه ، ثم قال: وفَّت أُذُنكَ ما سَمِعَت ، وصدّقكَ ربُك) (مصنف عبدالرزاق) .

والإنسان الصادق سليم النفس ، نقي الفطرة ، قريب من الناس ، يألف ويؤلف ، لا يغش في تجارةٍ ، ولا يُخادع في معاملةٍ ، يأتمنه الناس ويثقون به ، فالصدق يورث صاحبه الأمان النفسي ، والرضا القلبي ، والسعادة المجتمعية ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ) (سنن الترمذي) ، وقال عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه): من كانت له عند النّاس ثلاث وجبت له عليهم ثلاث ، من إذا حدّثهم صَدَقهم ، وإذا ائتمنوه لم يخنهم ، وإذا وعدهم وفّى لهم ، وجب له عليهم أن تحبّه قلوبهم ، وتنطق بالثّناء عليه ألسنتهم ، وتظهر له معونتهم" . (الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح) .

وقيل للقمان الحكيم: "ألست عبد بني فلان ؟ قال: بلى . فقيل له: فما بلغ بك ما نرى ؟ قال: تقوى الله (عزّ وجلّ) ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة" . (الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح) .

كما أن الصدق سبب في انتشار المحبّة بين أبناء المجتمع الواحد ، مما يؤدي إلى تماسكه وترابطه ، فبالصدق تحفظ الدماء والأموال وتصان الأعراض وتستقر الحياة ، ولنا أن نتخيل مجتمعًا قد حُرم من تلك القيمة النبيلة والخلق الفضيل كيف لأفراده أن يجدوا الاستقرار النفسي والأمان المجتمعي ؟ وكيف له أن يتقدم ، أو يبلغ درجات من الرقي والتحضر ؟ .

إن المجتمع الذي يخلو من ذلك الخلق النبيل يهوي إلى درك عظيم من الانحطاط الأخلاقي والسلوكي وذلك لرسوخ مبدأ الخيانة بين أفراده ؛ لأن الأمان والطمأنينة لا يقوما إلا على أساس صدق الكلمة.

على أننا نؤكد أن الصدق أنواع: فالصدق في الأقوال يكون بحفظ اللسان عما حرم الله تعالى قوله ؛ من الكذب والنطق بالزور ، وشهادته ، وعن كل ما يخالف الحقيقة ، والصدق في الأفعال يكون بامتثال الأمر واجتناب النهي ، وتحرى الحلال والحرام ظاهرًا وباطنًا ، والصدق في الأحوال يكون بإخلاص القلب والجوارح وصدق النية في القول والفعل لله (عزّ وجلّ) .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين .

*   *   *

البرُّ بالأوطان من شمائل الإيمان

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ} [البقرة: ١٢٦] ، وأَشهدُ ألا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن حبَّ الأوطان والحفاظ عليها فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف وجعلها من شمائل الإيمان ودلائله ، فهذا نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يقول مخاطبًا مكة المكرمة: (والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله ، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله ، وَلَوْلاَ أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ؛ ما خَرَجْتُ) (سنن الترمذي) ، ولما هاجر (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينس (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) وطنه الذي نشأ فيه ، ولا وطنه الذي استقر فيه ، وقد قال: (اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا ، وَصَحِّحْهَا لَنَا ، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ) (متفق عليه) ، فدعاء النبيِّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لنفسه ولأصحابه بحب المدينة ، والدعاء بإصلاح هوائها ، والمباركة في مدّها وصاعها ، يعلمنا كيف يكون حبُّ الإنسان لوطنه ، وبره به .

وعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ الله عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا) (صحيح البخاري) ، وعندما عدد الحافظ الذهبيُّ

طائفةً من محبوبات النبيِّ (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم)) قال: "وكان يحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أَبَاهَا ، ويحبُّ أسامةَ ، ويحب سبطَيْه ، ويحب الحلواء والعسل ، ويحب جبل أُحُدٍ ، ويحب وطنه ، . . . " (سير أعلام النبلاء) ، وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعي: سمعتُ أعرابيًّا يقول: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ تَحَنُّنُهُ إِلَى أَوْطَانِهِ ، وَتَشَوُّقُهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ، وَبُكَاؤُهُ عَلَى مَا قَضَى مِنْ زَمَانِهِ . (المجالسة وجواهر العلم للدينوري)

والمتأمل في جوهر الرسالات السماوية ، يجد أن جميعَها دعت إلى حبِّ الأوطان والدفاع عنها ، وجعلت ذلك فريضةً دينيةً ، ولم يكن النبيّ (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) بِدْعًا من الرسل في حبه لوطنه ، فهذا سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو لوطنه قائلا: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥] ، وهذا نبي الله موسى (عليه السلام) حينما قضى الأجل الذي كان بينه وبين الرجل الصالح في مدين توجه تلقاء مصر من شدة شوقه ومحبته لوطنه الذي ولد فيه وتربى على أرضه .

ومما لا شك فيه أنه لا يوجد إنسان عاقلٌ ولا وطنيٌّ شريفٌ ولا مؤمنٌ صادقٌ إلاّ وهو على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، فإن حفظ الوطن من الكليات الست التي أقرتها الشريعة الإسلامية ودعت إليها ، وهو واجب الوقت الذي ينبغي أن يقوم به كل إنسان ، كلٌ في مجاله وميدانه ، ولا سيما في زماننا هذا ؛ حيثُ تتعرض أوطاننا للاستهدافِ ومحاولات الهدم ، والعبث بأمنها واستقرارها ، من قِبل جماعات متطرفة حاولت أن تُهوِّن من شأن الوطن وأن تضع الناس في تقابلية خاطئة بين الدين والوطن ، مع أن الدين لابد له من وطن يحمله ويحميه ، وقد قرر

الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين كان الدفاعُ عنه فرض عينٍ على أهله جميعًا ، ولو فنوا عن آخرهم في سبيل الدفاع عنه ، ولو لم يكن الدفاع عن الأوطان من صميم مقاصد الأديان لكان لهم أن ينجوا بأنفسهم ودينهم ، وهو ما لم يقل به أحد من أهل العلم ، فحماية الأوطان والحفاظ عليها والبر بها والعمل على رقيها وتقدمها من صميم مقاصد الأديان ، لأن الدفاع عن الوطن هو دفاع عن العرض والأرض والكرامة والدين والوطن جميعًا .

ولقد ضرب لنا النبي (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) أروع الأمثلة في حماية الوطن ، والدفاع عنه ، والحفاظ على أمنه واستقراره ، سواء من خلال تصرفاته الفردية (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) ، أم من خلال قراراته ومعاهداته كقائد للأمة ، أم من خلال تربيته لأصحابه على قيمة حب الوطن والدفاع عنه ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ المَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) – قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ – وَهُوَ يَقُولُ: (لَنْ تُرَاعُوا ، لَنْ تُرَاعُوا ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا ، أَوْ: إِنَّهُ لَبَحْرٌ) (متفق عليه) ، ولقد كانت وثيقة المدينة التي أبرمها النبي (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) مع جميع الطوائف التي تسكن بها من أول قراراته (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم) حينما قدم إلى المدينة ، وكان الهدف منها الدفاع عن المدينة وحمايتها والحفاظ على أمنها واستقرارها ، وربَّى النبيُّ (صَلَّىَ اللهُ عَليْهِ وسلم)

أصحابه على أن التضحية بالنفس والمال دفاعًا عن الأوطان وحرماتها ومقدساتها من صميم الجهاد في سبيل الله ؛ ولا أدل على ذلك من أن الله (عز وجل) قد أعلى من شأن من بذلوا أرواحهم دفاعًا عن دينهم وأوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة: ١١١] ، ولله در أمير الشعراء شوقي وهو يجسد حقيقة البر بالأوطان فيقول:

بِـــلادٌ ماتَ فِتيَتُهـــا لِتَحيـــا ... وَزالوا دونَ قَومِهِـــمُ لِيَبــقُــوا

وَقَفتُـــمْ بَيــنَ مَــوتٍ أَو حَيــاةٍ ... فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقُـوا

وَلِلأَوطــانِ فـــي دَمِ كُــلِّ حُرٍّ ... يَدٌ سَلَفَــت وَدَيـــنٌ مُستَحِـقُّ

وَمَن يَسقــى وَيَشـرَبُ بِالمَنايا ... إِذا الأَحرارُ لَم يُسقـوا وَيَسـقوا

وَلا يَبـني المَمالِكَ كَالضَحايـا ... وَلا يُدني الحُقُــوقَ وَلا يُحِـقُّ

فَفي القَتلـى لِأَجيـالٍ حَيــاةٌ ... وَفي الأَسرى فِدًى لَهُمُ وَعِتقُ

وَلِلحُرِّيَّـــةِ الحَمـــراءِ بــابٌ ... بِكُــلِّ يَــدٍ مُضَـرَّجَـــةٍ يُــدَقُّ

ومن صور البر بالأوطان: **الاتحاد وعدم شق الصف** ، والحرص على المصلحة العامة ، وتقديمها على المصلحة الخاصة ، فواجبنا جميعًا تجاه وطننا ووجوب البر به يقتضي توحيد الجهود ، ونبذ الخلافات ، فنحن أمام قضية تهدد وجودنا ، فيجب علينا تجاوز أي خلاف ، فليس أمامنا سبيل سوى أن نكون على قلب رجل واحد ، امتثالًا لقول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران١٠٣] ، وقوله جلَّ شأنُه: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦] ، وقوله تعالى: {وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣] ، ويقول نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا ، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ) (صحيح مسلم) .

إن وحدة الأمة واعتصامها بدينها ، والحفاظ على ثقافتها وهويتها ، هو سرّ بقائها ، ودعامة قوتها ، والسبيل إلى نهضتها ، ولقد ضرب النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مثلًا للأمة في تماسكها وتآزرها فقال: (مثل المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، كَمَثَلِ الجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى) (متفق عليه) .

وعندما أراد أحد الشيوخ أن يعلِّم أبناءه أهمية الوحدة وأنها سبب القوة ، وخطورة الفرقة وأنها سبب الشتات والضياع ، جاء بحزمة من الحطب وقال: من يستطيع منكم أن يكسر هذه الحزمة بضربة واحدة أو بضربتين ، فحاول كل واحد منهم فلم يفلح ، ففك حزمة الحطب ووزعها على أبنائه ، وأعطى كل واحد منهم عودًا فكسره بضربة واحدة ، فقال:

تَأْبَىَ الرِّماحُ إذَا اجْتَمَعْنَّ تكسُّرًا وَإِذَا افْتَرَقْنّ تَكَسّرتْ آحَادَا

إنَّ أمة ربها واحد ، ودينها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، وقبلتها واحدة ، ولغتها واحدة ، ينبغي أن تكون يدًا واحدة ، قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} ، وقال النبي (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (يَدُ اللَّهِ مَعَ الجَمَاعَةِ) (سنن الترمذي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من صور البر بالأوطان **حمايتها من الدعوات المشبوهة والهدامة** ويكون ذلك ببناء جسور الثقة بين أبنائها ، وعدم الانصياع للشائعات ووأدها في مهدها ، وحسن الظن بالناس ، بحيث لا نترك بيننا فرصة لخائنٍ ، أو عميلٍ ، أو مأجورٍ على حساب الوطن ، فالجميع تحت لواء واحد هو لواء الوطن الذي تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة ؛ لذا يقول نبينا (صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً ، فَقُتِلَ ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي ، يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا ، وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ) (صحيح مسلم) .

وكذلك من صور البر بالأوطان: **العمل على إعمارها ورفعتها وتقدمها بالجد** والاجتهاد ، على أننا نؤكد أن ذلك لن يتحقق إلا بتقديم يد العون المخلصة ، وتقديم الكفاءات والمتخصصين في كل المجالات ، كل بما يحسن ويتقن ، وأن ندرك جميعًا حجم المخاطر التي تحاصرنا من كل جهة ، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة على مواصلة مسيرة البناء والتعمير ، ولنعلم أنه حيث تكون المصلحة ، ويكون البناء

والتعمير والعمل والإنتاج ، وسعادة الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم ، فثمة شرع الله ، وهذا هُو الدينُ الحق ، وكل ما يدعو للفساد والإفساد ، والتخريب والقتل، والدمار ، فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب ، فديننا فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، وديننا دين البناء والتعمير لا الإفساد ولا التخريب .

وعلينا أن ندرك أن أعداءنا لا يكلّون ولا يملّون من تدبير المؤامرات ، ومحاولة الإيقاع بنا في شرك الفتن والتفرق والعصبية المذمومة ، وهم يراهنون على تغييب الوعي ، ويلبسون الحق بالباطل ، ولكن هيهات ، فنحن بوعينا ووحدتنا وإبصارنا الحق ، قادرون بحول الله وقوته أن نحمي أنفسنا ومواطنينا ووطننا من كل ذلك ، فنحن نبغي الحق والحق أحق أن يتبع ، ونحن نريد الصلاح والطيب الذي ينفع البلاد والعباد ، والله عز وجل يقول: {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف: ٥٨] .

اللهم اهدنا واهدي بنا واجعلنا سبباً لمن اهتدي ، اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

* * *

عوامل بناء الدول

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، القَائِل في حديثه الشريف: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ) (مسند أحمد) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن من مبادئ الإسلام الأصيلة ، وتعاليمه الجليلة حب الوطن ، والدفاع عنه ، والعمل على تقدمه وازدهاره ، والشرَفُ كل الشرفِ في شعور الإنسان بانتمائه الحقيقي لوطنه ، والسعي الجاد لبنائه ، والعمل على رقيِّه ورفعته ، فكل الأمم التي تقدمت علميًّا وحضاريًّا يقف وراءها رجال مخلصون امتلأت قلوبهم بحب أوطانهم ، فشمروا عن ساعد الجد بالعمل المثمر العائد بالنفع على العباد والبلاد ، ومصرنا الغالية تستحق من أبنائها ذلك وأكثر ، فهي القلب النابض للعروبة والإسلام ، وهي درع الأمة وسيفها ، وحصنها الحصين في مواجهة الإرهاب والتحديات ، ومن ثمَّ فإن الدفاعَ عنها ، والعملَ في سبيل نهضتها ورقيها ، إنما هو واجب ديني ووطني ، فهي مهد الحضارات ، وموطن الرسالات ، وهي البلد التي اقترن ذكرها في القرآن الكريم بالأمن والأمان ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩] .

ولله در صلاح الدينِ الصفدي حين قال:

من شاهد الأرض وأقطارها — والنـاس أنواعًـا وأجناسـا
ولا رأى مصـــر ولا أهلهـــا — فمـا رأى الدنيـا ولا الناسـا

ولا شك في أن التقدم والبناء والتفوق يضمن للأمة العزة والكرامة واحترام الناس ، غير أن بناء الدول لا يكون بمجرد الكلام ولا الأحلام ولا الأماني ، بل لابد من جهد وعرق وبذل وتضحية وأخذٍ بمقومات البناء وأسباب التقدم والحضارة ، ومن أهم هذه الأسباب:

الوعي بالتحديات ، فإنَّ الوعيَ بقيمةِ الوطن ، وبالتحديات التي يُواجهها ، وبالمخاطر التي تحيطُ به ، أمرٌ يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا لأننا دون إدراك هذه التحديات ودون الوعي بها لا يمكن أن نضع حلولًا ناجحة أو ناجعة لها .

ومما لا شك فيه أن قضية الوعي بقيمة الوطن ، وبمشروعية الدولة الوطنية ، وضرورة دعم صمودها ، والعمل على رقيها وتقدمها ، أحد أهم المرتكزات لبناء الدولة القوية ، وأحد أهم دعائم الولاءِ والانتماءِ للوطن والحفاظ على مقدراته وكل ذرة من ثراه النّدِي .

كما أن الوعي بأهمية الوطن يقتضي أن نصحح المفاهيم الخاطئة التي حاولت الجماعات الإرهابية والمتطرفة ترسيخها في الأذهان ، حيث عملت وبنت فلسفتها على محاولات إحداث القطيعة وفقدان الثقة بين سائر الشعوب وحكامها والمسئولين فيها ، مع أن تعاليم الأديان تدعونا إلى إكرام الحاكم العادل ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ ، وَلَا الْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)

(سنن أبي داود) ، وجعل الحق سبحانه الحاكم العادل يوم القيامة في السبعة الذين يظلهم سبحانه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ ، . . . .) ثم ذكر في مقدمتهم: الإمام العادل (متفق عليه) .

ومن أهم أسس وعوامل بناء الوطن: **التضحية في سبيله** ، فالوطنية الحقيقية ليست مجرد شعارات ترفع ، أو عبارات تردد ، الوطنية نظام حياة وإحساس بنبض الوطن وبالتحديات التي تواجهه ، والتألم لآلامه ، والفرح بتحقق آماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله .

والدفاع عن الوطن وحمايته والتضحية من أجله مطلب شرعيٌ ، وواجبٌ وطنيٌ على كل من يعيش على أرضه ، ويستظل بسمائه ؛ فحب الوطن لا يتوقف عند مجرد المشاعر والعواطف فحسب ، بل يجب أن يترجم إلى عمل وسلوك صالح نافع للفرد والمجتمع ، ومن ثمَّ فلابد من التضحية لأجل بقائه قويًّا عزيزًا ، فالانتماء للوطن يوجب على أبنائه أن يعتزوا به ، وأن يتكاتفوا جميعًا للحفاظ عليه ، لأن استقرار الأوطان ضرورة لتحقيق غاية الله من الخلق في إعمار الكون ، ورفعة الدين ، وإقامة شعائره ، وما شرع الجهاد في الإسلام إلا دفاعًا عن الأوطان وردًّا للظلم والعدوان ؛ لذا فقد أعلى الله (عز وجل) شأن من يبذلون أرواحهم في سبيل الله دفاعًا عن أوطانهم ، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ} [التوبة:١١١] .

ومن أهم عوامل وأسس بناء الدول والحضارات: **العمل الجاد والإتقان** ، ولقد أعلى الإسلام من قيمة العمل وجعله بابًا من أبواب

العبادة ، بل جعله من أعلى مراتب العبادة ؛ حيث وصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه جهاد في سبيل الله ، فعن كعب بن عجرة (رضي الله عنه) ، أن رجلًا مرّ على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فرأى الصحابة (رضي الله عنهم) من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا: يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ؟! فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وتَفَاخُرًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير للطبراني) .

فالدين والوطنية معًا يتطلبان منا الجهد والعرق والعمل والإنتاج ، ولا سيما أن ديننا هو دين العمل والإتقان ، يقول الله عز وجل: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢] ، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: ٩- ١١] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم)): (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري) .

على أننا نؤكد أن ديننا الإسلامي لم يطلب منا مجرد العمل إنما طلب منا العمل الجاد المتقن ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّا لا نُضِيعُ

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا} (الكهف: ٣٠) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه) (مسند أبي يعلى) .

ومن عوامل بناء الدول والحضارات : **العلم** ، **والإدارة الجيدة** ، فالبناء يحتاج إلى علم وخبرة ودربة وتخصص ، وليس مجرد هواية ، وعندما ننظر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نجد أنهما يؤكدان على ضرورة توفر الكفاءة والكفاية والأمانة، قال تعالى على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام): {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥] ، وقال جل شأنه على لسان ابنة شعيب في شأن سيدنا موسى (عليه السلام) : {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦] .

ولقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من تولية غير الأكفاء ، وأخبر أن ذلك علامة من علامات الساعة فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ) (صحيح البخاري) ، وأهل الأمر في كل مجال: هم أهل الكفاءة والأمانة معًا .

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يوظف أصحابه وعماله حسب العلم والكفاءة والقدرة على القيام بالمسئولية ، ولا يولي أحدًا مجاملة ، أو بسبب قرابة ، أو محبة ، فعن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: قلت: يا رسول الله ، ألا تستعملني ؟ قال: فضرب بيده على منكبي ، ثم قال: (يَا أَبَا ذَرٍّ ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا) (صحيح مسلم) ، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) لعَبْدِ الرَّحْمَنِ بن سَمُرَةَ : (يا عبد الرحمن: لاَ

تَسْأَلِ الإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا) (متفق عليه) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلامِ:

إن من اهم عوامل وركائز بناء الدول **إعلاء القيم الأخلاقية والسلوكية** ، فالأمم والحضارات التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وعوامل قيامها ، ولله در القائل:

وَإِذَا أُصِيبَ القومُ فِي أَخْلاَقِهِمْ فَـأَقِـمْ عليهِـمْ مَأتَمًـا وَعَـوِيلًا

وقول الآخر:

وإنما الأمـم الأخـلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إنَّ للأخلاق في الإسلام منزلة عالية ، فبها يرتقِي المسلمُ في درجاتِ الإيمانِ ، وتثقل موازينه يوم العرض على الواحد الديان ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ في مِيزَانِ العبدِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ ، وَإِنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ) (سنن أبي داود) ، ولما سُئل (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ ؟ قَالَ: (تَقْوَى اللهِ ، وَحُسنُ الخُلُقِ) (سنن الترمذي) .

وجعل (صلى الله عليه وسلم) حسن الخلق معيار كمال الإيمان أو نقصانه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أَكْمَلُ المُؤمنينَ إيمَانًا أحسَنُهُمْ

خُلُقًا . . .) (سنن أبي داود) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) (سنن الترمذي) .

فحسن الخلق يحمل صاحبه على الخِلال الحميدة كالرَّحمة ، وحبِّ الخير للغير ، والسَّعي لنفع النَّاس ، وتحقيق النفع العام للبلاد والعباد بعيدًا عن الأنانية وحب الذات ، فديننا الحنيف قائم على الإيثار وحب العطاء ، لا على الأثرة والشح والأنانية .

ومن أسس بناء الدول والحضارات: **العدل** ، فالدول تبنى بالعدل الذي يسوي بين الناس جميعًا في الحقوق والواجبات ، دون تمييز لأحدٍ على أحدٍ ، وهو أمر الله (عز وجل) في كتابه الكريم ، حيث يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل: ٧٠] ، وقد قالوا : إن الله (عز وجل) ينصر الدولة العادلة ، ولو كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة ، ولو كانت مسلمة ؛ لأنها لو كانت مسلمة حقًا لما رضيت بالظلم ، أو قامت عليه ، ولذا قالوا أيضًا : إن الدول قد تدوم مع الكفر والعدل ، ولا تدوم مع الإسلام والظلم ؛ لأن تدينها حينئذ سيكون تدينًا شكليًّا ، لا يعي مفهوم الإسلام ، ولا مضامينه السامية القائمة على الحق والعدل ، ورفض الظلم والبغي ، بكل ألوانهما وأشكالهما .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

النفع العام في ميزان الشرع الشريف

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم : {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فإن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح البلاد والعباد ، والسُّمُوّ بالنفس البشرية ، والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات ، فكل ما يحقق النفع العام للناس يكون موافقا للشرع وإن لم يرد فيه نص صريح، وكل ما يصطدم مع مصالح الناس ومنافعهم فلا أصل له في الشرع الشريف .

إن الدين الإسلامي الحنيف لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية، ولا ينادي بتغليب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وإنما يدعو إلى النفع العام، والعطاء الصادق، وينادي بالتعاون على البرّ والتقوى في إطار من المحبة والإيثار، حتى يحقق المجتمع الرقي المنشود، والتكافل المحمود، ويكون سعي الفرد فيه من أجل المجموع ، فيتحقق الخير للفرد والمجموع معًا ، ويتعمق في قلوب أبناء الوطن إحساس الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ولله در شوقي حيث قال:

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا	وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقوا

ولا شك أن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يدرك يقينًا أن المقصد العام والكلي من تشريع الأحكام للناس هو تحقيق مصالحهم بجلب النفع والخير لهم، ودفع الضر والشر عنهم، فلقد أكد القرآن الكريم أن الحفاظ على المصلحة وتحقيق النفع العام هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا ، فما أرسل الله (عز وجل) نبيًّا ولا رسولًا إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون انتظار لمقابل أو منفعة دنيوية ، قال تعالى على لسان نبيه نوح (عليه السلام) : {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ}، وقال سبحانه على لسان نبيه هود (عليه السلام): {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، وهذا خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) يتضرع إلى ربه (عز وجل) بدعاء يبين مدى حرصه على نفع الناس ودوام الخير لهم قائلًا:{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فمن المعلوم أن المقصود من البلد هنا أهلها، كما دعا لهم بالرزق الذي يغنيهم عن غيرهم ، لأن البلد إذا كان آمنا ، ومطالب الناس الحياتية متوفرة فيه ، ساعد ذلك أهله على طاعة الله بنفوس مستقرة، وقلوب مطمئنة، تسعى لتحقيق مراد الله (عز وجل) من الخلق بعمارة الأرض وإصلاحها، حيث يقول سبحانه: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} ، ويقول جل شأنه : {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}.

ولقد جاءت الشريعة المحمدية لتُعلي من شأن هذا المبدأ الإنساني والإصلاحي القويم ، ولتُرسي قواعد الحفاظ على استقرار المجتمع والعمل على رقيه وتقدمه من خلال تقديم الأعم نفعًا على الأخص،

وترتيب الأولويات حتى تنتظم الحياة وتستقر ، والسيرة النبوية المطهرة ، وحياة الصحابة الكرام زاخرة بالمواقف العظيمة التي تدل على ذلك:

فعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت : (لَوْ شِئْنَا أَنْ نَشْبَعَ شَبِعْنَا ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ)، فكان (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُؤْثِرُ غيره علَى نفسِهِ وعلَى أهْلِ بيتِهِ معَ شدةِ حاجتِهِمْ ، وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ : فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ)، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) .

وفي الصحيحين عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: جَاءَتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِل ابْنَتَيْن لَهَا ، فَأَطعمتهَا ثَلاثَ تَمْرَاتٍ ، فَأَعطتْ كُلَّ وَاحدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرفعتْ إِلى فِيها تَمْرةً لتَأْكُلها، فَاسْتَطعَمَتها ابْنَتَاهَا، فَشَقَّت التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تأْكُلهَا بيْنهُمَا، فأَعْجبني شَأْنها، فَذَكرْتُ الَّذي صنعَتْ لرسولِ اللَّه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم) فَقَالَ : (إِنَّ اللَّه قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجنَّةَ، أَو أَعْتقَها بِهَا مَن النَّارِ) ، فإذا كان هذا جزاء من آثرت ابنتيها على نفسها فما بالكم بمن يؤثر الضعيف والمحتاج والمسكين ؟!.

وهذا هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في عام الرمادة وقد اشتد بالمسلمين الفقر والجوع فحضرت تجارته من الشام فإذا هي ألف بعير محملة بُرًّا وزيتًا وزبيبًا فجاءه تجار المدينة ، فقال لهم: ما تريدون؟ قالوا:

إنك لتعلم ما نريد ، بعنا هذا الذي وصل إليك ، فإنك تعلم ضرورة الناس إليه، قال: حبًّا وكرامة ، كم تربحونني على شرائي؟ قالوا: نزيدك الدرهم درهمين؟ فقال لهم: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا : أربعة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا، قالوا خمسة ، قال: أُعطيت زيادة على هذا، فقالوا له: يا أبا عمرو ما بقي في المدينة تجار غيرنا ، وما سبقنا إليك أحد، فمن ذا الذي أعطاك؟ فقال : إن الله أعطاني بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: لا ، قال: فإني أشهد الله أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين .

وحينما أشار النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصحابة بشراء بئر رومة وَكَانَت تحت يد رجل يهودي وكان يغالي في ثمن مائها ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلاَءِ الْمُسْلِمِينَ) فأتى عثمان (رضي الله عنه) اليهودي وساومه عليها ، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها باثني عشر ألف درهم ، فجعله للمسلمين ، وكان لسيدنا عثمان يوما ولليهودي يوم . فكان إذا جاء يَوْم عثمان استقى المسلمون مَا يكفيهم يومين. فلما رأى ذَلِكَ اليهودي قَالَ: أفسدت علي بئري، فاشترِ النصف الآخر، فاشتراه عثمان (رضي الله عنه) استجابة لأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاشتراها ؛ وحرصًا على المصلحة العامة للمسلمين .

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما ضاق المسجد الحرام على الناس، أجبر (رضي الله عنه) أصحاب البيوت المجاورة

للمسجد على بيع دورهم ، وقال لهم: "إنما أنتم الذين نزلتم على الكعبة، ولم تنزل الكعبة عليكم".

وكذلك فعل سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هذا الأمر مرة أخرى، وقال: "إنما جرأكم عليّ حلمي، فقد فعل عمر بكم ذلك فلم تتكلموا"، مما يدل على جواز نزع الملكية الفردية لمصلحة المرافق العامة كتوسيع الطرق والمقابر وإقامة المساجد وإنشاء الحصون ، والمؤسسات العامة كالمشافي والمدارس والملاجئ ونحوها؛ لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

كما أننا نؤكد على أن الفهم الصحيح للدين يقتضي أن من صور النفع العام التي حث عليها ديننا الحنيف، ورغب فيها مراعاة حال الناس وواقعهم ، وترتيب الأولويات تلبية لحاجات المجتمع الضرورية والملحة ، فإن كانت حاجة المجتمع إلى بناء المستشفيات وتجهيزها لعلاج الفقراء ورعايتهم فالأولوية لذلك، وإن كانت حاجة المجتمع لبناء المدارس والمعاهد وصيانتها وتجهيزها والإنفاق على طلاب العلم ورعايتهم فالأولوية لذلك ، وإن كانت الحاجة ماسة لتيسير زواج المعسرين وسدِّ الدَّين عن المدينين وتفريج كروب الغارمين فالأولوية لذلك .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة، فأمر عند المفاضلة بين عملين كلاهما خير بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية، ذلك أن المصلحة العامة نفعها مُتعدٍّ ، أما المصلحة الشخصية فنفعها لا يتجاوز صاحبها ، فلو أن رجلًا يعمل في مؤسسة ما ويتقاضى على عمله هذا أجرًا فيقضي ليله في الصلاة والقيام ، ثم إذا جاء النهار ذهب إلى عمله متعبًا مرهقًا ولم يقم بواجبه المنوط به، وتعطلت بسببه مصالح هذه المؤسسة ، ومصالح من تقوم المؤسسة بخدمتهم ، أليس ذلك تضييعًا للأمانة ، وأكلًا لأموال الناس بالباطل، وتفريطًا في المسئولية التي كُلف بها؟ وهو بذلك قد أضاع الواجبات من أجل أداء النوافل، وهذا لا شك عدم فهم لمقاصد الدين، ولله در سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) يوم أن نام على فراش الموت فأوصى سيدنا عمر (رضي الله عنه بوصية جاء فيها: "واعلم أن لله عملًا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة".

إن الفهم الصحيح لدين الله (عز وجل) بما يتناسب مع واقع هذا الزمان، ويراعي أحوال الناس وحاجاتهم يقتضي أن لا تقف حدود الفهم عند بعض مسائل فقه الأحكام على سبيل التلقين أو التلقي دون غوص أو إدراك لفقه المقاصد أو الأولويات أو الواقع أو المتاح مما تغيب معه الغاية الأسمى لمقاصد التشريع .

وانطلاقًا من هذا الفهم المقاصدي لأوامر الدين الحنيف ، وترتيبًا لفقه الأولويات فإننا نؤكد على أن تقديم قضاء حوائج الناس والمجتمع،

وكل ما كان من باب النفع العام أولى من تكرار الحج والعمرة ؛ لأن قضاء حوائج الناس كالتيسير على معسرٍ وقضاء حاجته ، أو الصدقة على فقير وكفايته ، أو فك أسر سجينٍ مدينٍ بدينٍ من فروض الكفايات، ومعلوم أن الوفاء بفروض الكفايات مقدم على جميع النوافل بما فيها تكرار الحج والعمرة .

فما أحوجنا إلى فهم ديننا فهما صحيحا ، وإدراكنا لواقعنا إدراكا واعيا يجعلنا نقدر حجم المخاطر التي تحيط بنا ، ويحملنا على تقديم النفع العام والمصلحة العامة على المصلحة الشخصية بكل إخلاص وتجرد، امتثالًا لتعاليم ديننا الحنيف ، ورغبة في تقدم وطننا ورفعته والنهوض والرقي به إلى المكانة التي تليق به وبأبنائه .

اللهم احفظ مصر وشعبها وجيشها وشرطتها من كل مكروه وسوء

*   *   *

مفهوم الشهادة بين الحقيقة والادعاء

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَات بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[البقرة : ١٥٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللهم صَلِّ عليه وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعـد :

فقد اقتضت سنة الله (عز وجل) أن يصطفي من عباده من يشاء فيرفع درجاتهم ، ويعلي من شأنهم ، ويفيض عليهم من كراماته ونفحاته ، ويمدهم بعطاياه ورحماته ، ولا شك أن مقام الشهادة من أعلى مقامات الاصطفاء والاجتباء التي يمتن الله (عز وجل) بها على من يشاء من خلقه ، حيث يقول سبحانه: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، ويقول سبحانه: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ} [آل عمران: ١٤٠] .

ولقد خص الله (عز وجل) الشهداء بمناقب عديدة ، منها:**شرف مكانهم وجوارهم** ، **وعظيم أجرهم ونعيمهم** ، قال تعالى: {وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُـمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُـمْ}[الحديد: ١٩] فأكرم به من شرف وجوار مع عظم أجر ونور تام يسعى بين أيديهم ، قال مسروق (رحمه الله) : وهذه المكانة للشهداء خاصة ؛ ولا أدل على عظم هذا الشرف والمكانة من حرص النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) على الشهـادة في

سبيل الله (عز وجل) ليكتب له أجر هذه الدرجة العالية ، فقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ) (صحيح البخاري) ؛ لعظيم ما أعدَّه الله (عز وجل) للشهيد في الجنة ، وشوقًا وحنينًا إلى لقاء الله (عز وجل) .

ومنها: **أنهم أحياء عند ربهم يرزقون** ، حياةً ليست كحياتنا ، حياةٌ تفوق إدراك البشر ، وهم أيضًا في ذاكرة الأمة أحياء لا تُنسى ذكراهم بمرور الأزمنة والدهور ، قال تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَات بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٥٤] ، وعن جَابِر بْن عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما) قال: لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ لِي: (يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا) ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي ، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا ، قَالَ: (أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ) ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ: (مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا) – أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول– فَقَالَ: (يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ) ، قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، قَالَ الرَّبُّ (عَزَّ وَجَلَّ): (إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ) قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[آل عمران: ١٦٩] (سنن الترمذي) .

ومنها: **أن أرواحهم في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة كيف شاءت** ، قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ

أَنْهَارَ الْجَنَّةِ ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ وَمَشْرَبِهِمْ وَمَقِيلِهِمْ ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا أَنَّا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ ، لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] (المستدرك على الصحيحين) .

ومنها -أيضاً- ما أخبر به النبي (صلى الله عليه وسلم) من: إكرام الله (عز وجل) للشهداء بمنح عظيمة ، وعطايا جليلة في قوله (صلى الله عليه وسلم): (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ) (سنن ابن ماجه) ، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ– إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ) (صحيح البخاري) .

على أننا نؤكد أن هذه المكانة السامية ، والدرجة العالية التي أعدَّها الله (عز وجل) للشهداء لا ينالها إلا شهيد الحق ، فهناك شهيد الحق ، وقتيل الباطل ، فالشهيد الحق هو من عرف الحق ، وأخلص له وضحى من أجله ، وبذل روحه في سبيله .

والشهيد الحق هو من دافع عن وطنه ضد كل مُعتَدٍ ، وبذل روحه فداءً له ، وحمايةً لترابه ، وحفاظًا على أهله وكل من يحيا على أرضه ،

فليس الوطن والعرض أقل خطرًا ومكانة من النفس والدين والمال ، فقد قال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دَمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) (سنن أبي داود) ، وجَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي ؟ قَالَ: (فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ) قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي ؟ قَالَ: (قَاتِلْهُ) قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ: (فَأَنْتَ شَهِيدٌ) قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ ؟ قَالَ: (هُوَ فِي النَّارِ) (صحيح مسلم) .

أما قتيل الباطل الذي يسفك دماء الأبرياء بغير حق ، ويروع أبناء الوطن ، ويُهدد أمنهم وأمانهم ، ويسعى إلى نشر الفساد والفوضى في الأرض ، ويروع الآمنين بعمليات انتحارية ، وتفجيرات إرهابية لا يقرها دين ، ولا يقبلها عقل ، فكما أكد بيان الأزهر الشريف التاريخي في تفنيد مزاعم الجماعة الإرهابية أن هذا لا يُعد شهيدًا ، ووصفه بالشهيد ادعاء كاذب لا صحة له ، وتحريف للكَلِم عن مواضعه .

كما أصدرت دار الإفتاء المصرية العديد من الفتاوى التي تصف مثل هذه الأعمال بالإرهابية ، وأن القيام بها صورة من صور الانتحار الذي يعد من أكبر وأعظم الآثام والذنوب عند الله (عز وجل) ؛ لأن من يفعل ذلك جاهل أقحم نفسه في الموت إقحامًا ، والحق سبحانه يقول: {وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}[النساء: ٢٩] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (من قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا) (متفق عليه) ، وقد بوب الإمام النووي على هذا الحديث بابًا في شرحه لصحيح مسلم فقال: "باب غلظ تحريم قتل

الإنسان نفسه ، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار" ، وهذا وأمثاله يصدق فيهم قول الله تعالى : {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨] .

على أننا نوضح أن من يقوم بمثل هذه العمليات الانتحارية هم من يتبعون أفكار مذاهب الغلاة من الخوارج ومن جاء بعدهم من الجماعات الضالة المضلة ، الذين يقولون بتكفير المجتمع بكل طوائفه ، ويستبيحون دماء أبنائه جميعًا .

إنَّ اتّخاذَ وسيلةِ التّفجيرِ والتّدميرِ والتّخريبِ والاغتيالِ والانتحارِ من الأمور المحرمة شرعًا بالإجماع ، حيث إن ذلك كله يخالفُ نصوصَ الشّرعِ الحنيف الآمرةَ بوجوبِ المحافظةِ على النفس والوطن والمال ، فإقدام الإنسان على أهلَّاك نفسه ، وإزهاق روحه ، والاعتداء على أرواح الآخرين ، والإفساد في الأرض كل ذلك مما حرمه الشرع الحنيف .

لقد أكد الإسلام تأكيدًا شديدًا على حرمة الدماء وضرورة عصمتها ، فقد استهل نبينا (صلى الله عليه وسلم) خطبته الجامعة في حجة الوداع بقوله (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَلَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا – أَوْ ضُلَّالًا – يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَا يَزَالُ الْمَرْءُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (المستدرك للحاكم) ، وعن عَبْد اللَّهِ بْن عُمَرَ ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ ، وَيَقُولُ: (مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ

رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحمدٍ بِيَدِهِ ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكِ ، مَالِهِ وَدَمِهِ ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إلا خَيْرًا) (سنن ابن ماجه) .

وقد نهى الإسلام عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ورتب على ذلك وعيدًا شديدًا ، فقال سبحانه : {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام :

إن بلوغَ الأهداف الكبرى ونيلَ الغايات العظمى في هذه الحياة يستلزم من التضحيات ما يتناسب مع سمو الأهداف وشرف المقاصد ونبل الغايات ، ويأتي في ذروة التضحيات التضحية بالنفس ، وبذل الروح في سبيل الله نصرة لدينه ، ورغبة في عزة البلاد وكرامة العباد

ونحن إذ نجدد الاحتفاء بيوم الشهيد ، فإننا نذكر أنفسنا بهؤلاء الذين ارتقت أرواحهم إلى الله (عز وجل) وفازوا برضوانه من رجال قواتنا المسلحة الباسلة ، ورجال الشرطة البواسل ، وسائر الوطنيين الشرفاء على خط مواجهة قوى الإرهاب والشر والظلام .

هؤلاء الشهداء الأبطال هم الشهداء حقًّا ، وثمة فارق كبير بين الحقيقة والادعاء ، فهؤلاء الأبطال هم من أحيوا فينا روح الكرامة

والمروءة والعزة والشهامة ، واستطاعوا أن يحفظوا لمصر مكانتها وهيبتها ، وما زال حماة الوطن يبذلون أنفسهم في سبيله لمواجهة الإرهاب الأسود الغاشم ، والجماعات التكفيرية الضالة المضلة ، ونحن على يقين وثقة في نصر الله سبحانه وتعالى لهم .

وإننا لنُرَجِّي لأنفسنا شهادة في سبيل الله والوطن ، ولم لا ؟ وقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ سأل اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ) (صحيح مسلم) .

وإن واجبنا في هذه المرحلة التي يمر بها وطننا العزيز أن نسعى جميعًا لحمايته والدفاع عنه من أي عدو أو خطر يهدد أمنه واستقراره ، والعمل بكل ما أوتينا من قوة في مواصلة مسيرة البناء والتعمير ، فديننا فن صناعة الحياة لا صناعة الموت ، ودين البناء والتعمير لا الإفساد ولا التخريب ، فعلينا أن نتكاتف جميعًا لردع كل من تسول له نفسه أن يجترئ على وطننا الذي تحيط به مخططات متنوعة ، هدفها النيل من مصر وأرضها وشعبها ، يقف أمامها المخلصون من أبناء مصر فيقدمون أرواحهم ودماءهم وأموالهم دفاعًا عنها وحماية لأرضها ، فمصر هي درع العروبة والقلب النابض للإسلام ، والدفاع عنها واجب شرعي ، وحق ديني ، والنيل من مصر هو نيل من الإسلام ، وإضعاف للمسلمين في سائر البلاد ، فلنقف جميعًا صفًّا واحدًا في سبيل الدفاع عنها من فساد المفسدين ومكر الماكرين وحقد الحاقدين .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

درجات العطاء ، ومنازل الشهداء

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٥٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فليس حب الوطن مجرد كلمات تقال أو شعارات ترفع ، إنما هو سلوك وتضحيات ، الجندي بثباته وصبره وفدائه وتضحيته ، والشرطي بسهره على أمن وطنه ، والفلاح والعامل والصانع بإتقان كل منهم لعمله ، والطبيب والمعلم والمهندس بما يقدم كل منهم في خدمة وطنه ، وهكذا في سائر الأعمال والمهن والصناعات يجب على كل منا أن يقدم ما يثبت به أن حبه للوطن ولاء وعطاء لا مجرد كلام أو أمانٍ أو أحلام .

ولا ينبغي أن يكون شأننا مع أوطاننا قائمًا على حساب المصالح والمكاسب ، فمن أُعطى ما يريدُ هو ، لَبِس كل أردية الوطنية وأقنعتها ، وإن لم يُعط ما يريد ، انتفض انتفاض الموتور ، شأنه في ذلك شأن من يتعاملون مع دين الله (عز وجل) بحساباتهم المادية الضيقة ، حيث يقول الحق سبحانه في شأنهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١] ، أو كحال من وصفهم

الحق سبحانه وتعالى بقوله: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} [التوبة: ٥٨]ممن لا تحركهم إلا مصالحهم الخاصة ، ولو كانت على حساب الدين أو الوطن ، متناسين أن ديننا الحنيف يقدم المصلحة العامة على الخاصة ، وأن الوطني المخلص يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ، وأن الوطنية الحقيقية عطاء وبذل وفداء بالجهد والمال والنفس .

ومما لا شك فيه أن خدمة الوطن شرف عظيم ، والعمل على بناء الدولة ورفعتها ورقيها وتقدمها مقصد شرعي ووطني ؛ لأن حب الوطن والولاء والانتماء له وإدراك مكانته قيمة إنسانية راقية ، لا يشعر بها ولا يقوم بواجبها إلا أصحاب الفطر السليمة ، والمبادئ القويمة ، فالوطن ليس مجرد بقعة من الأرض نعيش عليها ، الوطن معنى أبعد وأعمق من ذلك بكثير ، الوطن حياة ، الوطن كيان ، الوطن هوية ، الوطن انتماء ، الوطن أمانة، ومهما قدم الإنسان لوطنه من جهد وعطاء وتضحية ، فلن يوفيه حقه ، ولله در شوقي حيث يقول:

وَلِلأَوطـانِ فـي دَمِ كُـلِّ حُرٍّ   يَدٌ سَلَفَت وَدَيـنٌ مُستَحَـقُّ

إن للوطن قيمة كبيرة ومكانة سامية في نفوس الأوفياء من أبنائه ، فحبّه والانتماء إليه فطرةٌ جُبلت عليها النفس البشرية ، وهو واجب تفرضه الوطنية ، ويؤصله الشرع الحنيف ، وأكدت عليه جميع الشرائع السماوية ، فلقد ضرب لنا أنبياء الله ورسله (صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا) القدوة والأسوة في حب الأوطان والحنين إليها ، والدفاع عنها ، فهذا سيدنا شعيب (عليه السلام) يكره مجرد تهديد قومه له بالإخراج من

وطنه ، وينكر عليهم ذلك ، يقول ربنا سبحانه: {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٨] ، فلم يقبل سيدنا شعيب (عليه السلام) المساومة بين الدين والوطن ؛ لأنه لا تعارض بين الدين والوطن، فمصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان .

ولقد اقترن حب الأرض في القرآن الكريم بحب النفس ، فقال تعالى: {ولَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إلا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ} [النساء:٦٦] ، فلقد بيّنت الآية شدة تعلق النفس السوية بوطنها ، وأن الإبعاد عنه عقوبة مؤلمة ؛ لذا جعل الشرع الحنيف الإبعاد عن الوطن عقوبة للمفسدين في الأرض ، قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: ٣٣] .

والمتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) يجد أنها مليئة بالمواقف والأحداث التي تدل على حبه (صلى الله عليه وسلم) لوطنه ، وشوقه إليه ، ودفاعه عنه ، سواءً حيث نشأ بمكة ، أم حيث أقام بالمدينة .

إن من أولى الواجبات ، وأوجب الأولويات في هذه الأيام إدراك قيمة الوطن والشعور بمكانته ، خاصةً في ظل الظروف والتحديات التي تمر بها منطقتنا العربية ؛ لذا يجب علينا نشر ثقافة الولاء والعطاء والفداء بين الشباب ، وطلاب المدارس ، وفي المراحل التعليمية المختلفة ، من خلال المناهج الدراسية ، والملتقيات الفكرية ، والمحاضرات والندوات ،

والبرامج الإعلامية ، دفاعًا عن الوطن ، وحفاظًا على الدولة الوطنية ، فالوطن هو السفينة التي يجب على الجميع الحفاظ عليها حتى تنجو وننجو معها ، وقد قالوا: "الوطن شجرة طيبة لا تنمو إلا في تربة التضحيات ، وتسقى بالعرق والدم ، والعليل يستروح بنسيم أرضهِ كما تستروح الأرض المجدبة بوابل المطر" ، وعندما تسمع من يقول: سوف أضحي بوطني من أجل ديني فاعلم أنه لم يفهم معنى الدين ولا معنى الوطن ، ولقد علمتنا الأوطان بأن دماء الشهداء هي التي ترسم حدود الوطن ، وأخرج أبو نُعيم في (الحلية) أن إبراهيم بن أدهم قال: ما قاسيت فيما تركت شيئًا أشد عليَّ من مفارقة الأوطان .

وعلى ذلك فإن كل ما يدعم بناء الدولة وقوتها هو من صميم اعتقادنا الإيماني ، وكل ما يؤدي إلى الفساد أو الإفساد أو التخريب أو زعزعة الانتماء الوطني إنما يتعارض مع كل القيم الدينية والوطنية ، ولنعلم جميعًا أن مواجهة قوى الشر تتطلب أن نقف صفًّا واحدًا في وجه أعداء هذا الوطن ، ولا نترك بيننا فرصة لخائنٍ ، أو عميلٍ ، أو مأجورٍ .

ولله در القائل:

من يُسعدُ الأوطانَ غيرَ بَنِيهَا ... ويُنيلُها الآمالَ غَيرَ ذَوِيها

ليس الكريمُ بمن يَرى أوطانَه ... نهب العوادي ثم لا يحميها

ترجو بنجدته انقضاء شقائها ... وهو الذي بقعوده يشقيها

وَتَود جَاهدةً به دَفْع الأَذَى ... عن نفسها وهو الذي يُؤْذِيها

سُبُل المكَارِمِ للْكرَام قَويمة ... فَعَلام يُخْطئُهَا الذي يَبْغيها

لذا فإنه يجب على كلٍّ منَّا أن يبذل قصارى جهده في العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها ، وإحباط وإفشال كل من يعمل على تقويض بنيانها أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، من أجل رفعة هذا الوطن ، وإعلاء مكانته ، والحفاظ على سلامته ، حبًّا ، وولاءً ، ووفاءً ، وعطاءً .

على أنه ينبغي أن نعلم أن العطاء يتدرج من الولاء والانتماء والإيمان بالدولة الوطنية ، إلى العمل والإنتاج وبناء الدولة ، إلى التضحية بالمال ، ثم الارتقاء إلى أعلى درجات التضحية وهي التضحية بالنفس ، فأول درجات العطاء **إتقان العمل**: فالمزارع في حقله ، والعامل في مصنعه ، والمحترف في حرفته ، والمعلم في مدرسته أو معهده ، والطبيب في مشفاه ، والشرطي في سهره على أمن وطنه ، والجندي في سهره على الدفاع عنه ، والذود عن حياضه ، وكذا سائر فئات المجتمع ؛ لذا فقد اهتم الإسلام بإتقان العمل وجعله أساس بناء الدول ، وسر نهضتها وتقدمها وحمايتها من المتربصين بها ، والطامعين في ثرواتها وخيراتها ، ولقد رفع النبي (صلى الله عليه وسلم) شأن إتقان العمل إلى أسمى المنازل ، فجعله طريقًا إلى محبة الله (عز وجل) ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلا أَنْ يُتْقِنَهُ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فإتقان العمل دليل على ولاء الإنسان لوطنه ، فلن تتحقق المكانة والريادة لأي وطن إلا بإتقان العمل .

ومن مظاهر الولاء للوطن ، وصور العطاء والتضحية من أجله ، **التضحية بالمال والجهد**: فالتضحية بالمال ، ليست أمرًا سهلًا ولا ميسورًا ،

بل هي أمر شاق على أكثر الناس؛ لذا كان بذله نوعًا من التضحية والعطاء ، قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥] ، وقال سبحانه: {وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢] ، ولقد ضرب سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أروع الأمثلة في البذل والعطاء ، والتضحية بماله يوم أن قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَن يشتري بئرَ رُومَةَ ولهُ الجنةُ) (صحيح البخاري) ، فاشتراها (رضي الله عنه) من خالص ماله ، وحين قالَ النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَن جَهزَ جيشَ العُسْرَةِ فلهُ الجنةُ) (صحيح البخاري) ، فجهَّزَهُ سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ؛ ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) .

وكما أن التضحية من أجل الأوطان تكون ببذل المال ، فهي كذلك تكون ببذل الجهد أو الفكر أو الوقت ، من أجل نشر العلم وبناء الأمة وصناعة القادة والعظماء ، وكذلك التضحية بالوقت والجُهد ؛ لقضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم ، والسعي على حوائجهم ، قال تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

*   *   *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

لا شك أن أعلى درجات العطاء ، وأسخى صور البذل ، وأرقى صور التضحية **التضحية بالنفس**: فالشهادة في سبيل الله دفاعًا عن الوطن منزلة من أجلِّ المنازل التي تجعل صاحبها في معية الأنبياء والصديقين ، وهل هناك أفضل ممن يجود بنفسه دفاعًا عن الحق؟ لذا قال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: ٦٩] ، ويقول سبحانه: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] .

إن الشّهادة في سبيلِ اللهِ منحةٌ إلهيةٌ ، يَمنَحُها اللهُ (عز وجل) لأفضل الخلق بعد الأنبياء والرسل ، فينزلهم منازل عالية ، بصدق عزائمهم ، وإخلاصهم في بذل أرواحهم في سبيل الله ؛ لذا فقد اختصهم الله (عز وجل) بفضائل ومناقب وكرامات ليست لغيرهم **منها** : أنهم لا يشعرون بالموت وشدته إلا كما يشعر الواحد منا بمس القرصة ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إلا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ) (سنن الترمذي) .

ومنها : ما بشرهم به النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله: (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ : يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ) (مسند أحمد).

ومنها: أن الله (عز وجل) أمَّنهم من عذاب القبر وفتنته (أي من سؤال الملكين ، فقد روي أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إلا الشَّهِيدَ ؟ قَالَ: (كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً) (سنن النسائي) ، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبر أن الشهيد لا ينقطع عمله الصالح ، بل يزيدُ ويتضاعف ، يقول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إلاَّ الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّهُ يُنْمَى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ) (المستدرك على الصحيحين للحاكم) .

ومنها: أنهم في ذاكرة الأمة مخلدون ، وعند ربهم أحياء يرزقون ، حياة أبدية لا مثيل ، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩– ١٧١] ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) في تفسيرها: (أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً) ، فَقَالَ: (هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا ؟قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا ، قَالُوا: يَا رَبِّ ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا) (صحيح مسلم) .

فهنيئًا لمن اصطفاه الله لهذه المكانة العالية ، والدرجة السامية ، وأكرمه برفقة الأنبياء والصديقين والصالحين ، وأنعم بها من رفقة.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

بناء الوعي وأثره في مواجهة التحديات

الحمدُ لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم : {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ} [الروم: ٤٢] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإنَّ الوعيَ بقيمةِ الوطن ، وبالتحديات التي يُواجهها ، وبالمخاطر التي تحيطُ به ، أمرٌ لا غنى عنه ، خاصة ونحن في مرحلةٍ شديدةِ الحرج في تاريخ منطقتنا ؛ المخاطرُ جسام ، والتحدياتُ هائلة ، والأمرُ أقرب ما يكون إلى زمن الفتن التي تجعلُ الحليمَ حيرانَ لشدةِ اختلاط الأمور ، واضطرابها ، وتقلبها .

ومما لا شك فيه أن قضية الوعي بالوطن ، وبمشروعية الدولة الوطنية ، وضرورة دعم صمودها ، والعمل على رقيها وتقدمها ، أحد أهم المرتكزات لصياغة الشخصية السّوية ، وأحد أهم دعائم الولاءِ والانتماءِ للوطن والحفاظ على مقدراته وكل ذرة من ثراه النّدِي .

إن الوعي بالمخاطر يحتاج إلى إعمال العقل الذي كرّم الله (عز وجل) به الإنسان حتى يميز بين الصالح والطالح ، حيث يقول سبحانه: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}[يونس: ١٠١] ، ويقول سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}

[المؤمنون: ٧٨] ، وقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين لا يُعملون عقولهم في التفكر والتدبر ، ولا يستخدمونها فيما خلقت له ، فقال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[الأعراف : ١٧٩] ، ثم أخبر أن هؤلاء يوم القيامة تدوم حسراتهم ، ويعلنون ندمهم ، فقال سبحانه حكاية عنهم : {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ}[الملك: ١١] ، ولذلك قيل: " إِنّ تَفَكُّرَ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةٍ " .

ومما يزيد الأمر خطورة وحرجًا أن أعداء الأمة دائمًا يراهنون على تغييب الوعي ، وليس ذلك جديدًا على أصحاب الدعوات الهدامة والأفكار المتطرفة الذين لا يرقبون في الأمة إلًّا ولا ذمة ؛ فمنذ بداية دعوة الإسلام قام أعداء الدين بمحاولات متعددة للصّدِّ عنه ، معتمدين على تغييب الوعي بقلب الحقائق وكَيل الاتهامات ، قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إلا اخْتِلَاقٌ}[سورة ص: ٤ – ٧] ، وكذلك يغيبون الوعي بعدم إفساح المجال لمجرد سماع كلمة الحق ، قال سبحانه حكاية عنهم:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}[فصلت: ٢٦].

ولا خلاف في أن تشكيلَ وعي أمة أو بناء ذاكرتها ليس أمرًا سهلًا ولا يسيرًا ، ولا يتم بين لحظة وأخرى ، أو بين عشية وضحاها ؛ إنما هو عملية شاقة مركبة ، وأصعب منه إعادة بناء هذه الذاكرة ، أو ردها إلى ما عسى أن تكون قد فقدته من مرتكزاتها ، فما بالكم لو كانت هذه الذاكرة قد تعرضت للتشويه ، أو محاولات الطمس ، أو المحو ، أو الاختطاف ، ولا سيما لو كان ذلك قد استمر لعقود أو لقرون ؟!

إنّ بناء وعي بَني وطننا يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا ؛ لأننا دون إدراك هذه التحديات ، ودون الوعي بها ، لن نستطيع أن نضع حلولًا ناجحة تسهم في خلق حالة من الوعي الحقيقي ، **ولعل من أخطر التحديات التي تواجهنا تلك التحديات التي تهدد أمننا واستقرارنا في أوطاننا** ، فالأمن نعمة من أجل نعم الله (عز وجل) على الإنسان ، حيث يقول سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧] ، فبدونها لا يهدأ للإنسان بال ، ولا تطمئن له نفسٌ ، ولا يهنأ بالحياة حتى لو أوتي الدنيا بحذافيرها ، فسعادة الدنيا ونعيمها في تحقيق الأمن والاستقرار ، يقول نبينا (صَلى الله عَلَيه وسلم): (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سربِهِ ، مُعَافًى في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) (الأدب المفرد للبخاري) ، فبدون الأمن لن تقوم دولة ، ولن يطمئن أحدٌ على نفسه أو أهله أو جيرانه .

من أجل ذلك يجبُ علينا أن نكون جميعًا في يقظة ووعي وحيطة وحذر ، وأن نتعظ بغيرنا ، وأن نستفيد من تجارب الحياة

وخبراتها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ}[النساء: ٧١] ، ويقول نبينا (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (لاَ يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ) (متفق عليه) ، فلنعلم أن حفظ ودوام أمن وطننا أمانة في أعناقنا جميعًا ، كل في مجاله وميدانه ، كيف لا ؟ والحفاظ على الوطن من أهم الضروريات لحفظ الدين وبقاء الدنيا ، فبدون الوطن لن نتمكن من عبادة الله (عز وجل) ، وبدون الوطن لن نستطيع إعمار الأرض التي أمرنا الله (عز وجل) بإعمارها ، وإن أي وطني شريف لا يتردد لحظة في أن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، فكيف يكون المُفتدى به أهم وأغلى من المفتدَى ، ومن ثم يجب الأخذ على أيدي المفسدين العابثين بأمن الوطن واستقراره ، وتحذير الناس منهم ، حتى لا يوردونا موارد الهلاك .

كذلك من أهم التحديات التي نواجهها: التحديات الاقتصادية ، فهذه المرحلة المفصلية من تاريخ وطننا توجبُ علينا التكاتف لمواجهة المشكلة الاقتصادية ، ولا يتحقق ذلك إلا بالعمل الجاد والمثمر ، وضرورة تحريك المال واستثماره ، وزيادة الإنتاج ، فقد حثَّ رسول الله (صَلى الله عَلَيه وسلم) المسلم على العمل وعمارة الأرض حتى يدركه الموت ، أو تأتيه الساعة ، فقال (صَلى الله عَلَيه وسلم): (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (الأدب المفرد للبخاري) ، وتلك دعوة صريحة للعمل والإنتاج ، لتُعَمَّر الديار ، وتزدهر الأوطان ، وبهما يكفي المؤمن نفسه ومن يعول .

فعلى شباب الأمة أن يدرك أن الوعي الحقيقيّ هو البناء لا الهدم، والإعمار لا التخريب ، وعليهم أن يقتحموا الصعاب ، وأن يواجهوا

التحديات بعزيمة قوية ، وروح وثابة نحو البناء والتعمير ، وعمارة الكون ، وحب الخير للناس جميعًا ، مؤمنين بحق الجميع في الحياة الكريمة ، بغض النظر عن الدين ، أو اللون ، أو الجنس ، أو العرق .

إضافة إلى ضرورة التكافل الاجتماعي الذي حث عليه ديننا الحنيف من خلال الترغيب في العمل التطوعي ، والدعوة إلى المسابقة في الخيرات ، والمنافسة فيها ، والمسارعة إليها حتى لا تسيطر علينا الفردية ، أو الأنانية ، أو السلبية ، فقال تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢] ، وقال سبحانه: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جميعًا} [المائدة: ٤٨] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم) ، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ) (صحيح مسلم) . وقال (صلى الله عليه وسلم): (يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّك إنْ تَبْذُلِ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَك ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَك ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) .

كذلك من الأخطار التي تواجهنا : خطر الانحراف الفكري ، فإن من أبرز مظاهر عظمة الإسلام الاعتدال والوسطية ، حيث يقول سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطًا}[البقرة: ١٤٣] ، فمنهج الإسلام معتدل متوازن ، أساسه التخفيف واليسر ، قال تعالى: {يريدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ}[النساء: ٢٨] ، وقال سبحانه: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[البقرة: ١٨٥] ، ويقول (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ،

وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ) (صحيح البخاري) .

ولقد حذر النبيُّ (صَلى الله عَلَيه وسلم) من كل مظاهر الغلو والتطرف ، فقال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) (سنن النسائي) ، وعن أَنسٍ (رضي اللَّه عنه) قَالَ: (جاءَ ثَلاثةُ رهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْواجِ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يسْأَلُونَ عنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَلَمَّا أُخبِروا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوْها وقالُوا: أَين نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَدْ غُفِر لَهُ مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فأُصلِّي اللَّيلَ أَبدًا ، وَقالَ الآخَرُ: وَأَنا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلا أُفْطِرُ ، وقالَ الآخرُ: وأَنا اعْتَزِلُ النِّساءَ فَلاَ أَتَزوَّجُ أَبدًا ، فَجاءَ رسولُ اللَّه (صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إِلَيْهِمْ فَقَالَ:"أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكذَا ؟ ، أَما واللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُم لَهُ لكِنِي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصلِّي وَأَرْقُد ، وَأَتَزَوّجُ النِّسَاءَ ، فمنْ رغِب عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّى) (متفق عليه) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

إن للإرهاب مخاطرَ كثيرة ، والوعي الحقيقيّ هو سلاحنا لإدراك هذه المخاطر ؛ فالإرهابُ يحارب مقاصد الشريعة التي من أهمها : حفظ

الدين ، والوطن ، والنفس ، فالإرهاب لا يقر حرية الاعتقاد التي كفلها القرآن الكريم للناس جميعًا في قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة: ٢٥٦] ، والإرهاب لا يعرف حرمة دور العبادة التي حفظها الإسلام كلها ، دون أدنى تفرقة ، وحرم الاعتداء عليها قولًا أو فعلًا ، حيث يقول سبحانه: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠] ، والإرهاب لا يعرف حرمة النفس التي حرم الله (تعالى) التعدي عليها ، سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة ، حيث قال سبحانه : {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ}[الأنعام: ١٥١] ، والإرهاب لا يعرف قيمة الأوطان ، وإنما يعيث فسادًا في الأرض التي أمرنا الله (عز وجل) بإعمارها ، ونهانا عن الإفساد فيها ، حيث يقول سبحانه: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦] ، ويقول سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ} [البقرة: ٢٠٤ ، ٢٠٥] .

فما أحوجنا إلى الوعي الحقيقي بالتحديات التي تواجهنا ، وضرورة التصدي لها ، والعمل - بكل إخلاص - على الحفاظ على الوطن ، والدفاع عنه ، وأن يقوم كل منا بمسئوليته ، ويؤدي واجبه تجاهه ، فللوطنِ فِي الإسلامِ شأن عَظِيمٌ ، والتَّفرِيطُ فِي حَقِّهِ خَطَرٌ جَسِيمٌ؛ لذلك أعلى النبي (صَلى الله عَلَيه وسلم) من قيمة الشرفاء والنبلاء الذين يدافعون عن وطنهم ، ويضحون من أجله بكل غال ونفيس .

ولا شك أن رجال قواتنا المسلحة البواسل وشرطتنا الوطنية الشرفاء لهم دور بارز في مواجهة التحديات بما يقدمون من تضحيات كبيرة في سبيل دينهم ووطنهم ، وجزاؤهم في ذلك عند الله عظيم ، حيث يقول نبينا (صَلى الله عَلَيه وسلم) : (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ : عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (سنن الترمذي).

أما شهداؤنا الأبرار فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، يقول سبحانه: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[آل عمران: ١٦٩ – ١٧١] ، ويقول (عز وجل): {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَات بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}[البقرة: ١٥٤] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ) (مسند أحمد) ، ودماء الشهداء ريحها كريح المسك تتطاول لها الأعناق ، وتنحني لها الهامات إجلالًا واحترامًا ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ – وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ) (متفق عليه) .

فتحية إعزاز وتقدير لكُل وطني غيور على وطنه حريص على أمنه وسلامته ، وتحية إجلال وتوقير لحماة مصر الأبرار وشهدائها الأطهار الذين روت دماؤهم الزكية شجرة العزة والكرامة في وطننا ، ولن يضيع وطن أخلص له أبناؤه وبذلوا لأجله أرواحهم وأنفسهم وأموالهم ، وهنيئًا لهم ما أعدّ الله لهم في دار كرامته ومستقر رحمته .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنّا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

البناء الاقتصادي السديد
وأثره في استقرار المجتمع

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابهِ الكريم : {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[هود: ٦١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعدُ:

فإن الاقتصاد القوي من أهم دعائم الدولة وركائزها الأساسية التي لا تقوم ولا تُبنى إلا بها ، فالاقتصاد القوي المستقر يمكن الدول من الوفاء بالتزاماتها المحلية والدولية وتوفير حياة كريمة لمواطنيها ، وحين يضعف الاقتصاد ينتشر الفقر والمرض ، وتضطرب الحياة ، وتنشب الأزمات، وتفسد الأخلاق ، وتكثر الجرائم وتكون الفرصة واسعة أمام الأعداء المتربصين بالدول ، العاملين على إسقاطها وإدخالها في فوضى لا تنتهي؛ لذا كان النَّبيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَتعوذ من الفقر فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ قائلًا : (اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ ، وَالْفَقْرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ) (صحيح ابن خزيمة) .

إن الأمم التي لا تملك ولا تنتج قوتها ، وغذاءها ، وكساءها ، ودواءها ، وسلاحها ، لا تملك أمرها ، ولا إرادتها ، ولا كلمتها ، ولا عزتها ، ولا كرامتها ، وقد قالوا: أحسن إلى من شئت تكن أميره ، واستغن عمَّن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

وقد علّمنا ديننا الحنيف أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (اليدُ العُليا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (اليَدُ المُعطِيةُ هي العُليَا ، والسَّائِلةُ هي السُّفلَى) (مسند أحمد) ، ولا شك أن ذلك ينطبق على الأمم والمؤسسات والأسر والأفراد معًا ، فلا تنهض أي أمة أو مؤسسة أو أسرة إلا بعوامل محددة منها:

العمل وزيادة الإنتاج: وليس المطلوب مجرد زيادته بل الزيادة مع الإتقان والإبداع والابتكار واقتحام المجالات الأكثر حيوية والأكثر عائدًا ومردودًا اقتصاديًّا ، فالعمل والإنتاج مطلب شرعي وواجب وطني ، فقد أمر الله (عزّ وجلّ) بالسعي في الأرض عقب أداء حق الله تعالى ، حيث يقول سبحانه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: ٩] ، فبالعمل تعمر الأرض وتتحقق خلافة الإنسان فيها ، وبالعمل يحفظ المرء مروءته وكرامته ، فصاحبه يُعطي ولا يَطلب ، وينفق ولا يَسأل ، وقد عدّ النبي (صلى الله عليه وسلم) أفضل ما أكل العبد ما كان من سعيه وكده ، حيث قَالَ (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أنْ يَأكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِه ، وَإِنَّ نَبيَّ الله دَاوُدَ (صلى الله عليه وسلم) كَانَ يَأكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري) . وقد توعد (صلى الله عليه وسلم) من آثر الكسل والراحة ، واقتات من سؤال الناس بشر وعيد حيث قَالَ: (لاَ تَزَالُ الْمَسْأَلةُ بأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى الله تَعَالَى وَلَيْسَ في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ)

(صحيح مسلم) – المُزْعَةُ: القِطْعَةُ – ، وكان سيدنا عمر (رضي الله عنه) يقول: إياكم والراحة فإنها غفلة .

لقد أعلى الإسلام من قيمة العمل ، وجعله من أعلى مراتب العبادة ، وهو الجهاد في سبيل الله (تعالى) ، فالعبد يؤجر عليه، ولو مات في سعيه لكان موته في طاعة، فعَنْ كَعْبِ بن عُجْرَةَ (رضي الله عنه) ، قَالَ: مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) رَجُلٌ ، فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟! ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، وفي الدعوة إلى الإنتاج يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (مسند أحمد) .

وكان (صلى الله عليه وسلم) يضع الحلول لإيجاد فرص العمل والاستفادة من الطاقات ، فعن أنس بن مالك (رضي الله عنه) ، أن رجلًا من الأنصار أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأله ، فقال: (أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ ؟) ، قال: بلى ، حلسٌ (أي كساء) نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وإناء نشرب فيه من الماء ، قال: (ائْتِنِي بِهِمَا) ، قال: فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده ، وقال: (مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ ؟) ، قال رجل: أنا ، آخذهما بدرهم ، قال: (مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ) مرتين ، أو

ثلاثًا ، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري ، وقال: (اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ) ، فأتاه به ، فشدّ فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عودًا بيده ، ثم قال له: (اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا) ، فذهب الرجل يحتطب ويبيع ، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبًا ، وببعضها طعامًا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إلا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ) (سنن أبي داود) .

ترشيد الاستهلاك: فالترشيد من مقومات إعمار الأرض ، وتحقيق نهضة الأمم ، وقد دعت الشريعة الإسلامية أتباعها إلى الترشيد وعدم الإسراف في استخدام نعم الله (عز وجل) في شتى مناحي الحياة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦ – ٢٧] ، ويقول سبحانه: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١] ، وفي الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي) ، على أننا نؤكد أن ترشيد الاستهلاك ، ليس في مجال الطعام والشراب فحسب ، بل في كل جوانب العملية الاقتصادية: في المياه ، والكهرباء ، والغاز ، وفي كل الخامات والأدوية المستخدمة حياتيًّا ، وهذا

ما تدعو إليه الأديان ، وهو ما نجده في قول الحق سبحانه على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام): {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إلا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ} [يوسف: ٤٧] ، فهي دعوة إلى زيادة الإنتاج من خلال العمل الجاد الدءوب وإلى ترشيد الاستهلاك إلى أقصى درجة ممكنة ، حيث قال الحق سبحانه: {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ} ولم يقل إلا ما تأكلون .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام:

إن من أهم عوامل وأسس البناء الاقتصادي السديد **وفاء جميع الأفراد بالتزاماتهم تجاه وطنهم** ، والتخلص من الروح الاتكالية ومحاولة الحصول على الخدمات دون أداء ما يقابلها ، أو محاولة الحصول عليها دون قيمتها الحقيقية ، فمن يستهلك ولا ينتج ، ويتقاضى راتبًا ولا يعمل ، ويحصل على الخدمات ولا يُؤدي مقابلها إنما يسهم في تردي أوضاع بلده أو إسقاطها اقتصاديًّا ، فمجمل اقتصاد البلاد هو مجمل تصرفات أفرادها ، ولو ضربنا أنموذجًا بالكهرباء مثلًا ، فقد مرت بنا فترات صعبة من انقطاع الكهرباء وتدهور الخدمة مما كان له أثر شديد السلبية على مفاصل الدولة الاقتصادية من جهة ونفوس المواطنين من

جهة أخرى ، غير أن وزارة الكهرباء لم تكن أبدًا قادرة على توفير الخدمة فضلًا عن تحسينها في ظل عدم وفاء المواطنين بسداد مقابلها ، وبما يمكن الوزارة وشركاتها من تطوير بنيتها التحتية ، ناهيك عن مصروفات ومتطلبات التشغيل وتجديد المحطات ، وإضافة محطات جديدة وتوفير الوقود اللازم لتشغيلها ، أما في حالة سداد القيمة العادلة للخدمة فإن الوزارة بلا شك ستتمكن من استمرار الخدمة بل وتطويرها، وهكذا الأمر في السكة الحديد ، ومترو الأنفاق ، وسائر الخدمات .

أما تهرب البعض من سداد مستحقات الخدمات أو حرصه الشديد على النفع الخاص ولو على حساب النفع العام فأمر يتنافى مع كل القيم الدينية والمبادئ والنظم الاقتصادية العادلة ، ويؤدي إلى تدهور الأحوال الاقتصادية للدول وربما سقوطها اقتصاديا بمعنى يؤدي إلى السقوط العام لها .

ومن ثمَّ فإنه يجب شرعًا سداد جميع ما علينا من التزامات في موعدها ، لأن ذلك هو مقتضى العقد القائم بين المزودين لهذه الخدمات كشركة الكهرباء والجهة المزودة بالماء وبين المشترك في هذه الخدمات ، ولا يجوز التهرب من السداد ، فقد أمر الله عز وجل بالوفاء بالعقود في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١] فهذه الآية الكريمة عامة تشمل كل العقود والعهود والالتزامات التي يلتزم بها الشخص مع غيره .

وفي الحديث الشريف يقول نبينا (صلى اللَّه عليه وسلم): (الْمُسْلِمُونَ على شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلًا أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا)

(سنن الدارقطني) ، وفي رواية (الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ) (السنن الكبرى للبيهقي) ، فهؤلاء الذين يتهربون من دفع شيء تعاقدوا عليه ، ويأخذون أشياء لهم ، ويمتنعون من أداء التزاماتهم أساءوا من وجهين: الأول ، عدم الوفاء بالعقود ، والثاني ، أنهم يأخذون حقوقًا ليست لهم ويتهربون من دفع حقوق عليهم .

وعليه فإن الامتناع عن سداد مقابل الخدمات أو محاولة التهرب منها محرم شرعًا ؛ لأن ذلك يعتبر إخلالًا بالشرط والعقد ، وتضييعًا للحقوق وإضعافًا للمؤسسات والدول .

ومع أننا نؤكد على أهمية تكثيف برامج الحماية الاجتماعية فإننا نؤكد أيضًا على أهمية أن تذهب إلى مستحقيها الحقيقيين من الفئات الأولى بالرعاية ، وأن يتحلى الجميع بالقيم الدينية والأخلاقية والإنسانية بتعفف من لا يستحق حتى تذهب مخصصات برامج الحماية لمن يستحق .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

سمات وسلوك الشخصية الوطنية
في ضوء الشرع الحنيف

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جميعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيّدنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن العلاقة بين الدين والوطن علاقة تكامل ، الدين والوطن لا يتناقضان ، الدين والوطن يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين ، وأن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، فالأديان رحمة، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء .

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج . والدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعمالة والخيانة .

وإن الوطنية الحقيقية ليست مجرد شعارات ترفع أو عبارات تردد، الوطنية إيمان وسلوك وعطاء، الوطنية نظام حياة وإحساس بنبض الوطن وبالتحديات التي تواجهه ، والتألم لآلامه ، والفرح بتحقيق آماله ، والاستعداد الدائم للتضحية من أجله ، يقول النبيّ (صلى الله عليه

وسلم): (مَن قُتِلَ دونَ مالِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ أَهْلِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ دينِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، ومن قُتِلَ دونَ دمِهِ فَهوَ شَهيدٌ) (سنن الترمذي وأصله متفق عليه) .

فالشخصية الوطنية هي التي على استعداد لأن تحترق لتنير دروب الوطن ، ولأن تفتديه بنفسها وما تملك ، وتعرف للوطن حقه وقدره ، وتدرك أنها بلا وطن كالسمك بلا ماء ، وكالطائر بلا هواء ، ولله در شوقي حيث قال:

بِلادٌ ماتَ فِتيَتُها لِتَحيا ... وَزالوا دونَ قَومِهِمُ لِيَبقوا

وَقَفتُمْ بَينَ مَوتٍ أَو حَياةٍ ... فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهرِ فَاشْقُوا

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ ... يَدٌ سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

وَمَن يَسقي وَيَشرَبُ بِالمَنايا ... إِذا الأَحرارُ لَم يُسقوا وَيَسقوا

وَلا يَبني المَمالِكَ كَالضَحايا ... وَلا يُدني الحُقوقَ وَلا يُحِقُّ

وَلِلحُرِّيَّةِ الحَمراءِ بابٌ ... بِكُلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

إن الوطني الحق لا يكذب وطنه ، ولا يخون أهله ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يتآمر عليهم ، ولا يبيع قضاياهم بأي ثمن ، الوطني الحق كالمثقف الحق لا يباع ولا يشترى بالدنيا وما فيها ، فالوطنية الحقيقية بناء لا هدم ، إعمار لا تخريب ، الوطنية الحقيقية هي فن صناعة الحياة وعمارة الكون ، حيث يقول سبحانه: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] ، فالوطني الحق يسعي ويكد ويعمل ، ويأخذ بالأسباب ، ولا يركن إلى الخمول والكسل ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ

النُّشُورُ} [الملك: ١٥] ، فحيث تكون المصلحة ، ويكون البناء والتعمير ، فثم شرع الله وصحيح الإسلام والوطنية الحقيقية ، وحيث يكون الهدم والتخريب والدمار فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب.

الوطنية الحقيقية تعني الارتقاء بالوطن من خلال إتقان العمل ، وبذل الجهد لتصحيح الصورة الذهنية للوطن في نفوس أبنائه ، وفي أعين ونفوس الآخرين ؛ لأن الصورة الذهنية لأي شخص أو مجتمع تنعكس سلبًا أو إيجابًا على قبوله أو رفضه والتعامل معه ، وعلى كل منّا أن يعمل على رسم الصورة الذهنية التي تليق بدينه ووطنه كل في مجاله وميدانه ، من إتقان العمل وتجديده ، ومن تمثيله في الداخل والخارج ، وحسن معاملة السائحين والزائرين ، فالسائح تتكون لديه صورة ذهنية عن الوطن من خلال معاملة أبناء هذا الوطن له من مواقف ربما يراها البعض يسيرة ، ولكنها تترك أثرًا مترسخًا ومتجذرًا في ذاكرة السائح يحمله معه إلى بلاده ، كحسن استقباله ، أو إنهاء الإجراءات في سهولة ويسر بدءًا من الحصول على إذن الدخول ، ومرورًا بفترة إقامته ، ووصولًا إلى لحظة مغادرته .

وقد تتكون الصورة الذهنية لدى السائح بنظرته إلى مستوى النظافة والنظام واللمسات الجمالية والطراز المعماري لدى الشعب المضيف ، وغير ذلك من مظاهر الجمال التي دعا إليها ديننا الحنيف .

ومما لا شك فيه أن الجانب السلوكي من أهم الجوانب المؤثرة في بناء الصور الذهنية ، وقد قالوا: "حال رجل في ألف رجل خير من

كلام ألف رجل لرجل" ، فالناس لا يصدقون الكاذب ، وإن خطب فيهم ألف خطبة وخطبة عن الصدق ، ولا يأتمنون الخائن أو الغادر وإن أعطاهم ألف عهد وميثاق وحدثهم ألف حديث وحديث عن الأمانة والوفاء ، لذا يجب أن يكون لنا وجه واحد ظاهره كباطنه ، وليس لنا وجهان أحدهما ظاهر والآخر خفي ، إذ يمكن للإنسان أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت ، لكن لا يمكن لأي إنسان مهما كان ذكاؤه ومهما كانت حصافته وحيطته ودهاؤه أن يخدع كل الناس كل الوقت .

إن الوطنية الحقيقية تعني – أيضًا -: احترام وتقدير كل قيم الوطن ، من رفع رايته وعلَمه عاليًا محليًّا ودوليًّا ، واحترام نشيده الوطني المعبر عن حب الوطن ، وتفعيل المواطنة التي تعني: حسن الولاء والانتماء للوطن ، والحرص على أمنه واستقراره ، وتقدمه ، ونهضته ، ورقيه ، كما تعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعًا ، دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة .

والواقع والمشاهدة يؤكدان أن أكثر الدول إيمانًا بمبدأ المواطنة وحرصًا على تطبيقه وأكثرها إيمانًا بحق التنوع والاختلاف واعتباره إضافة وتراثًا ؛ هي أكثر الدول أمنًا وأمانًا واستقرارًا وتقدمًا وازدهارًا ، كما أن جميع الدول التي وقعت في فخ الاحتراب والاقتتال الطائفي أو العرقي أو المذهبي أو القبلي سقطت وتمزقت وهوت وتشرد أبناؤها وعانوا الأمرَّين ، ولَم تقم لها ولا لهم قائمة ، لذا كان من أهم أسس ودعائم بناء الدولة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) المؤاخاة

بين المهاجرين والأنصار ، والمعاهدات بين المسلمين وغيرهم من أبناء مجتمع المدينة على اختلاف دياناتهم .

وإننا لنتساءل: هل من يسعى للقتل والفساد والتخريب يمكن أن يكون متدينًا أو وطنيًّا ؟! هل من يعطل مسيرة التقدم والرقي في وطنه يمكن أن يكون وطنيًّا أو متدينًا ؟! هل من يستغل موقع عمله في التربح غير المشروع يمكن أن يكون وطنيًّا أو متدينًا ؟! والجواب: لا يمكن أن يكون متدينًا ، ولا يمكن أن يكون وطنيًا فالمتدين الحقيقي ، والوطني الحقيقي من يفتدي وطنه بالغالي والنفيس ، وهل هناك أغلى من الوطن، ومن أراد أن يدرك قيمة الوطن فليسأل من فقدوا أوطانهم عن ذلك .

ومن أهم سمات الشخصية الوطنية أن تكون إيجابية في حب الخير للناس ونفعهم، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (ألا أخبرُكُم بخيرِكُم من شرِّكم ؟) قالَ: فسَكَتوا ، فقالَ ذلِكَ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فقالَ رجلٌ: بلَى يا رسولَ اللَّهِ ، أخبرنا بخيرِنا من شرِّنا ، قالَ: (خيرُكُم مَن يُرجَى خيرُهُ ويُؤمَنُ شرُّهُ ، وشرُّكم من لا يُرجَى خيرُهُ ولا يُؤمَنُ شرُّهُ) (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَضَى لأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِي حَاجَةً يُرِيدُ أَنْ يَسُرَّهُ بِهَا فَقَدْ سَرَّنِي ، وَمَنْ سَرَّنِي فَقَدْ سَرَّ اللَّهَ ، وَمَنْ سَرَّ اللَّهَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

إخوة الإسلام:

إنَّ على كل منّا واجبًا تجاه بناء الشخصية الوطنية يجب علينا أن نقوم به بداية من الأسرة ، فالأب والأم تقع عليهما مسئولية كبرى في تنشئة أبنائهما تنشئة وطنية حقيقية ، فيغرسان في أبنائهما حب الوطن ، والحفاظ عليه ، والعمل على رقيه وتقدمه ، وهما مسئولان بسلوكهما عن أسرتهما أمام الله (عز وجل) ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ؛ فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ) (متفق عليه) .

كما أن للمسجد دوره المهم في بناء الشخصية الوطنية ؛ ففيه يتعلم المسلم أحكام دينه وواجبه تجاه وطنه ، وفيه يدرك أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان ، وأن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني ، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا ، ومن ثمة فإن دور المسجد كبير في نشر صحيح الإسلام ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة سواء عن الدين أو الوطن .

كما أن للمدرسة دورها المحوري في بناء الشخصية الوطنية ؛ فالمدرسة تتقاسم مع الأسرة التربية والتعليم ، وهي أمينة على عقول أبنائنا ، فيجب أن تكون على قدر مهمتها الشريفة وغايتها النبيلة ، وتؤدي مسئوليتها وواجبها تجاه وطنها ، بحسن غرس العلم في عقول الأطفال ، وتدريبهم عمليا على حب الوطن ، علمًا وسلوكًا وتطبيقًا ، وتنشئتهم على القيم النبيلة ومكارم الأخلاق ، ولله در شوقي حين قال:

قدْ ينفع الإصلاحُ والتهذيبُ في عهدِ الصِغَرْ

والنشء إِنْ أَهْمَلْتَهُ طِفْلًا تَعَثَّرَ في الكِبَرْ

وكذلك للجامعة دورها التعليمي والتربوي أيضًا ، فهي تبني على ما تم تأسيسه في الأسرة والمدرسة ، ومرحلتها مرحلة الشباب والقوة ، وبها يبنى الوطن ، وفيها تتشكل الشخصية الوطنية ، حين تقوم الجامعة بدورها المهم في حسن بناء هذه الشخصية ، وغرس قيم المواطنة ، وحسن تأهيل الشباب علميًّا وثقافيًّا ، ودفعهم إلى العمل والإنتاج والابتكار ، والاعتماد على قوتهم العلمية والبدنية والذهنية ، والاستفادة من طاقتهم بما يعود نفعه على أنفسهم ، وعلى وطنهم .

كما أن لأندية الشباب المختلفة دورًا مهمًا في بناء الشخصية الوطنية ؛ فهي محل اجتماعهم ، وملتقى أنشطتهم ، فينبغي استثمار ذلك ليكون بناءً للروح الرياضية ، وابتعادًا عن التعصب الممقوت ، وغرسًا لقيم التعاون ، وبيانًا لأهمية روح الفريق الواحد في العمل ، كل ذلك لإعلاء قيمة ومكانة هذ الوطن الذي يجمعنا ، ونستمتع بمقدراته ، ونحيا جميعًا في رحابه ، إلى جانب ما سبق فإن للكلمة دورها النافذ الذي لا ينكر ، والذي يؤثر سلبا أو إيجابًا .

فعلى المفكرين والكتاب والإعلاميين دور مهم في بناء الشخصية الوطنية الإيجابية ، فهم يسهمون بقوة في تشكيل وعي المجتمع ، وتقع علينا جميعًا كل في مجاله وميدانه مسئولية كبرى أمام الله وأمام الوطن، نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا للقيام بحقها ؛ خدمة لديننا ووطننا .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

دور الشباب في بناء الدول والحضارات

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن الشباب عماد الأمة ، وقلبها النابض ، وساعدها القوي ، ولا ينكر أحد دور الشباب في بناء الأوطان والأمم ونهضتها ورقيها ، وقد جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) منزلة الشباب المستقيم الذي يخدم دينه ووطنه تالية لمنزلة الإمام العادل في السبعة الذين يظلهم الله (عز وجل) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) (متفق عليه).

ولقد حثَّنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على اغتنام هذه المرحلة المهمة من مراحل العمر ، بالعمل والعطاء ، والتزود من عمل الخير لأنفسنا وديننا ومجتمعنا ؛ لتحقيق سعادتنا وما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ:

شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وفراغك قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ) (سنن النسائي) ، وبيَّن (صلى الله عليه وسلم) أن الشباب نعمة -كغيرها من النعم- وأن العبد سيسأل عنها أمام الله (عز وجل) يوم القيامة ، فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (لا تَزُولُ قَدمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟) (صحيح ابن حبان) .

ومما لا يخفى على أحد أن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) العطرة ، وأيامه النضرة شاهدة على اهتمامه (صلى الله عليه وسلم) بالشباب ، ورعايتهم وتعليمهم وتوجيههم ، وحرصه على الحوار معهم ، وتأهيلهم للقيادة ، فتراه (صلى الله عليه وسلم) يُدنيهم ويقربهم من مجلسه ، حتى يكتسبوا العلم والخبرة والحكمة ، وحتى يكونوا على إدراك كامل ، ووعي حقيقي بالواقع والأحداث من حولهم ، ثم يمنحهم (صلى الله عليه وسلم) الثقة بعد ذلك ، ويكلفهم بتحمل المسئولية .

ففي يوم بدر استشار النبي (صلى الله عليه وسلم) الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) ، فتكلم من شباب المهاجرين سيدنا الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو (رضي الله عنه) قائلًا: (يَا رَسُولَ اللَّهِ ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللَّهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ، إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ، إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ . . .) (تاريخ الطبري) .

ومن شباب الأنصار تكلم سيدنا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ (رضي الله عنه) قائلًا: (وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ أَجَلْ ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك ، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غدًا ، إنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ) . فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ: (سِيرُوا وَأَبْشِرُوا . . .) (تاريخ الطبري) .

وهذا سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) يمنحه النبي (صلى الله عليه وسلم) ثقته ، ويبعثه إلى اليمن واليًا وقاضيًا – وهو في ريعان شبابه – ولما سأله (صلى الله عليه وسلم): (كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟) ، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ (عز وجل) . قَالَ: (فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟) قَالَ: أَقْضِي بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) . قَالَ: (فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ في سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ) . قَالَ: أَجْتَهِدُ رأيي لاَ آلُو . فَضَرَبَ النبي (صلى الله عليه وسلم) بِيَدِهِ في صدر سيدنا معاذ (رضي الله عنه) ، وَقَالَ: (الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ) (سنن أبي داود)، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول عنه : (أعلمُ أمّتي بالحلالِ والحرام مُعاذ بن جبلٍ) (سنن الترمذي) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: عجزت الأمهات أن يلدن مثل معاذ . وقد مات معاذ (رضي الله عنه) دون الأربعين .

وكان ممن نبغوا في ريعان شبابهم سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) ، وكان ذلك ببركة دعاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) له ، حيث دعا له قائلًا: (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ) (صحيح ابن حبان) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يجلسه في مجلس شورى كبار الصحابة ، ويقول: (ذَاكَ فَتَى الْكُهُولِ ، إِنَّ لَهُ لِسَانًا سَؤُولًا ، وَقَلْبًا عَقُولًا) (حلية الأولياء) .

وهذا سيدنا مصعب بن عمير (رضي الله عنه) – فتى قريش المدلل – الذي تربى على الثراء والرفاهية ، وحينما امتلأ قلبه بالإيمان ، كان من أول من هاجر من مكة إلى المدينة ، بتكليف من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ليكون أول سفير للإسلام ، فنجح (رضي الله عنه) في بناء قاعدة إسلامية في المدينة ، تمهيدًا لهجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فكان من بركته أن أسلم جلُّ أهل المدينة على يديه ، ومات (رضي الله عنه) شهيدًا يوم أحد ، وقد قارب الأربعين من عمره .

وفي يوم مؤتة وهي معركة من أشد المعارك التي خاضها المسلمون ، يمنح النبي (صلى الله عليه وسلم) الشباب قيادة الجيش ؛ فيولي عليهم سيدنا زيد بن حارثة (رضي الله عنه) ، ثم يقول (صلى الله عليه وسلم): (إنْ قُتلَ زيد فجعفر ، وإنْ قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة) (صحيح البخاري) ، وكان الثلاثة شباب في أوائل العشرينيات (رضي الله عنهم جميعًا) .

لقد أولى النبي (صلى الله عليه وسلم) الشباب اهتمامًا كبيرًا ، ومنحهم الثقة ، وحملهم المسئولية ، للتأكيد على ضرورة استثمار مرحلة

الشباب الاستثمار الأمثل ، وبذل الوسع في توظيف طاقاتهم وقدراتهم ، وتهيئة الظروف أمامهم ، لتنمية مواهبهم ، وتعظيم الاستفادة مما أفاء الله تعالى عليهم به من قوة في البدن ، ورجاحة في العقل ، ولين في القلب، ولطف في المشاعر ، فيما يعود بالنفع العميم على المجتمع كله ، وكان الحسن البصري (رحمه الله) يقول: (قدّموا إلينا شبابكم ؛ فإنهم أفرغ قلوبًا ، وأحفظ لما سمعوا ، فمن أراد الله أن يُتِمّه له أتمّه) .

ولسنا نبالغ إذا قلنا : إن كثيرًا من مظاهر التقدم والتطور العلمي الذي يعيشه العالم في العصر الحديث في شتى المجالات قامت على أكتاف الشباب الذين أسهموا بجهود متميزة في خدمة الإنسانية ؛ ففي مجال الفضاء نجد أن أصغر رائد فضاء لم يكن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين عندما صعد إلى الفضاء في عام (١٩٦١) ، وكما كانت أول امرأة في التاريخ تطير إلى الفضاء منفردة دون طاقم يصحبها شابة في السادسة والعشرين من عمرها ، وذلك في عام (١٩٦٣) .

وعند الحديث عن أشهر وأوسع مواقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك) نجد أن من أسسه هو شاب في العشرين من عمره ، وكذا الحال مع من وضع نواة أكبر مصنع للإلكترونيات في العالم كان وقتها في العشرين من عمره ، وفي إبريل من عام (١٩٧٦) قام شاب في الثانية والعشرين من عمره بتأسيس وتسويق واحد من أوائل خطوط إنتاج الحاسب الشخصي في العالم ، ثم أبهر العالم بعد ذلك مع زملائه بما أدخلوه عليه من تطور تكنولوجي كبير على شركتهم التي أسسوها في هذا المجال ، وهناك مئات النماذج المشرفة أمثالهم ، فقد عرف تاريخنا

المعاصر نماذج مشرفة من الشباب على المستوى الوطني ، وعلى المستوى الدولي .

على أن الاهتمام بالشباب والحرص على تأهيلهم للقيادة وتحمل المسئولية منهج نبوي أصيل سار عليه الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فهذا سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يكلف سيدنا زيد بن ثابت (رضي الله عنه) بجمع القرآن الكريم ، قائلًا له: (إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ) (صحيح البخاري) . وهذا تكليف عظيم ، ومهمة كبيرة قال عنها سيدنا زيد (رضي الله عنه): (فَوَ اللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ ، مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ) ، قال ابن حجر (رحمه الله) معلقًا على كلام سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه): فكونه شابًّا يكون أنشط لما يطلب منه ، وكونه عاقلًا فيكون أوعى له ، وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه ، وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة له .

وهذا فهم عميق من الصديق (رضي الله عنه) ، ينبغي لنا أن نقف معه ، فعند إعداد قيادات المستقبل لا بد من توافر صفات ومقومات ، تأتي في مقدمتها الكفاءة والأمانة ، وهو ما ينبغي توفره في كل من يتولى عملًا عامًا ، وهو أيضًا ما يجب أن نربي عليه أبناءنا وشبابنا ؛ حتى يستطيعوا تحمل المسئولية ، بكل جدارة ، وكفاءة ، وكفاية .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن القرآن الكريم قد لفت أنظارنا إلى أهم صفتين من مقومات إعداد القادة واختيارهم ، وهما القوة والأمانة ، أو الحفظ والعلم ، حيث يقول الحق (سبحانه وتعالى) في قصة سيدنا موسى (عليه السلام): {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص ٢٦] ، ويقول سبحانه على لسان سيدنا يوسف (عليه السلام) في مخاطبة عزيز مصر: {اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} [يوسف: ٥٥] ، فالأمانة وحدها لا تكفي ، والكفاءة بلا أمانة لا تُغني ولا تُجدي .

وفي إطار هاتين الصفتين لا بد من توافر صفات ومقومات تفصيلية وفق طبيعة المهمة التي تُوكل إلى القائد أو المسئول ، ودرجة المسئولية الملقاة على عاتقه ، وحساسية المهام المنوطة بها ، ومن أهمها: التفاني والإخلاص في العمل ، والقدرة على تحمل الضغوط ، والعمل تحت الضغوط المتعددة ، والتعامل مع الأزمات وحسن معالجتها ، والرؤية السياسية ، والإلمام بمتطلبات الأمن القومي ، والقدرة على العمل بروح الجماعة والفريق ، والتميز في مستوى الوعي والثقافة العامة ، فثمة ما يعرف في علم الإدارة بعموم الفهم وخصوصية التكاليف ، ذلك بأن يكون الموظف أو المسئول أو القائد على مستوى عال من الفهم العام

لكل جوانب عمله ، والإلمام بأطرافه ، ومشكلاته ، وتحدياته ، وتداخلاته، وتشابكاته مع الجهات الأخرى ، أو الزملاء الآخرين ، وأن يكون واسع الثقافة ، واسع الإدراك ، شديد الوعي بالمستجدات والمتغيرات ، وعلى أعلى قدر ممكن من الإدراك الذي قد يصل إلى درجة التفرد ، وعلى أقل تقدير مستوى التميز في المهمة الموكلة إليه .

على أنه مما ينبغي الإشارة إليه أن العلاقة بين الشباب والشيوخ ليست علاقة صراع ولا إقصاء ؛ إنما هي علاقة تكامل وتضافر جهود ، فنحن في حاجة إلى طاقة الشباب حاجتنا إلى خبرة الشيوخ ، وفي حاجة إلى خبرة الشيوخ ، حاجتنا لطاقة الشباب وحماسهم .

اللهم تولى أمورنا وأحسن عاقبتنا واحفظنا من كل مكروه وسوء

* * *

خطورة المخدرات والإدمان على الفرد والمجتمع

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فقد ميز الله (عز وجل) الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل الذي هو مناط التكليف ، وأساس الفكر والتأمل والتدبر ، ولقد نعى الله (عز وجل) على من أهملوا هذه النعم ولم يوفوها حقها ، فقال سبحانه: {أَفَلَا يَعْقِلُونَ}[يس: ٦٨] ، وقال تعالى: {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}[الأنعام: ٥٠] ، ويقول (عز وجل): {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}[العنكبوت: ٤٣]، ويقول سبحانه: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الحديد: ١٧] ، ويقول سبحانه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[طه: ٥٤] ، ولله در الحسن البصري حيث قال: لو كان العقل يشترى ، لتغالى الناس في ثمنه ، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده .

ولأن للعقل والفكر والإدراك مكانة عالية في الإسلام فقد أحاط الشرع الحنيف العقل بسياجات حفظ متعددة ، فحرم كل ما يضر بالعقل أو يغيبه عن الوعي والإدراك ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[المائدة: ٩٠] ، وكان النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) إذا

بايع أصحابه (رضوان الله عليهم) قال: (أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا) (صحيح البخاري) ، فقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا) بصيغة العموم يشمل جميع المسكرات ، دون النظر إلى مسمياتها ، وعليه فإنه يلحق بالخمر في حرمتها كل ما يغيب العقل بأي طريقة كانت: شربًا أو شَمًّا أو حقنًا .

وقد وضع النبي (صلى الله عليه وسلم) قاعدة ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، ولا الأحوال والأشخاص ، وتبين الوصف الذي ينطبق على الخمر أو أي نوع من أنواع المسكرات ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حُرِمَهَا فِي الْآخِرَةِ) (صحيح مسلم) .

ومن هنا نعلم أن الخمر شامل لكل ما يُسكر مهما استحدث الناس له من أسماء ، سواء أكان مائعًا أم جامدًا ، طالما توافر فيه المعنى المحرم وهو الإسكار ، يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ) (صحيح ابن حبان)، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا) (سنن أبي داود) .

وتشديدًا في النكير على كل من اقترب من الخمر متعاطيًا ، أو بائعًا ، أو صانعًا ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ، وَعَاصِرَهَا ، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ) (سنن أبي داود) ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُشْرَبُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ) (مسند أحمد) .

إن الإسلام حين حرم المخدرات إنما حرمها صيانة للفرد وحفاظًا على المجتمع ، لأن الأضرار والمهالك التي تعود على المدمن وتؤثر سلبًا على سلامة المجتمع كثيرة ، فالخمر تغيب العقل ، وتذهب الهيبة والمروءة ، وتعصف بالحياء ، وهذا سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) قد حرّم الخمر على نفسه ، فلم يشربها في الجاهليّة ، وسبب ذلك أنّه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة ويدنيها من فيه فإذا وجد ريحها صرف عنها ، فقال أبو بكر: " إنّ هذا لا يدري ما يصنع" ، فحرّمها أبو بكر على نفسه.

وفي الأثر: (سُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِي مَجْمَعٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): هَلْ شَرِبْتَ خَمْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ ، قَالُوا: وَلِمَ ذَاكَ ؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَصُونُ عِرْضِي وَأَحْفَظُ مُرُوءَتِي ، لأَنَّهُ مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ كَانَ لِعِرْضِهِ وَمُرُوءَتِهِ مُضَيِّعًا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَقَالَ: (صَدَقَ أَبُو بَكْرٍ ، صَدَقَ أَبُو بَكْرٍ) (معرفة الصحابة لأبي نعيم) .

ولا شك أن الواقع يؤكد أن تعاطي المخدرات وإدمانها يؤدي إلى انهيار الأسرة وضياعها ، وانحراف أفرادها ، وغياب القيم والمشاعر الإنسانية عند المتعاطي للمخدرات ، مما يؤدي إلى انتشار الكثير من الظواهر السلبية في المجتمع كظاهرة التحرش ، وتعدد حالات الطلاق ، والتفكك الأسري ومن ثم تنتشر الجريمة بصورها المختلفة من سرقة ، وقتل ، واغتصاب ، لأن المدمن لا يبالي أثر فعله ، ولا عواقب جريمته فكل ما يهمه أن يتحصل على المخدرات بأي طريق وأي وسيلة .

فكم من حرب أوقدت المخدرات نارها ؟ وكم من غني أفقرته ؟ وكم من صحيح أسقمته ؟ ! وكم من شريف وضعته ؟! وكم من عزيز أذلته ؟! وكم فرقت بين الزوج وزوجه ؟ ! وكم أورثت من حسرة ؟ وكم جرّت على شاربها من بلية ومحنة ؟! فهي رأس الرذائل ، ومفتاح كل شر ، كما ورد في وصية النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبي الدَّرْدَاءِ (رضي الله عنه) حيث قَالَ: (. . . لا تَشْرَبَنَّ الْخَمْرَ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ) (سنن ابن ماجه) ، وعن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال: (اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ) (سنن النسائي) .

إن الإدمان والمخدرات سبب قوي من أسباب الانحدار التربوي ، والتعليمي ، والأخلاقي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، فضلًا عن أنها سبب في الكثير من الأمراض الصحية والنفسية ، منها: القلق ، والاكتئاب ، والتوتر العصبي ، والنفسي ، واضطراب الذاكرة وكثرة النسيان ، والانطواء والعزلة ، والشعور بالإحباط ، وانفصام الشخصية ، وغيرها من الأمراض النفسية والعقلية ، مما يحتم علينا ضرورة المواجهة والتصدي لهذا الخطر الفتّاك ، وإن استهداف الشباب عن طريق الإدمان والمخدرات لهو استهداف للبلاد وإضعافٌ لعناصر قوتها ، وهدم للقيم النبيلة والأخلاق الحسنة .

ويكفي استشعارًا لخطر المخدرات أنّ من وقع في شباكها وذاق سُمَّها تأتي عليه لحظة يُحوَّل فيها من إنسان سوي إلى كائن خطير ، يمكن أن يسرق ويقتل ، أو يبيع دينه في سبيل الحصول على ما يسكت خلاياه

العصبية ، في مشهد يشبه حالة الجنون ، مما يتطلب التدخل لحماية المدمن من شر نفسه ، وحماية أسرته والمجتمع كله من شره .

وإننا في حاجة ماسة إلى أن يقوم كل منا بمسئوليته تجاه شبابنا وأبنائنا كل في موقعه ومجاله ، بدءًا من الأسرة ودورها التربوي ، ومرورًا بالمدرسة والجامعة ودورها التعليمي والتوجيهي ، ومشاركة مع المؤسسات الدينية ووسائل الإعلام المختلفة حتى لا نترك أبناءنا فريسة للإدمان والمخدرات ، فإن الخطر داهم ، والثمن عقول أبنائنا ، وصحتهم النفسية والبدنية ، وأموالهم وما يملكون ، فلنتكاتف جميعًا لنربي جيلًا سويًّا يتمتع بالأخلاق الطيبة ، والقدرة على التطوّر والتقدم ، والإدراك الكامل والوعي الحقيقي بالمخاطر التي تحيط بالوطن .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

بمناسبة إطلاق أسبوع ترشيد استهلاك المياه للعام الحالي ، فإننا نذكر أنفسنا بنعمة الماء التي هي من أجل نعم الله (عزّ وجلّ) علينا ؛ فالماء أصل الحياة والأحياء ، وأهم مصادر النماء والرخاء ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠] ، ويقول سبحانه: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[الحج: ٥]

وقد عني الإسلام بنعمة الماء عناية كُبرى ، وأمرنا بحسن التعامل معها ، وحثنا على ترشيد استخدامها ، وجعل الإسراف في استخدامها صورة من صور الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين ، فهذا الصحابيُّ الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ليتعلم منه الوضوء ، فأراه (صلى الله عليه وسلم) كيفية الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ، ثم قال: (هَذَا الْوُضُوءُ ، فَمَنْ زَادَ عَلَى هَذَا فَقَدْ أَسَاءَ ، أَوْ تَعَدَّى ، أَوْ ظَلَمَ) (سنن أبي داود) .

وعندما مرَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بسيدنا سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وهو يتوضأ ، فقال: (مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ ؟) ، فقال: أفي الوضوء سرف يا رسول الله ؟ قال: (نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ) (سنن ابن ماجه) .

إن الإسلام ينظر إلى الماء بوصفه ثروة قومية وإنسانية ، لكل الناس حقٌ فيه ، فلا يحرم منه أحد ، ومن ثم قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وسلم): (النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْمَاءِ ، وَالْكَلَأِ ، وَالنَّارِ) (مسند أحمد) .

وفي الاهتمام بأمر الماء يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرَّى مِنْ جِنٍّ وَلاَ إِنْسٍ وَلاَ طَائِرٍ إِلاَّ آجَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (سنن ابن ماجه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا ، أَوْ كَرَى نَهَرًا ، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا ، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا ، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا ، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا ، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

وأخيرًا: فإننا نؤكد أن تلويث المياه ، أو إهدارها ، أو عدم المحافظة عليها صورة من صور الفساد الذي نهى الله (عز وجل) عنه ، حيث يقول

سبحانه: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}[الأعراف: ٨٥]، فكل نقطة ماء تساوي حياه كما أنها تساوي مالًا مقومًا ، وإن فقدها أو إهدارها يعني إهدارًا لمقدرات هامة يجب الحفاظ عليها ، لذا يجب علينا جميعًا أن نشكر هذه النعمة بالحفاظ عليها ، فإن شكر النعمة سبب في دوامها ، وزيادتها ، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}[إبراهيم: ٧].

اللهم تول أمورنا ، ويسر أحوالنا ، واظهر أمننا
واقض حوائجنا ، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

الوفاء بالعقود والعهود وحرمة التلاعب بها
أو التحايل عليها

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل: ٩١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فإن وفاء الإنسان بالعقود التي أبرمها والعهود التي قطعها أدب رباني قويم ، وخلق نبوي كريم ، وسلوك إنساني مستقيم ، دعا إليه ديننا الحنيف ؛ حيث يقول الحق سبحانه آمرًا بالوفاء بالعقود: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[المائدة: ١] ، ويقول جل شأنه آمرًا بالوفاء بالعهود: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا} [الإسراء: ٣٤] ، بل إن القرآن الكريم جعل الوفاء بالعقود والعهود أمارة وعلامة على منزلتين عظيمتين من منازل الإيمان ، ألا وهما الصدق والتقوى ، حيث يقول سبحانه: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[البقرة: ١٧٦] .

وأخبر الحق سبحانه أن أهل الوفاء الملتزمين بعهودهم ومواثيقهم هم أهل محبته ، وصفوته من خلقه ، حيث يقول سبحانه: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[آل عمران: ٧٦] ، ثم أخبر سبحانه أنهم أصحاب الأجر العظيم ، وورثة جنة النعيم ، فقال جل شأنه: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح:

١٠] ، ثم بيَّن سبحانه هذا الأجر العظيم في موضع آخر من كتابه ، حيث قال سبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ} [المعارج: ٣٢- ٣٥] .

وكما أمر ديننا الحنيف بالوفاء بالعقود والعهود حذرنا من نقضها ، ونهانا عن عدم الوفاء بها أو التلاعب بأي منها ، أو التحايل على عدم القيام بالتزاماتها ؛ لما يترتب على ذلك من خلل واضطراب مجتمعي ، وضياع للحقوق ، وفقدان للثقة بين أبناء المجتمع ، وتعطيل لمسيرة المجتمع ونهضته ورقيه ، حيث يقول سبحانه: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: ٩١] ، أي: والتزموا الوفاء بكل عهد أوجبتموه على أنفسكم سواء فيما بينكم وبين الله ، أو فيما بينكم وبين الناس ، فيما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ولا تنكثوا الأيمان بعد أن أكّدْتموها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا وضامنًا حين عاهدتموه ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ ، إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلاَلًا ، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا) (سنن البيهقي).

ولا فرق في ذلك بين الالتزامات الشخصية والعامة ، بل إن الوفاء بالعقود تجاه المال العام ألزم وأوجب ، والإخلال بها أشد جرمًا وإثمًا ، لكثرة أصحاب الحقوق المتعلقة بها ، كما أن الدين والأمانة والوطنية كل ذلك يدفع دفعًا إلى الوفاء بالعقود والعهود على الوجه الأكمل

الأتم الذي يرضى الله سبحانه ، فمن أبرم عقدًا وجب عليه أن يحترمه ، ومن أعطى عهدًا وجب عليه أن يلتزم به .

على أن الإخلال بمقتضيات العقود أكل للسحت ، وأكل لأموال الناس بالباطل ، يقول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[النساء: ٢٩] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن عاقبة الغدر ستكون وبالًا وخسرانًا على صاحبها في الدنيا والآخرة ، حيث يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[الفتح: ١٠] ، قال محمد بن كعب القرظي: ثلاث خصال من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر ، حيث يقول تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ}[فاطر: ٤٣] ، والبغي ، حيث يقول تعالى: {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم}[يونس: ٢٣] ، والنكث ، حيث يقول تعالى: {فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ} [الفتح: ١٠] .

ولقد ضرب لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع الأمثلة بفعله وقوله في الوفاء بجميع صوره ، فلم يغدر (صلى الله عليه وسلم) يومًا ، ولم يخن، بل كان (صلى الله عليه وسلم) برًّا وفيًّا حتى مع أعدائه ، ولا أدل على ذلك من يوم بدر ، حيث يقول حُذَيْفَةُ بْن الْيَمَانِ (رضي الله عنه):

مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلاَّ أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي ، فَأَخَذَنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا ، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ ، مَا نُرِيدُ إِلاَّ الْمَدِينَةَ ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلاَ نُقَاتِلُ مَعَهُ ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَأَخْبَرْنَاهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ: (انْصَرِفَا نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ) (صحيح مسلم) .

وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من عقوبة الغدر ، فقال: (إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ) (صحيح مسلم) .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن العهد والعقد يشتركان في أنَّ كلًّا منهما ينبغي الوفاء به ، غير أن العلماء فرَّقوا بين العهد والعقد ، فقال بعضهم: العقد هو العهد المؤكد أو الموثق بالكتابة أو الأيمان ، وقال بعضهم: هو ما تعاقد عليه الناس ، أي أنه صار عقد اتفاق بينهم ، سواء أكان شفاهة أم كتابة ، وعلى هذا قالوا: العقد شريعة المتعاقدين .

فالعقد الذي بين العامل وصاحب العمل سواء أكان صاحب العمل فردًا أم مؤسسة أم دولة يجب على الطرفين الوفاء به ، فالعامل يؤدي عمله على النحو الذي تضمنه العقد زمنًا وأداءً ، كمًّا وكيفًا ، دون تحايل على العمل بأي صورة من صور التحايل ، وفي المقابل يجب الوفاء بحقه ، وفي الحديث القدسي يقول رب العزة سبحانه: (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ) (صحيح البخاري) .

وهناك عهد آخر هو عهد الأمان والسلام لكل من يدخل بلادنا سائحًا أو زائرًا أو عاملًا أو مقيمًا ، طالما أن ذلك يتم بالطرق القانونية ، فكل من يحصل على إذن بالدخول أو الإقامة فقد صار له عهد وعقد أمان ، يحفظ له ماله وعرضه ودمه ، وهذا العهد الذي تعطيه الدولة مُلزم لكل مواطنيها والمقيمين بها ، لا يجوز نقضه أو الالتفاف عليه ، أو التحلل منه لا شرعًا ولا قانونًا ، فإن أخلَّ أحد بنظام الدولة أو حاول النيل منه كانت محاسبته من أجهزة الدولة في ضوء ما تقتضيه وتنظمه القوانين ، وليس لآحاد الناس محاسبته على ما يبدر منه أو التعرض له بسوء وإلا صارت الأمور إلى الفوضى وعدم الانضباط .

وتظهر عظمة الإسلام وتتجلى في أعلى صورها في ضرورة إعلام العدو بنبذ العهد إذا بدا منه نقض للعهد أو إخلال به ، حيث يقول (سبحانه وتعالى) مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم): (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨] ، وقد كان بين سيدنا معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنهما) وبين الروم عهد ، ففكر معاوية (رضي الله عنه) أن يخرج من الشام على مقربة من حدود الروم فإذا انتهى الموعد باغتهم ، فلحق به رجل من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) ، فأرسل إليه معاوية (رضي الله عنه) فسأله ، فقال: سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) يقول: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ، ولا يحلّها حتّى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء) فرجع معاوية (رضي الله عنه) (سنن أبي داود) .

ولله در القائل:

وَفاءُ العَهدِ من شِيَـمِ الكرامِ ونقضُ العَهدِ من شِيَمِ اللِّئامِ
وعندي لا يُعَدُّ من السّجايا سِوَى حِفظِ المَوَدّةِ والذِّمامِ

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن نقض العهود وعدم الوفاء بها علامة من علامات النفاق التي بينها لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) وحذر منها أشد التحذير ، فعَن عبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (صحيح مسلم) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبيِّ (صلى الله عليه وسلم) قال: (آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إِذا حدَّث كذَب ، وإِذا وعدَ أَخلفَ ، وإِذا اؤْتمِنَ خانَ) (متفق عليه).

ومما لا شك فيه أن نقض العهد مع الله (عز وجل) من أخطر ألوان نقض العهد ، حيث يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا

آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} [التوبة: ٧٥ – ٧٧] ، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: ٢٥] .

ألا ما أحوج الإنسانية كلها إلى التخلق بخلق الوفاء بالعهد ليتحقق الخير للناس أجمعين ، وأن ندرك أن الوفاء بالحقوق والالتزامات ، وتحري الحلال شرط في قبول العمل عند الله (عز وجل) ، كما أنه أساس في النهوض والارتقاء بالمجتمعات والدول والأمم .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار

اللهم احفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

النفاق والخيانة
وخطرهما على الأفراد والدول

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم :{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيَّدَنا ونبيَّنا وحبيبنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، القائل في حديثه الشريف: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ " ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ ، **وبعد** :

فمما لا شك فيه أن النفاق داءٌ عضالٌ، ووباء قتَّال ، مهلكٌ للأفراد والأمم، فهو من أخطر الأمراض القلبية التي تعصف بحقيقة الإيمان ، وتنقض أسسه ، وتهدم أركانه ، وهو آفة اجتماعية وخلقية خطيرة تهدد أمن المجتمع وسلامته واستقراره ؛ لذا فإن خطره أشد من خطر الكفر والشرك؛ لأنه داء إذا دب في جسد الأمة نخر عظامها ، وفرق كلمتها .

كما أن سلاح الخيانة والعمالة هو أخطر ما يهدد كيان الدول ووجودها على مدار التاريخ ، الذي يعد خير شاهد على أن الدول التي اضمحلت أو تمزقت أو حتى اندثرت إنما أتيت وأسقطت من داخلها ، وكان للخونة والعملاء والمأجورين على حساب وطنهم دور كبير في ذلك على مدار التاريخ البشري ، فدائما الأخطار التي تتهدد الدول من داخلها أكبر وأخطر بكثير من تلكم الأخطار التي تتهددها من خارجها .

على أنه ينبغي أن نعلم أن النفاق نوعان : أكبر ، وأصغر ، **النوع الأول** : النفاق الأكبر وهو أخطر النوعين ، وهو النفاق الاعتقادي الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر ، وهذا النوع ، يُخلد صاحبه في النار ، بل يجعله في الدرك الأسفل منها ، **والنوع الثاني** : النفاق الأصغر : وهو النفاق العملي ، وهو انحراف في السلوك ، والتلبس بشيء من علامات المنافقين ، وذلك بأن يظهر الإنسان الصلاح ويبطن ما يخالف ذلك ، وهذا النوع لا يخرج من الدين بالكلية ؛ إلا أنه طريق إلى النفاق الأكبر، إن لم يتب منه صاحبه .

ولقد حدثنا القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة عن المنافقين وأوصافهم وأخلاقهم ودسائسهم ، فما رأيناها تغيرت عبر الأزمان ، ولا اختلفت باختلاف الأوطان ، ومن أهم هذه العلامات التي يُعرف بها المنافقون :

* **الكذب**، **وخلف الوعد**، **وخيانة الأمانة**، **والفجور في الخصومة**: وهي من أقبح صفات المنافقين التي وصفهم بها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهي من النفاق العملي الذي بينه النبي (صلى الله عليه وسلم)، حيث قال : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال، أو خصلة واحدة منها كان منافقًا، وهذه الصفات تعبث بمصالح الأمة، وتهدف إلى هدمها .

فكثيرًا ما نرى المنافق يكذب ليوهم الغير بصدق قوله وفعله، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}، فإذا ذُكر النفاق والخداع وخيانة الأمانة في القرآن الكريم ذُكر معه الكذب ، قال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، وحذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الكذب مبينًا آثاره قائلًا : (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)، وسئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: (لَا). ووصف أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) الكذب بالخيانة ، في قوله : (الصّدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ...) .

وكذلك الخيانة والعمالة فيترتب عليهما قطع أواصر المحبة ، وتباغضٍ يفضي إلى النزاع والشقاق ، وفساد في المعاملات ، وقد بيَّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن خيانة الأمانة تكون على صاحبها يوم القيامة خزيًا وندامة ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ)، ويكون (صلى الله عليه وسلم) خصيمه يوم القيامة ، حيث قال : (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) .

ومن أخطر أنواع الخيانة خيانة الأوطان وبيعها بثمن بخس وعرض زائل من الدنيا على نحو ماتقوم به الجماعات المتطرفة ومن يوالونها أو يسيرون في ركابها وعلى نهجها في بيع أوطانهم بثمن بخس.

وكذلك من الصفات الذميمة التي حذر الإسلام منها : **الفجور في الخصومة** ، فهي جماع كل شر ، وأصل كل ذم ، وطريق للميل عن الحق ، فيجعل الحق باطلًا ، والباطل حقًا ، وقد سمى الله (عز وجل) الفجور في الخصومة لدًا ، قال تعالى :{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ}، وعَنْ عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ: (إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ).

فأهل النفاق أقرب وصف لحالهم أنهم ذوو الوجهين ، بل نراهم في زماننا قد تجاوزوا حدود ذلك بكثير ، فصار لهم ألف وجه ووجه ، وهم شرار الخلق ، قال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (تجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه).

ومن أمارات النفاق :

* **الإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح**: حيث يقول الحق سبحانه : {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ}، وللإفساد صورٌ متعددة ، منها : الإرجاف في البلاد ، وبث الوهن في نفوس المؤمنين الصادقين ، ودسُّ الأفكار المنحرفة ، والمفاهيم الخاطئة ، ونشر الفتنة بين الناس ، حيث يقول

الحق سبحانه وتعالى:{لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، ويقول سبحانه: {وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}، ويقول سبحانه:{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}، ومن صور الفساد: بخس الناس حقهم ، والتقليل من شأنهم ، قال تعالى : {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، ومن صوره : الهدم والتخريب ، وقتل الأبرياء ، وترويع الآمنين ، وتعطيل مصالح الناس ، وعدم القيام بالمسئولية ، وكذلك الرشوة ، والمحسوبية ، وأكل أموال الناس بالباطل.

* **الكسل عن أداء العبادة**، **والرياء عند فعلها** ، وخاصة في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهي الصلاة ، قال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}، وقال تعالى: {وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}، وقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلَ عَلَى المُنَافِقِينَ مِنَ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا)، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (رضي الله عنهما) قَالَ:خَرَجَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ : (يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن من علامات النفاق وأماراته : التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن ، بالتجسس ، والخيانة ، ونقل الأخبار والمعلومات ، والإفصاح عن أسرار الوطن، فالمنافق عميل يوالي أعداء وطنه على حساب أهله وجيرانه وأقربائه ، يقول الحق سبحانه: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ}، ويقول سبحانه : {وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}، فالمنافق يفرح إذا ألمّ بالوطن وأبنائه شرّ ، أو انتشرت فيهم فتنة ، أو تفشي فيهم مرض ، أو أصابهم انكسار ، قال تعالى:{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}.

غير أن المنافقين الجدد قد ضموا إلى تلك الصفات من الكذب ، والخيانة والغدر، ونقض العهود والمواثيق، وتأليب الرأي العام، وخيانة الدين، ضروبًا جديدة من الخداع ، أبرزها المتاجرة بالدين ، واستغلاله لتحقيق مصالح الجماعات التي تريد أن تتخذ من الدين مطية إلى السلطة ، متدثرة في ألوان شتى من التدين الشكلي والتدين السياسي،

فينسبون الإيمان لأنفسهم وينفونه عن غيرهم ، سعيًا منهم لتوفير الغِطاء الشَّرعي لأعمالِهم ، إضافة إلى ما يتسم به المنافقون الجدد من خيانة الوطن وتحقيره وبيعه بثمن بخس .

لقد توعد الله (عز وجل) هذا الصنف من الناس بأن الدائرة عليهم ، وأن غضب الله تعالى يحيق بهم في الدنيا والآخرة ، وأن ما يخططون له من إيقاع المسلمين في الشدة والعنت سيعود عليهم ، قال تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، وعاقب الله (عز وجل) أصحاب النفاق الأكبر بالتردد وعدم الاستقرار ، والهلع والفزع عند كل أمر ، قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}، وقال سبحانه:{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}، وصرف الله (عز وجل) قلوبهم عن الفهم عن الله تعالى وعن رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، قال تعالى :{ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ}، وأما عن عقابهم في الآخرة فقال الله تعالى:{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ}، فالعذاب الأول في الدنيا، والعذاب الثاني في القبر ، أما العذاب الأكبر ففي الآخرة ، حيث يجمع الله المنافقين مع من كانوا على شاكلتهم من خصال الشر في النار ، قال الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}، ويقول سبحانه:{إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}.

ومن أجل حماية الدول والحفاظ على كيانها وتماسكها وسلامتها فلا بد من يقظة العيون الحارسة لأبنائها الأوفياء المخلصين أفرادا ومؤسسات ، ولا بد من تضافر جهود كل الشرفاء لقطع دابر الخونة والعملاء والمتخابرين مع الأعداء من المجرمين وفضحهم على رءوس الأشهاد ، وجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه أن يسلك سبيل الخيانة والعمالة ، حفاظا على ديننا وأوطاننا وأعراضنا وأنفسنا ومستقبل بلادنا وأبنائنا ، وقبل ذلك كله مرضاة ربنا وحماية أوطاننا والحفاظ على دولنا من أن يصيبها ما أصاب الدول التي قصرت أو تهاونت في مواجهتها للخونة والعملاء وظنت أمرهم هينا ، وما هو في تاريخ الدول بهين .

اللهم طهر قلوبنا من النفاق ، وأعيننا من الخيانة
وألسنتنا من الكذب، واحفظ مصر وأهلها

* * *

النظافة سلوكٌ حضاريٌ وإنسانيٌ

الحمد لله ربِّ العالمين ، القائلِ في كتابهِ الكريم: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} [الأعراف: ٣١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلقد اهتم الإسلام بأمر النظافة اهتمامًا بالغًا يتناسب مع أهميتها كسلوك إنساني ، وقيمة حضارية ، وضرورة شرعية ، وركيزة أساسية في الحفاظ على البيئة التي خلقها الله (عز وجل) وأمر الإنسان بالحفاظ عليها وتنميتها ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا} [الأعراف: ٥٦] ، ويقول سبحانه: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١] .

ولا شك أن النظافة عنوان الحضارة الراقية ، وسمة من سمات المجتمعات المتحضرة ، ودليل النُبل والمروءة الآدمية ، والبيئة النظيفة دليل على رقي من يعيش بها ؛ لذا فقد أمر الإسلام أتباعه بالنَّظافة ، وحثَّهم عليها ، ورغَّبهم فيها ، وجعلها سبيلًا لمحبة الله (عز وجل) ، فقد امتدح الحق سبحانه وتعالى أهل مسجد قباء لحرصهم على الطهارة والنظافة ، فقال جل شأنه: {لمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة : ١٠٨] ، وقد بيّن نبينا (صلى الله عليه وسلم) أن الطهور نصف

الإيمان أي نصف الدين ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ) (صحيح مسلم) .

ولقد جعل الإسلام الطهارة والنظافة الكاملة للجسد والثوب والمكان جزءًا لا يتجزأ من شرائعه ، فلا يخفى على أحد أن الطهارة شرط لقبول أهم عبادة في حياة المسلم ، والركن العملي الأول في الإسلام بعد الشهادتين ألا وهي الصلاة ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة: ٦] ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَقْبَلُ صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ) (صحيح مسلم) ، كما حث نبينا (صلى الله عليه وسلم) على الكمال في النظافة والطهارة ، فعدَّ إسباغ الوضوء مما يرفع الله به الدرجات ، ويحط به السيئات ، فَقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؛ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ) (صحيح مسلم) .

وكما اعتبرت الشريعة الإسلامية النظافة سببًا لمحبة الله تعالى ، حيث قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: ٢٢٢]، فقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) في حديثه الصحيح أن عدم الطهارة من البول وحسن الاستبراء مِن أسباب سخط الله (عز وجل) ، فحينما مر (صلى الله عليه وسلم) بِقَبْرَيْنِ ، قَالَ: (إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ

يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ) (صحيح البخاري) ، وفي رواية: (إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لا يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا هَذَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ) (سنن أبي داود) .

ويتضح اهتمام الإسلام بالنظافة في أمره للمسلم بالقيام بها في كل تفاصيل حياته ؛ وذلك لأن حسن المظهر ، وطهارة الظاهر غالبًا ما تكون دليلًا على حسن المخبر وطهارة الباطن ، ومن ذلك:

* **الترغيب في نظافة الملبس** ، فبعد أن أمر الله (عز وجل) رسوله (صلى الله عليه وسلم) بإنذار قومه ، وأمره بذكره وتمجيده أمره بتطهير ثوبه ، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: ١-٤] ، وكان هذا من أول ما نزل على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد قرن الله (عز وجل) الأمر بطهارة الثوب بهذه الأوامر العظيمة لأهمية الطهارة والنظافة ؛ ولأنها صفة يحبها الله (عز وجل) ، وعندما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجُلًا عليه ثياب غير نظيفة ، قال مستنكرًا: (أَما كان هذا يجدُ ما يَغسِلُ به ثوبَهُ ؟) (صحيح ابن حبان) .

* **الحث على الاغتسال يوم الجمعة وفي العيدين** ، مع التوسع في الاغتسالات المسنونة ، فقد حثت الشريعة الغراء على الطهارة والنظافة لا سيما في أوقات اجتماع الناس في مناسباتهم ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) قَالَ: (غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ) (متفق عليه)، وعن عَائِشَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: (كَانَ النَّاسُ مَهَنَةَ أَنْفُسِهِمْ ، وَكَانُوا إِذَا رَاحُوا إِلَى الجُمُعَةِ ، رَاحُوا فِي هَيْئَتِهِمْ فَقِيلَ لَهُمْ: لَوِ اغْتَسَلْتُم) (صحيح البخاري) .

* **النظافة الشخصية** ، كتقليم الأظافر والإتيان بسنن الفطرة ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) كَانَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ ، ويَقُصُّ شَارِبَهُ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، قَبْلَ أَنْ يَرُوحَ إِلَى الصَّلَاةِ) (المعجم الكبير للطبراني) .

* **الأمر بالسواك** ، تنظيفًا للأسنان ، وحرصًا على طِيب رائحة المسلم ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم): (السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي ، أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ) (صحيح البخاري) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ) (صحيح البخاري) ؛ وذلك حرصًا منه (صلى الله عليه وسلم) على طيب رائحة الفم ، وعدم إيذاء الإنسان لأخيه الإنسان بأي رائحة كريهة من شأنها أن تنفر الناس منه .

* **الحث على اهتمام الإنسان بهيئته ومظهره** ، وهذا من محاسن ما دعت إليه الشريعة الإسلامية ، فعن جابرِ بنِ عبدِ الله (رضي الله عنهما) ، قال: أتانا رسولُ الله (صلَّى الله عليه وسلم) فرأى رجُلًا شعِثًا قد تفرَّقَ شَعرُهُ ، فقال: (أما كان هذا يَجدُ ما يُسكِّنُ به شَعْرَهَ ؟) (صحيح ابن حبان).

* **الأمر بالتطيب**: فقد قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيَلْبَسُ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ طِيبٌ مَسَّ مِنْهُ) (مسند أحمد) ، وقال صلى الله عليه وسلم): (لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثُمَّ يَمَسُّ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ طِيبِ أَهْلِهِ ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إلا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى) (سنن

البيهقي) ، بل ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن إزعاج الإنسان غيره بأي رائحة كريهة من شأنها أن تنفر الناس منه ، فلقد نهى (صلى الله عليه وسلم) مَن أكل ثُومًا أو بصلًا عن حضور صلاة الجماعة على الرغم من عظم أجرها ، وكبير ثوابها ، فقد قال (صلى الله عليه وسلم): (منْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا ، فَلْيَعْتَزِلْنَا -أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا- وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ) (صحيح البخاري) .

وكذلك يتضح اهتمام الإسلام بأمر النظافة من توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) أمته بتنظيف المساجد وأفنية البيوت وتطهيرها ، فعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) بِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فِي الدُّورِ (أي في الأحياء) وَأَنْ تُنَظَّفَ وَتُطَيَّبَ (سنن الترمذي) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ) (المعجم الكبير للطبراني) ، وكانت امْرَأَةٌ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَسَأَلَ عَنْهَا فَقَالُوا: مَاتت ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم): (أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي) ، فَدَلُّوهُ ، فَصَلَّى عَلَيْهَا النبي (صلى الله عليه وسلم) إكرامًا لها (متفق عليه) .

ولم يقف الأمر بالنظافة عند حد الأمر بالنظافة الشخصية ، أو نظافة المساجد والبيوت فحسب ، بل وصل الأمر إلى التوجيه بتنظيف البيئة التي يعيش الإنسان بها ويتفاعل معها ، وقد تكون هذه البيئة طريقه الذي يسير فيه ، أو مدرسته وجامعته التي يتعلم بها ، أو مكانًا عامًّا يقضي من خلاله مصالحه ، أو يتنزه فيه ، وقد عني الإسلام عناية خاصة بتنظيف الطرق والأماكن العامة وإزالة الأذى عنها وجعلها بابًا واسعًا من أبواب الخير ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وإماطة الأذى عن الأماكن

العامة صدقة ، فعنْ أَبِي بَرْزَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ ؟ قَالَ: (أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ) (مسند أحمد) ، وفي رواية قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَمِطِ الْأَذَى عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ) (الأدب المفرد) .

بل لقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تنظيف الطرق من الأذى سبب في دخول الجنة ، فأذى الناس في طرقاتهم أو في أماكنهم العامة سبب في لعن من يفعله ، ومدعاة لغضب الله (عز وجل) عليه ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ) (صحيح مسلم) ، وقال(صلى الله عليه وسلم): (اتَّقُوا الْمَلاَعِنَ الثَّلاَثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ) (سنن ابن ماجه) ، وفي هذين الحديثين دلالة واضحة على أن تلوث الطرق بإلقاء القمامة ونحوها من سائر الملوثات والقاذورات يعاقب عليه صاحبه ، وأن إزالة الأذى عن الطريق من أعمال البر التي تدخل العبد الجنة .

فالنظافة سلوك قويم ينبغي أن نأخذ أنفسنا به وأن نعوِّد أبناءنا عليه ، وأن نربيهم على خدمة الوطن وخدمة المجتمع ، فخدمتهما شرف كبير وعمل نبيل ، كما ينبغي أن نعوِّدهم على النظافة والنظام منذ الصغر ، وعلى مراعاة الذوق العام والآداب العامة ، واحترام حقوق الآخرين ، وعدم إيذائهم بأي لون من ألوان الأذى ، وأن أخطر وأشد أنواع الأذى في ذلك هو ما يمكن أن يصيب الناس في صحتهم أو يلوث

مياههم ، فإلقاء المخلفات صلبة كانت أو سائلة في النهر أو المجاري المائية من أشد ألوان الأذى العام الذي ينبغي البعد عنه وعدم الوقوع فيه ، والشعب المصري أولى شعوب الأرض بالتمسك بهذا السلوك الحضاري ، وهذه التعاليم الإسلامية العظيمة ، لأننا شعب عريق في الحضارة التي تدعو إلى الأناقة والجمال ، والبعد عن كل ما يؤذي وينفر ولا يقره الذوق ولا الطبع السليم ، فحضارة الإسلام هي حضارة الجمال بكل معانيه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) (صحيح مسلم) .

ولقد كانت ثقافة المجتمع المصري قائمة على النظافة وعدم تلويث المياه منذ قديم الأزل ، فقد أثبت التاريخ أن حفاظ المصري القديم على نعمة مياه نهر النيل ، وعدم تلويثها ، واعتبار تلويثها جريمة من الجرائم الكبرى ، وكان يكتب من ضمن وصاياه في نهاية حياته: " أنه لم يفعل كذا وكذا من الجرائم ، وأنه لم يلوث ماء النهر" ، وكأنه يتقرب إلى الله بهذه الفضيلة ، وابتعاده عن تلك الجريمة النكراء ، جريمة تلويث مياه النهر .

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

لقد أعلى الإسلام من شأن النظافة كمظهر حضاري ، وسلوك راقٍ حتى عدها النبي (صلى الله عليه وسلم) شعبة من شعب الإيمان ، فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ) (صحيح مسلم) ، ولقد توارث الصحابة (رضوان الله عليهم) هذا المنهج النبوي ، وأصبح ثقافة إنسانية إسلامية يتعاملون بها ، ويحثون الناس عليها ، ويرغبونهم في القيام بها ، ولَمَّا قَدِمَ أبو موسى الْأَشْعَرِيُّ (رضي الله عنه) الْبَصْرَةَ ، قَالَ لَهُمْ : (إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ لِأُعَلِّمَكُمْ سُنَّتَكُمْ ، وَإِنْظَافَكُمْ طُرُقَكُمْ) (مصنف عبد الرزاق) .

ولا شك أن حرص الإسلام على نظافة البيئة المحيطة بالإنسان ، هدفه أن تكون البيئة التي يعيش الإنسان فيها خالية من الأمراض التي تؤثر على صحته التي هي نعمة من أجل نعم الله على العبد ؛ لأن الأمراض إذا انتشرت في مجتمع لا يقتصر ضررها على شخص دون آخر ، وإنما تؤثر سلبًا على حياة الناس جميعًا ، فمن المعلوم أن أضرار التلوث ليست قاصرة على الإنسان وحده فحسب ، بل تتعداه إلى جميع المخلوقات ؛ لذا فقد جاء النهي عن التلوث بجميع صوره حفاظًا على الفرد والمجتمع وسائر المخلوقات .

وكما كان الإسلام حريصًا على الطهارة الحسية بكل صورها ، كان حريصًا على الطهارة المعنوية بكل معانيها ، كطهارة العقيدة من كل الخرافات التي تلصق بها ، وطهارة الأخلاق من الرذائل والمنكرات ، وطهارة اللسان من كل القبائح والآثام ، وطهارة الفكر من التطرف

والانحراف ، وكذلك طهارة القلوب من الغل والحقد والحسد والكراهية؛ لأن كل هذه الصفات لا تليق بالمسلم ، الذي يريد النجاة في دنياه وعقباه ، فيجب على العبد العمل على طهارة ظاهره ، وإصلاح باطنه ، فينتفع في دينه ودنياه وآخرته .

اللهم تول أمرنا وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

بر الأُم سبيل البركة في الدنيا والرحمة في الآخرة

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[لقمان: ١٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن البرَّ اسمٌ جامعٌ لكل الخصال الحميدة ، والصِّفاتِ الطيبة ، والأخلاق الحسنة ، التي تورث الطمأنينة في النفوس ، وتنشر المحبة بين الناس ، وتحقق الاستقرار في المجتمعات ، وعندما سُئل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) عن البر أجاب قائلًا : (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) (صحيح البخاري) .

ومما لا شك فيه أن الوالدين هما أَولى الناس ببرِّ الإنسانِ ، فلقد أمرنا الله (عز وجل) بالإحسان إليهما ، والبر بهما ، والتلطف معهما ، وخفض الجناح لهما .

وعندما ننظر في كتاب الله (عز وجل) وفي سنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) نرى كيف تكون العلاقة المثلى بين الأبناء والآباء ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ إلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[الإسراء: ٢٣-٢٤] ، وقد بيّن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنّ برّ الوالدين والوفاء بحقهما أفضل الأعمال بعد

الصّلاة التي هي عماد الدين وأعظم دعائم الإسلام ، فعندما سُئل (صلى الله عليه وسلم) : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال: (الصَّلاةُ عَلَى وَقْتهَا) ، قيل: ثم أي ؟ قال: (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ) ، قيل: ثم أي ؟ قال: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ) (سنن النسائي) .

وقد أعلى الإسلام من قيمة برِّ الوالدين والإحسان إليهما ، والعناية بهما ، ثم خصَّ الأم بمزيد من البرّ والعناية والرعاية والاهتمام ، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) وقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ ، قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ ، قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ) ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ) (متفق عليه) . وعن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقًّا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا) . قلت: فأي الناس أعظم حقًّا على الرجل ؟ قال: (أُمُّهُ) (المستدرك للحاكم) .

ولا عجب في ذلك ، فإن لم تكن الأم أحق بالوفاء فمن يكون إذًا ؟ مَن يكون أحق بالوفاء ممن حَملتك فِي بَطنهَا تِسْعَة أشهر كَأَنَّهَا تسع حجج ، وكابدت عِنْد وضعك مَا يذيب المهج ، وأرضعتك من ثديها لَبَنًا ، وغسلت بِيَمِينِهَا عَنْك الْأَذَى ، وآثرتك على نَفسهَا بالغذاء ، وإِن أَصَابَك مرض أَو شكاية أظهرت من الأسف فَوق النِّهَايَة ، وَلَو خُيرت بَين حياتك وموتها ، لاختارت حياتك بِأَعْلَى صَوتهَا ، من أحق بالبر ممن أوصى ربنا سبحانه وتعالى بها في قوله (عز وجل) : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}[الأحقاف: ١٥] .

إن من فضل الله (عز وجل) على العبد أن يُوفق إلى البر بالوالدين وخاصة الأم ، فمن هُدي إلى ذلك فقد ساق الله (عز وجل) إليه خيرًا عظيمًا ، وفضلًا كبيرًا ؛ يرى أثره بركةً وتوفيقًا وسدادًا فِي الدُّنيَا ، ويرجو ثوابه رحمةً ومغفرةً ونجاةً فِي الآخرة . وإن للبر بالأم فضائل وثمراتٍ يجنيها البارُّ في دنياه وأخراه ، منها:

* **قضاء الحاجات** ، **وتفريج الكربات** ، **واستجابة الدعوات** ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، قَالَ: (بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ ، أَخَذَهُمُ المَطَرُ ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ ، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ ، قَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ ، كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ ، وَإِنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ ، فَوَجَدْتُهُمَا نَامَا ، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ حَتَّى طَلَعَ الفَجْرُ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ لَنَا فَرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ ، فَفَرَجَ اللَّهُ ، فَرَأَوُا السَّمَاءَ . . .) (صحيح البخاري)، ثم تضرع كل واحد من صاحبيه بعمل أخلص فيه لله (عز وجل) ففرج الله عنهم ما كانوا فيه من ضيق وشدة .

ووفد أناس من أهل اليمن على سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فسألهم: أفيكم أويس بن عامرٍ ؟ حتى أتى على أويسٍ ، فقال: أنت

أويس بن عامرٍ ؟ قال: نعم ، قال: من مرادٍ ، ثم من قرنٍ ؟ قال: نعم ، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهمٍ ؟ قال: نعم ، قال: لك والدة؟ قال: نعم ، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يقول: (يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ ، إلا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ) ، فاستغفرْ لي ، فاستغفر له ، فقال له سيدنا عمر (رضي الله عنه): أين تريد ؟ قال: الكوفة ، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال: أكون في غبراء الناس أحبُّ إليَّ (صحيح مسلم) ، ففي كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) إشارة إلى أن استجابة الله (عز وجل) لدعائه كان بسبب بره أمه .

* **عظم الأجر والثواب**: فعَنْ مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟) قُلْتُ: نَعَمْ ، قَالَ: (ارْجِعْ فَبِرَّهَا) ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟) قُلْتُ: نَعَمْ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (فَارْجِعْ إِلَيْهَا فَبِرَّهَا) ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ مِنْ أَمَامِهِ ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ الْجِهَادَ مَعَكَ ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، أَحَيَّةٌ أُمُّكَ ؟) قُلْتُ: نَعَمْ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (وَيْحَكَ ، الْزَمْ رِجْلَهَا ، فَثَمَّ الْجَنَّةُ) (سنن ابن ماجه) .

وعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَرَأَى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مِنْ جَلَدِهِ وَنَشَاطِهِ مَا أَعْجَبَهُمْ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ اللهِ . . .) (المعجم الصغير للطبراني) .

* **تكفير الذنوب والسيئات** ، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ (رضي الله عنهما) أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ ؟ قَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟) ، قَالَ: لاَ ، قَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ ؟) ، قَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: (فَبِرَّهَا) (سنن الترمذي) .

* **الفوز بالجنات ، والرفعة في الدرجات** ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ (رضي الله عنه) ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ ؟ قَالَ: (الصَّلَاةُ عَلَى مَوَاقِيتِهَا) قُلْتُ: وَمَاذَا يَا نَبِيَّ اللهِ ؟ قَالَ: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ . . .) (صحيح مسلم) ، وعن السيدة عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (نِمْتُ ، فَرَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (كَذَاكَ الْبِرُّ ، كَذَاكَ الْبِرُّ) ، وَكَانَ حارِثةُ أَبَرَّ النَّاسِ بِأُمِّهِ (مسند أحمد) .

فلنكن بارين بآبائنا وأمهاتنا ، أوفياء لهم ، ولنوقن بأن البرَّ دَيْنٌ والعقوقَ كذلك ، وكما تدين تدان ، فإن عقوق الوالدين مما يعجل الله (تعالى)

به العقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، مصداقًا لقول النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (اثْنَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّهُ: الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) (الأدب المفرد) ، وفي الحديث الشريف: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مَنَّانٌ وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ) (مسند أحمد) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمينَ ، والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين ، صَلى الله وسلم وبارك عليهِ ، وعَلى آلهِ وصحْبهِ أَجمعينَ ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين .

إخوة الإسلام:

إن البرَّ بالوالدين – وخاصة الأم – محلُ اتفاق بين جميع الشرائِع السَّماويةِ ، حيث يقول سبحانه: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إلا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }[البقرة: ٨٣] ، ويقول سبحانه مخاطبًا الناس جميعًا: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤] .

ولقد قطع الإسلام طريق العقوق على كل من تسول له نفسه ذلك ، فقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تدينًا من والديه ، فيغلظ لهما القول أو يسيء معاملتهما ، فنقول لأمثال هؤلاء: إن الشرع الحنيف يأمرنا بالإحسان إلى الوالدين ، والبر بهما حتى ولو كانا كافرين؛ وذلك حتى لا يتعلل عاق بعدم صلاح والديه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي

الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٥] ، وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى الله عَلَيْهِ وسلم) وَهِيَ رَاغِبَةٌ (أي في أن أصلها) ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، قُلْتُ: أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ: (نَعَمْ؛ صِلِي أُمَّكِ) (متفق عليه) .

فالوالدان حتى مع كفرهما أو حتى حال محاولتهما أن يحملاك على معصية الله أو حتى على الكفر فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا يخول لك سوء معاملة أي منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك كما أمرك الحق سبحانه وتعالى ، فقال: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان: ١٥] ، وينبغي عليك أن تدرك أن ذلك ليس تفضلًا منك ، إنما هو حق وواجب عليك تأثم إن قصرت فيه أو لم تقم به .

فطُوبَى لمَنْ أحسَن إلىَ أمِّهِ واجتهدَ في برها وسعى إلى رَضَاها ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسَخَطُ اللَّهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ) (شعب الإيمان) .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار
واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

حقوق الطفل قبل ولادته

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ فِي كتابهِ الكريم: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ } [الشورى: ٤٩] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فممَا لا شكَ فيه أن الزواجَ سنةٌ من سننِ اللهِ (عز وجل) في الخلقِ ، وآيةٌ من آياتِه ، وهو مسئوليةٌ كبيرةٌ ، وميثاقٌ غليظٌ، شرعهُ الإسلامُ ليسكنَ كل من الزوجين إلى بعضِهما البعض فِي مودةٍ ورحمةٍ ، وليكونَ سبيلًا للتناسلِ ، واستمرارِ الحياةِ البشريةِ .

واتساقًا مع الفطرةِ الإنسانيةِ ؛ فإنّ كلّ إنسانٍ يرغبُ في ذريةٍ من بعدهِ تكونُ سببًا في بقاءِ ذكرهِ ، واستمرارِ أثرهِ بعدَ مماتِه ، حيثُ يقولُ سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم: ٢١] ، ويقول سبحانه: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [النحل: ٧٢] .

ولقد اهتمَ الإسلامُ بالنسلِ الذي هو ثمرةُ الزواجِ اهتمامًا بالغًا في جميعِ مراحلِ حياتِه ؛ فأطفالُ اليوم همْ شبابُ الغدِ ، وهم قادةُ المستقبل ، ولقد بلغَ من اهتمامِ الإسلامِ بالنسلِ أن جعلَ للطفلِ حقوقًا قبلَ مولدهِ ، بل

وقبلَ أن يصبحَ جنينًا فِي بطنِ أمه ؛ لتتحققَ له حياةٌ طيبةٌ كريمةٌ وَفق الضوابطِ الشرعيةِ والقواعدِ التربويةِ الإنسانيةِ .

ومن مظاهرِ هذَا الاهتمام حديثُ النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الباءةِ ؛ وهي القدرةُ على تحمل أعباءِ الزواج ، حينَ قالَ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه) ، فالباءةُ هي القدرةُ على الوفاءِ بحق الزوجيةِ ، وعلى ذلكَ فالباءةُ لا يمكنُ أن تُحصرَ أو تُقصرَ على القدرةِ والطاقةِ الجنسيةِ فحسب ، إذ لو كانت الباءةُ المطلوبةُ هي القدرةُ الجسديةُ فحسب ، لَمَا عقَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) على قوله: (يَا مَعْشَرَ الشّبَابِ ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتزَوّجْ) بقولهِ: (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصّوْمِ) ، حيثُ يذكرُ الفقهاءُ أن التوجيهَ هنا إلى الصومِ لمَا لهُ من أثرٍ في كسرِ حدة الشهوةِ لدى الشبابِ غيرِ القادرِ على تحملِ تبعاتِ الزواجِ ومسئولياتهِ الماليةِ والاجتماعيةِ والنفسيةِ، وإلا لمَا كان لهذَا التعقيبِ أثر ، وَلكان على كل من استطاعَ البَاءَة الجسديةَ أن يتزوجَ بغضِ النظرِ عن الاعتباراتِ الأخرى .

وعليهِ فإن الباءةَ تعني القدرةَ العامةَ على قيادةِ سفينةِ الحياةِ الزوجيةِ بما تقتضيهِ وتتطلبهُ من تبعاتٍ اقتصاديةٍ ومسئولياتٍ اجتماعيةٍ نظلمُ أبناءَنا وبناتِنا ظلمًا كبيرًا إن حمّلناهم إياهَا دونَ احتمالهم لهَا ، أو قدرتهم على هذا الاحتمالِ ، أو حتى مجردِ إدراكهم لما يقتضيهِ واجبُ كلٌّ من الزوجينِ تجاهَ الآخرِ من حقوقٍ وواجباتٍ ومسئولياتٍ ، وما لم نهيئ لهم ما يغلبُ على الظن معَه على أقلِ تقديرٍ نجاح هذَا الارتباط ،

وإلا فمَا سِرّ حالاتِ الطلاقِ المرتفعةِ بين الشبابِ المتزوجينَ حديثًا إن لم يكنْ عدمُ تأهيلهِم وتهيئتهِم بالقدرِ الكافِي وإدراكُ كلٍّ منهم لمَا تتطلبهُ وتقتضيهِ حقوقُ بناءِ الأسرةِ السويةِ كأساسٍ لبناءِ مجتمعٍ سوِيٍّ متماسكٍ قادرٍ على صنعِ الحضارةِ واقتحامِ عبابِ الحياةِ الصعبة .

وإن من صورِ الاستعدادِ والتهيئةِ قبل الزواج: **الاستعدادُ الصحيّ** ، بأن يكونَ الزوجان في حالةٍ صحيةٍ تؤهلهما لبناءِ أسرةٍ قويةٍ ، ويعرفُ ذلكَ من خلال توقيعِ الكشفِ الطبيّ عليهمَا ، والذي أصبحَ ضرورةً عصريةً ، لما يترتبُ عليه من ضمانِ التوافقِ الصحي بين الزوجينِ من عدمه حتّى لا يدفعَ الطفلُ ضريبةً لا دخلَ لهُ فيها ، فإنّ من حقِ الطفلِ أن ينبتَ قويًّا يافعًا سليمًا ، غيرَ مبتلى بأمراضٍ عُضالٍ يرثهَا من أحدِ والديه ، وقد أجاز الفقهاءُ منعَ المرأة من الإنجابِ إذا كان يُخشى منه ضررٌ على حياتِها مستقبلًا ، أو انتقالُ مرضٍ مُهلِكٍ إلى الجنين .

ويدخلُ في هذا الحقِ ما دعَا إليهِ أهلُ الطبِ من التحذيرِ من زواجِ الأقاربِ لمَا يترتبُ عليه في بعضِ الحالاتِ من انتشارِ عددٍ من الأمراضِ الوراثيةِ ، ومن الفقهاءِ من تحدثَ عن فضلِ الاغترابِ في الزواجِ ، حيثُ إنه يوسعُ الروابطَ الأسريةَ والصِّلاتِ بين الناس ، كمَا أكدَ علماءُ الهندسةِ الوراثيةِ بأنه يقوِّي النسلَ .

ومن صور الاستعدادِ الصّحي التأكدُ من أن كلا من الرجل والمرأةِ في سنٍ قادرةٍ على تحملِ أعباءِ وتبعاتِ الزواج ، ولا شكَ أن الإقدامَ على تزويجِ القاصراتِ اللاتي لم يكتملْ نضجهنّ عقلًا وجسمًا فيه ما فيهِ من الضررِ والظلم للطفل الذي لن يجدَ من يقومُ بحق رعايتهِ ، وليس لأحدٍ يُحتج بأن العرف قد جرى بزواج الصغيرة بعد بلوغها في بعض

الأماكن ، فإذا كان العرف ضابطًا معتبرًا لدى الفقهاء فإن العرف لا يقصد به العرف الخاص ، إنما هو العرف العام الذي تعارف عليه القوم وإن لم يسنوه قانونًا ، فما بالكم إذا تعارف عليه القوم وسنوه قانونًا أو أقرته مجالسهم النيابية في ضوء الدستور الذي اصطلحوا عليه وارتضوه لتسيير شئون حياتهم وتنظيم حركتها ، ناهيك عما قرره الشرع من حق الحاكم في تقييد المباح للمصلحة المعتبرة بما لا يتعارض مع نصٍ صريحٍ قطعي الثبوت والدلالة .

ومن هذه الحقوق التي ينبغي أن يعلمها الزوج قبل الزواج: **حق الطفل في الكفاية المادية** ، فقد ألزم الإسلام الرجل أن يكون قادرًا على تحمل تبعات الزواج المادية قبل الزواج ؛ لأن الزواج مسؤولية مادية ومعنوية يتحملها الشاب ، فإن استعد لها أقدم عليها ، وإن كان معدمًا وجب عليه أن يتعفف ، ولا يقحم نفسه فيما يجلب الضرر له ولغيره ممن تلزمه نفقتهم ، حيث يقول سبحانه: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ} ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ) (سنن أبي داود) .

كذلك من حق الطفل أن يكون له أبوان صالحان: حتى ينشأ في أسرة صالحة تُحسن تقويمه وتأديبه وتربيته ، ففي ظلال الأسرة السوية المتماسكة تنمو الخلال الطيبة ، وتنشأ الخصال الكريمة ، ويعيش النشء الصالح حيث تسود المودة ، وتنتشر الرحمة في جنبات هذا البيت الكريم ، لذا أمر الشرع الحنيف الرجلَ أن يحسن اختيار الزوجة ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا ،

وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ) (متفق عليه) ، وكما أمر الشرع الحنيف الرجل بحسن اختيار الزوجة ، أمر ولي المرأة كذلك بحسن اختيار الزوج ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) مخاطبًا وليّ المرأة : (إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ) (سنن الترمذي) ، فقد اشترط الإسلام الدينَ ، على أن يكون مَرْضِيًّا لا أي دين كان ، والخلق ، على أن يكون مَرْضِيًا ، لا أي الخلق كان ، وعلى ألا يُخدع الناس بالمظهر أو العرض دون الجوهر واللباب ومعدن النفس وكريم الأخلاق .

ومما لا شك فيه أن صلاح المرأة عائد على زوجها وبيتها وأولادها ، فعندما جاء رجل إلى الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر سيدنا عمر (رضي الله عنه) الوالد وابنه ، وعاتبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد: يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال: بلى ، قال: فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر (رضي الله عنه) : أن يتخير أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (أي القرآن) ، قال الولد: يا أمير المؤمنين إن أبي هذا لم يفعل شيئًا من ذلك، فقد سماني جُعلا (حيوان كالخنفساء يكثر في المواضع النَّدِيَة) ، ولم يعلمني من الكتاب حرفًا واحدًا ، فالتفت سيدنا عمر إلى الرجل وقال له: جئت إلي تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسيئ إليك . (تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي) ، وقد قال أبو الأسود الدؤلي لبنيه يومًا: يا بني ، لقد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا ، وقبل أن تولدوا ، قالوا : وكيف أحسنت

إلينا قبل أن نولد ؟ قال: اخترت لكم من الأمهات من لا تعيّرون بها . (أدب الدنيا والدين للماوردي) .

ومن الجدير بالذكر أنَّ الإسلام قد جعل اختيار الزوج حقًّا أصيلًا للمرأة كما هو حق للرجل ، ولكي تُبدي المرأة موافقتها على النكاح لابد أن تكون عاقلة واعية رشيدة ، حتى يتسنى أخذ إذنها ومشاورتها ، وأن تكون قد بلغت سنًّا تكون معها قادرة على اختيار الكفء لها ، فقد نهى الإسلام عن إكراه المرأة أو الفتاة على الزواج ، فقد جَاءَتْ فَتَاةٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَقَالَتْ: إِنَّ أَبِي زَوَّجَنِي ابْنَ أَخِيهِ لِيَرْفَعَ بِي خَسِيسَتَهُ ، فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ : قَدْ أَجَزْتُ مَا صَنَعَ أَبِي ، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ تَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنْ لَيْسَ إِلَى الْآبَاءِ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ (مسند أحمد) ، كما ينبغي أن يكون كِلا الزوجين مؤهلَين لتحمل تبعات الزواج ومسئولياته بكل أبعاده وجوانبه .

ومن مظاهر الحفاظ على حق الطفل في الحياة: إباحة الفطر في رمضان للحامل والمرضع إذا كان في الصيام ضرر عليها أو على جنينها ، فعن أَنَسٍ (رضي الله عنهُ) ، عَنْ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ الْمُسَافِرِ نِصْفَ الصَّلَاةِ ، وَالصَّوْمَ ، وَعَنْ الْحُبْلَى وَالْمُرْضِعِ) (سنن النسائي) .

ومن هنا يتبين لنا مدى حرص الإسلام واهتمامه بحق الطفل في الحياة التي وهبه الله إياها ، فلا يؤثر على استحقاقه لها أي سبب من الأسباب راعية لهذا الحق .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر عدم الحفاظ على حق الطفل: إكثار رب الأسرة من الإنجاب دون مراعاة لحالته المادية وظروفه الاجتماعية وحال زوجته الصحية بشكل يؤثر على تربية أطفاله فلا يستطيع أن ينفق عليهم ، أو يعلمهم ، أو يُحسن تربيتهم فيصبحوا عبئًا ثقيلًا على المجتمع ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية ، مع تأكيدنا أن السعة والضيق في هذه القضية لا تقاس بمقاييس الأفراد بمعزل عن أحوال الدول وإمكاناتها العامة في الصحة والتعليم والإسكان والبنى التحتية .

وعليه فإننا نؤكد أن تنظيم النسل قضية شرعية ووطنية ، وهو واجب الوقت ، فالكثرة التي تدعو إلى المباهاة هي الكثرة العظيمة النافعة القوية المنتجة ، التي لا يمكن أن تكون عالة على الآخرين في طعامها وكسائها ودوائها ، أما الكثرة الضعيفة الهزيلة التي تكون عالةً على غيرها فهي التي شبهها النبي (صلى الله عليه وسلم) بغثاء السيل ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا) قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ: (أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ) (سنن أبي داود) ، فهي كثرة مذمومة لا ممدوحة ، فإن العبرة والمباهاة

الحقيقية تكون بالكيف لا بالكم ، وهنا تكون القلة القوية خيرًا ألف مرة ومرة من الكثرة الضعيفة ، وصدق الله تعالى حيث قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم: ٦] .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار

واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

* * *

في رحاب الإسراء والمعراج

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الإسراء:١] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَن تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فمما لا شك فيه أنَّ رحلة الإسراء والمعراج رحلة ذات أسرار عظيمة ؛ فهي رحلة فريدة في تاريخ الإنسانية ، جاءت تكريمًا لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وتسرية عنه (صلى الله عليه وسلم) بعد سنوات ذاق خلالها هو وأصحابه ألوانًا من الاضطهاد والأذى والتكذيب ، وبعد أن فقد في أيام معدودة من السنة العاشرة من البعثة عمه أبا طالب الذي كان سندًا له في حياته ، وزوجته العاقلة الحنون السيدة خديجة (رضي الله عنها) التي كانت حصنًا وملاذًا آمنًا يلجأ له عند شدته .

ولقد ازداد همُّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد رحلة الطائف الحزينة التي كانت أشد المواقف صعوبة في حياته الشريفة ، فبعد أن أصابه من أذى قومه وغيرهم ما أصابه ، خرج (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف لعله يجد عند أهلها النخوة أو النصرة ، فكانوا أشد أذى وقسوة عليه (صلى الله عليه وسلم) من بني قومه ، ذلك أنهم سلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، فتوجه (صلى الله عليه وسلم) وهو في طريق عودته إلى ربه

بهذا الدعاء الحنون الذي يحمل كل معاني العبودية والانكسار لله (تعالى) وحده لا لأحد سواه ، قائلًا: (اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك ، أَوْ يَحِلّ عَلَيّ سُخْطُكَ ، لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك) (المعجم الكبير للطبراني) .

ومن هنا ، ومن قلب كل هذه المحن كانت المنحة الربانية العظيمة ، رحلة الإسراء والمعراج التي أطلع الله (عز وجل) نبيه (صلى الله عليه وسلم) فيها على حقائقَ غيبيةٍ ، وأسرارٍ كونيةٍ ، لم يطلع عليها ملك مقرب ولا نبي مرسل تكريمًا له (صلى الله عليه وسلم) ، وتثبيتًا لقلبه ، ولكي يزداد إيمانًا ويقينًا وثقةً في أنه في معية الله (عز وجل) وفي كفالته وعصمته ، ولله در الإمام البوصيري حين قال:

سريتَ من حرمٍ ليلًا إلى حرمٍ ... كما سرى البدرُ في داجٍ من الظلمِ
وَبِتَّ تَرْقَى إلَى أنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً ... من قابِ قوسينِ لم تدركْ ولم ترمِ
وقدَّمتكَ جميعُ الأنبياءِ بها ... والرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

إن معجزة الإسراء والمعراج من أجَلِّ المعجزات وأعظم الآيات التي أكرم بها الحق سبحانه وتعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ونحن في رحاب هذه الذكرى العطرة فلنقف مع بعض الدروس والعبر المستفادة من هذا الحدث الجليل .

أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع صدق التوكل على الله (عز وجل)، فقد سخر الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) البراق ليكون وسيلة انتقاله في رحلته مع أن الله (عز وجل) كان قادرًا على أن يسري بنبيه دون وسيلة ، وعلى الرغم من يقين النبي (صلى الله عليه وسلم) الكامل وصدق توكله على الله (عز وجل) إلا أنه عندما وصل إلى بيت المقدس ربط البراق الذي سخره الله تعالى له ، تعليمًا للأمة بضرورة الأخذ بالأسباب ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (. . فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ) (صحيح مسلم) ، يقول الإمام النووي: "وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور ، وتعاطي الأسباب ، وأن ذلك لا يقدح في التّوكّل" .

فالمؤمن الحقيقي يعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله ، ويتوكل على الله توكل رجل يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله (عز وجل) له ، وهذا الفهم المتوازن هو المقصود من قوله (صلى الله عليه وسلم) في جانب الأخذ بالأسباب: (إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا) (مسند أحمد) ، ومن قوله (صلى الله عليه وسلم) في جانب التوكل: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا) (سنن ابن ماجه) .

أخوَّة جميع الأنبياء والمرسلين ، فالأنبياء والمرسلون جميعًا أصحاب رسالة واحدة في الأصول والعقائد ، وإن اختلفت في الشرعة والمنهاج ، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا

أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] ، وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ) (صحيح البخاري) .

وكان سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يقول في شأن الوصايا العشر التي جاءت في قوله تعالى: { قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النّفْسَ الَّتِي حَرّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقّ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتّى يَبْلُغَ أَشُدّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتّقُونَ} [الأنعام: ١٥١ –١٥٣] "هذه آيات محكمات لم تنسخ في أي شريعة من الشرائع ، أو ملة من الملل ، وهى محرمات على بني آدم جميعًا ، وهن أم الكتاب –أي أصله وأساسه – من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار" .

ولقد كان من الآيات الكبرى التي أكرم الله (عز وجل) بها نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن جمع له الأنبياء والمرسلين في بيت المقدس ، وصلى بهم إمامًا ، كما استقبلوه (صلى الله عليه وسلم) في السموات العلا قائلين: (مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ) ، وكان ذلك إيذانًا بانتقال الإمامة في الأرض إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وفي نفس الوقت تطبيقًا عمليًّا للعهد والميثاق الذي أخذه الله (سبحانه وتعالى) عليهم ،

حيث يقول سبحانه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١] ، قال عليُّ بنُ أبي طالب ، وعبد الله ابنُ عباس (رضي الله عنهما): "ما بعثَ اللهُ نبيًّا من الأنبياء إلاّ أخذ عليه الميثاقَ لئن بعثَ اللهُ محمّدًا (صلى الله عليه وسلم) وهو حيٌّ ليؤمنن بهِ ولينصرنّه ، وأمرهُ أن يأخذَ الميثاقَ على أمته ، لئن بعثَ اللهُ محمّدًا (صلى الله عليه وسلم) وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه" .

مكانة المسجد الأقصى إلى جانب المسجد الحرام : فقد انتهى إليه إسراء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومنه بدأ معراجه إلى السموات العلى ، ثم إلى سدرة المنتهى ، كما أنه أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال من أجل الصلاة وثوابها ، كما أنه ثاني مسجد بني على الأرض ، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الأَقْصَى) قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً) ، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ) (صحيح البخاري) ، وصلاة فيه خير من خمسمائة صلاة فيما سواه عدا المسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (فَضْلُ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى غَيْرِهِ مِائَةُ أَلْفِ صَلَاةٍ ، وَفِي مَسْجِدِي أَلْفُ صَلَاةٍ ، وَفِي مَسْجِدِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَمْسُمِائَةِ صَلَاةٍ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فالمسجد الأقصى جزء لا يتجزأ من

المقدسات الإسلامية ، فهو ذو مكانة في قلوب أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو أمانَةٌ في أعْناقِ المسلمينَ جميعًا ، فلا ينبغي أن نفرط فيها ، أو نتهاون في الحفاظ عليها ، كما يجب علينا أن نغرس في أبنائنا هذا المعنى ، حتى لا تنسى الأجيال القادمة مكانة وقدسية المسجد الأقصى لدى جميع المسلمين .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ .

إخوة الإسلام:

مع مطلع إبريل من كل عام يحتفي العالم كله بيوم اليتيم ، على أن تعاليم ديننا الإسلامي السمح قد سبقت كل المنظمات الإنسانية في العناية باليتيم والوفاء بحقه ، حيث يقول سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٠] ، والمتدبر في الآية الكريمة يرى أن التعبير القرآني قد جاء بكلمة (إصلاح) ليكون شاملًا لكل وجوه العناية والرعاية ، فالإصلاح اسم جامع لكل ما يحتاج إليه اليتيم ، فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًّا وعطاءً ماديًّا ، وربما يكون اليتيم غنيًّا فيحتاج إلى التقويم والتربية ، فيكون الإصلاح هنا رعاية وتربية ، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على شئون زراعته أو صناعته فيكون الإصلاح هو القيام

بذلك ، وقد لا يحتاج إلى هذا ولا ذاك ، وإنما تكون حاجته إلى العطف والحنو والإحساس بمشاعر الأبوة فيكون الإصلاح بتوفير ذلك له ، وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه واعوجاجه وتهذيب سلوكه وأخلاقه ، وبهذا المعنى الشامل للرعاية والكفالة جاءت النصوص القرآنية والنبوية تحثنا وتدعونا إلى إصلاح أحوال اليتامى ، ورعاية شئونهم .

وقال نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وَقَرَنَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى) (مسند أحمد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ) (الأدب المفرد) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (كَافِلُ الْيَتِيمِ –لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ– أَنَا وهُوَ كهَاتَيْنِ في الجَنَّةِ ، وأَشار بِالسَّبَّابةِ والْوُسْطى) (صحيح مسلم) .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار

واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين

*   *   *

دروس وعبر من تحويل القبلة

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيه ، وَعلَى آله وصحبِهِ أجمعين .

وبعــد :

فإن العطايا الربانية ، والنفحات الإلهية للأمة المحمدية في شهر شعبان أكثر من أن تحصى أو تعد ، وإن من الأحداث العظيمة التي نحتفي بها في شهر شعبان حدث تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ، ذلكم الحدث الذي يعدّ من أهم الأحداث في تاريخنا الإسلامي ؛ حيث استجاب الحق (سبحانه وتعالى) لرغبة حبيبه ومصطفاه (صلى الله عليه وسلم) ، وحقق له أمله ورجاءَه بالتوجه في الصلاة إلى الكعبة المشرفة ، قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام) .

فقد كان (صلى الله عليه وسلم) قبل الهجرة يتوجه في صلاته – بأمر ربه – إلى بيت المقدس ، واستمر على ذلك بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر شهرًا – أو سبعة عشر شهرًا – ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يتلهف شوقًا إلى نزول الوحي عليه يأمره بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فكان

يرجو الله (تعالى) بقلبه ، ويدعوه سبحانه بلسان حاله ، موقنًا بأن ربه (جل في علاه) سيحقق رجاءَه ، فاستجاب الله تعالى له ، وأمره أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة المشرفة ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: ١٤٤].

ومما لا شك فيه أن المتدبر بعين الاعتبار والعظة في حدث تحويل القبلة يقف على الكثير من الدروس والعبر المستفادة من هذا التكريم الإلهي للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومن أهم هذه الدروس: **عظيم مكانة النبي (صلى الله عليهِ وسلم) ورفعة شأنه ، وبيان منزلته عند ربه** ، وهو ما يتجلى في قول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم): {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} [البقرة: ١٤٤] ، فضلًا منه ومِنَّةً وكرمًا ، وبيانًا لعظيم منزلة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، تماما كما قال له: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: ٥] ، وامتدادًا لفضل ربه سبحانه عليه ، كيف لا ؟ وهو الذي شرح له صدره ، فقال: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]، ووضع عنه وزره، فقال: {وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ} [الشرح: ٢]، وغفر له ذنبه ، فقال: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح: ١ ، ٢]، وزكى لسانه ، فقال: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} [النجم: ٣] ، وزكى فؤاده ، فقال: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} [النجم: ١١] ، وزكى عقله ، فقال: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} [النجم: ٢]، وزكى بصره ، فقال: {مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى} [النجم: ١٧]، وزكى

مُعلمه ، فقال: {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: ٥]، وزكى خُلقه ، فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وزكاه كله ، فقال: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١] .

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة: **وجوب تمسك الأمة بالمنهج الوسطي المعتدل** ، فلقد أصّل هذا الحدث العظيم مبدأ وسطية هذه الأمة ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطًا لتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} [البقرة: ١٤٣] .

تلك الوسطية التي يتسع مفهومها ليشمل كل مناحي الحياة دون إفراط أو تفريط ، فهي العدل والحُسن ، والتوسط والتوازن ، وحري بنا أن نعود إلى هذه الوسطية التي شرفنا الله (عز وجل) بها ، وأن نكون حقًّا وسطيين في جميع شئوننا ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} [الإسراء: ٢٩] ، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[الفرقان: ٦٧] . ويقول الإمام الأوزاعي (رحمه الله): "ما أمر الله (عز وجل) في الإسلام بأمر إلا حاول الشيطان أن يأتيك من إحدى الجهتين ، لا يبالي أيهما أصاب؛ الإفراط ، أو التفريط" (المقاصد الحسنة للسخاوي) ، ومن هنا يجب أن نلتزم منهج التيسير والسماحة ، لا منهج التسيب والتفريط، منهج الالتزام الديني والقيمي والأخلاقي ، دون أي تشدد ، أو تطرف .

ثم إن شهادة أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) على سائر الأمم – على قدر ما تقتضي من التكريم – تلزم الأمة أن تقوم بواجبها حق القيام حتى

تكون أهلًا لهذه الشهادة ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (يُؤْتَى بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ) ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} . (صحيح البخاري ، والآية من سورة [البقرة: ١٤٣] .

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة: **سرعة استجابة المؤمنين لأمر الله تعالى وأمر رسوله (صلى الله عليه وسلم)**: فهذا الحدث كان علامة فارقة في ثقة الصحابة (رضي الله عنهم جميعًا) في كل ما أتاهم به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من عند الله (عز وجل) ، فقد شرح صدورهم للحق ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣] ، فضربوا أروع الأمثلة في سرعة الاستجابة لله (عز وجل) ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فبمجرد صدور الأمر الإلهي بالتحول في الصلاة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، استجاب المؤمنون لهذا الأمر ، وتحولوا – وهم في صلاتهم – موقنين طائعين غير مجادلين إلى بيت الله الحرام لإتمام صلاتهم ، فما انتظروا حتى تنتهي الصلاة ، وما ترددوا في الامتثال للأمر؛ وإنما تحولوا في الحال – وهم في هيئة الركوع – من بيت المقدس إلى البيت الحرام ، فعن ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قال: (بَيْنَما النَّاسُ بِقبَاءٍ

فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَد أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا ، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ) (متفق عليه) .

ومن الدروس أيضًا: **أهمية الصلاة ومكانتها** ، **وبيان رحمة الله تعالى الواسعة بعباده** ؛ فقد ربط القرآن الكريم بين الصلاة وبين حدثين عظيمين يعدان من أبرز الأحداث في تاريخ الإسلام: معجزة الإسراء والمعراج ، حيث فرضت الصلاة من فوق سبع سماوات ليلة الإسراء والمعراج ؛ بيانًا لعظيم شأنها ، وجليل قدرها ، كما ربطها القرآن الكريم بحدث تحويل القبلة ، وعبر عنها بلفظ الإيمان ، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ }[البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم السابقة ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: لما وُجِّه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الكعبة ، قالوا: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله جل ثناؤه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣] (صحيح البخاري) ، فهذه طاعة ، وتلك طاعة ، وفي ذلك طمأنة لهم على قبول صلاتهم السابقة تجاه بيت المقدس ، ثم جاء ختام الآية بردًا وسلامًا على قلوب المؤمنين وترغيبا للناس أجمعين ، حيث يقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٤٣] ، فإذا كان الله تعالى رءوفًا رحيمًا بالناس ، فهو أشد رأفة ورحمة بعباده المؤمنين .

ومن الدروس والعبر المستفادة من تحويل القبلة ، **الرباط الوثيق بين المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد الأقصى بالقدس الشريف** ، وإظهار العلاقة القوية بينهما ، فالمسجد الحرام هو أول مسجد

وضع لعبادة الله (عز وجل) في الأرض ، والمسجد الأقصى هو ثاني المساجد ، فعن أَبِى ذَرٍّ (رضي الله عنه) قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلُ ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ) ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: (الْمَسْجِدُ الأَقْصَى) ، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ: (أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ) (متفق عليه) .

لقد ربط تحويل القبلة بين المسجدين برباط وثيق كما ربط الإسراء والمعراج بينهما كذلك ، فقال الحق جل شأنه: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الإسراء: ١] ، ومن ثم يجب حمايتهما معًا ، وعدم التفريط في أي منهما ، فهما أمانة في أعناق المسلمين جميعًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمينَ ، وأشهدُ أن لاَ إلهِ إلا اللهُ وحدَه لاَ شريكَ له ، وأشهدُ أنّ سيدَنا ونبينَا مُحمّدًا عَبدهُ وَرَسُولُه ، اللهُم صَلّ وسلم وبارك عليهِ ، وعَلى آلهِ وصحْبِهِ أَجمعينَ ، ومن تبعهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام:

لقد تميزت حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإيجابية في كل مراحلها، فقد شهد (صلى الله عليه وسلم) وهو في الخامسة عشرة من عمره حلف الفضول الذي تداعت إليه قبائل قريش واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان ، وتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من

أهلها أو من غير أهلها إلا نصروه ، وكانوا على من ظلمه يدًا واحدة حتى يردوا إليه حقه ، قال (صلى الله عليه وسلم): (لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ) (أخبار مكة للفاكهي ، والسنن الكبرى للبيهقي) .

وفي الخامسة والثلاثين من عمره شارك (صلى الله عليه وسلم) في تجديد بناء الكعبة بحمل الحجارة على كتفيه ، وقضى على بوادر خلاف عظيم كاد يحدث بين بطون قريش آنذاك حينما تنازعوا فيما بينهم رغبة في أن ينال كل منهم شرف وضع الحجر الأسود مكانه ، فنزلوا على رأي رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) الذي مُثّلت فيها القبائل كلها في وضع الحجر في مكانه .

ثم كان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بعد البعثة أسوة وقدوة في الإيجابية، كما كان أسوة وقدوة في كل شيء ، فكان (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أحسن الناس ، وأشجع الناس ، وأكرم الناس ، وعن عَلِيّ (رضي الله عنه) قال: (كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَلَا يَكُونُ أَحَدٌ مِنَّا أَدْنَى إِلَى الْقَوْمِ مِنْه) (مسند أحمد) ، وقد شارك (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أصحابه في حفر الخندق .

ولقد حث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) أمته على الإيجابية وحذّرها من السلبية فقال (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (لا يكُنْ أحَدُكُمْ إِمّعَة ، يقول: أنا مع الناس ، إن أحْسَنَ الناسُ أحسنتُ . وإن أساءوا أسأتُ ، ولكن وَطِّنُوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحْسِنُوا ، وإن أساءوا أن لا تظلِمُوا) (سنن الترمذي) .

والإيجابية تعني ، شعور الإنسان بمسئوليته تجاه دينه ووطنه ، فحب الإنسان لوطنه لا يقف عند المشاعر والعواطف والأحاسيس فحسب ، وإنما ينبغي أن يترجم إلى سلوك وعمل ، فالإنسان الإيجابي: هو الذي يتفاعل مع قضايا مجتمعه ، ويتأثر بمحيطه ويؤثر فيه بكل ما هو نافع .

ولا شك أن من مظاهر الإيجابية المشاركة الجادة في كل ما يخدم المجتمع ويؤدي إلى بناء الدول والحفاظ على أمنها واستقرارها وتقدمها ، سواء أكان ذلك بالدفاع عنها ، أم بالعمل والإجادة والإتقان ، أم بالتكافل والتراحم بين أبناء الوطن الواحد ، أم بالمشاركة الإيجابية الجادة في كل الاستحقاقات الدستورية والوطنية ، مع التحلي بأقصى درجات الأمانة في تقديم كل ما من شأنه رفعة الوطن وفق ما يمليه الضمير الوطني الحر على كل وطني شريف ، حيث يقول شوقي:

وَلِلأَوطانِ في دَمِ كُلِّ حُرٍّ يَدٌ   سَلَفَت وَدَينٌ مُستَحِقُّ

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه واحفظ مصر وشعبها وجيشها وشرطتها

* * *

رمضان شهر عبادة وعمل

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، القَائِل في حديثه الشريف: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فمن فضل الله (عز وجل) على عباده أن جعل لهم مواسم للخيرات ، تتوالى فيها النفحات ، وتتنزل فيها الرحمات ، ويتضاعف فيها الأجر ، ويعظم فيها الثواب ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّ لِرَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) (المعجم الكبير) ، وإن من أعظم هذه المواسم شرفًا ، وأكثرها بركةً وفضلًا شهر رمضان المبارك ؛ سيد الشهور وأعظمها ، وأيامه خير الأيام وأفضلها ، ولياليه أصفى الليالي وأطهرها ، ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستبشر بقدوم رمضان ، ويبشر أصحابه (رضوان الله عليهم) بهذه المنحة الربانية ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَتَاكُمْ رَمَضَانُ شَهْرٌ مُبَارَكٌ ، فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَتُغَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ ، وَتُغَلُّ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ) (سنن النسائي) .

ولقد كان الصحابة (رضوان الله عليهم) يدعون الله تعالى أن يبلغهم رمضان ، وأن يعينهم على إحسان العمل فيه ، يقول ابن رجب (رحمه الله): لقد كان كثير من الصالحين (رحمهم الله) يَدْعُون الله ستةَ أشهرٍ أنْ يُبلّغهم شهرَ رمضان ، ثم يَدْعُون الله ستةَ أشهرٍ أنْ يَتقبّله منهم . ويقول يحيى بن أبي كثير (رحمه الله): كان من دعائهم: "اللهم سلمني إلى رمضان وسلم) لي رمضان ، وتسلمه مني متقبلًا " ، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) رَقَى الْمِنْبَرَ ، فَلَمَّا رَقَى الدَّرَجَةَ الْأُولَى قَالَ: آمِينَ ، ثُمَّ رَقَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ: آمِينَ ، ثُمَّ رَقَى الثَّالِثَةَ فَقَالَ: آمِينَ ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، سَمِعْنَاكَ تَقُولُ: آمِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؟ فقالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (لَمَّا رَقِيتُ الدَّرَجَةَ الْأُولَى جَاءَنِي جِبْرِيلُ (عليه السلام) فَقَالَ: شَقِيَ عَبْدٌ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَانْسَلَخَ مِنْهُ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ ، فَقُلْتُ: آمِينَ . . . .) (الأدب المفرد للبخاري) .

ونحن نستعد لاستقبال هذا الضيف الكريم – بعد أيام قليلة – علينا أن نتأسَّى برسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) وأصحابه الكرام ، ونقتدي بهم في عبادتهم وعملهم في هذا الشهر المبارك ؛ فينبغي للمسلم استحضار النية وتجديدها ، فبها يتفاوت العباد عند الله (عز وجل) ؛ لأنها سر قبول العمل ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (صحيح البخاري) ، وعن أبي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) (صحيح مسلم) .

كما ينبغي للمسلم في شهر رمضان الإكثار من الطاعات ومن الأعمال الصالحة ، والالتزام بما أوصى به النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان يفعله، كتعجيل الفطر ، وتأخير السحور ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لا تزالُ أمَّتي بخيرٍ ما عَجَّلوا الإفطارَ وأخَّروا السُّحورَ) (المعجم الكبير) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (تَسَحَّرُوا فإنّ في السَّحُورِ بَرَكَةً) (متفق عليه) ، كما ينبغي عدم الإسراف في الطعام والشراب ، قال الله تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ: فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) (سنن الترمذي) .

وما أجمل أن يستشعر الأغنياء حاجة الفقراء في هذا الشهر الكريم ، فرمضان شهر الجود والكرم والعطاء ، شهر يتجسد فيه معنى الرحمة والرأفة والعطف على اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين بكل صور التكافل ، فيكون ذلك سببًا في إدخال الفرحة والسُّرور عليهم ؛ تأسيًا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كل أحواله ، وخاصة في رمضان ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم)– أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ

جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) – أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ) (متفق عليه) ، وليس ذلك موقوفًا على النفقة فحسب ، بل معناه أوسع من ذلك فيشمل البر والصلة ، والتعاطف والتواد ، ورعاية الحقوق والواجبات .

كما ينبغي أن يحرص المسلمُ على كثرة العبادات ، كقراءة القرآن وتدبر معانيه ، وصلاة القيام ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا واحْتِسَابًا غُفرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، وعن عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ ، فَصَلَّى فِي المَسْجِدِ ، فَصَلَّى رجالٌ بِصَلاَتِهِ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا ، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ فَصَلَّوْا مَعَهُ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ فَتَحَدَّثُوا ، فَكَثُرَ أَهْلُ المَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَصَلَّوْا بِصَلاَتِهِ ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ المَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ حَتَّى خَرَجَ لِصَلاَةِ الصُّبْحِ ، فَلَمَّا قَضَى الفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَتَشَهَّدَ ، ثُمَّ قَالَ: (أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ ، لَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا) (صحيح البخاري) ، ثم رأى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في خلافته أن يجمع المسلمين على قارئ واحد ، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ القَارِيِّ ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لَيْلَةً فِي رَمَضَانَ إِلَى المَسْجِدِ ، فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ ، يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ ، وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلاَتِهِ الرَّهْطُ ، فَقَالَ سيدنا عُمَرُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ):

إِنِّي أَرَى لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلاَءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ ، ثُمَّ عَزَمَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى سيدنا أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) حرصًا منه على إقامة سنة القيام ووحدة المسلمين (صحيح البخاري) .

على أن الصيام الحقيقي هو الصيام عن سائر المعاصي والذنوب والآثام ، فكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ) (المستدرك على الصحيحين) ، ويقول– أيضًا–: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) (صحيح البخاري) ، وقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ (رضي الله عنهما): "إِذَا صُمْتَ فَلْيَصُمْ سَمْعُكَ وَبَصَرُكَ وَلِسَانُكَ عَنِ الْكَذِبِ وَالْمَحَارِمِ ، وَدَعْ أَذَى الْخَادِمِ ، وَلْيَكُنْ عَلَيْكَ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ يَوْمَ صِيَامِكَ ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَ فِطْرِكَ وَصَوْمِكَ سَوَاءً " . فليحرص المسلم أن يكون صومه صومًا حقيقيًّا؛ حتى تتحقق الثمرة المرجوة من صيامه ، وهي تقوى الله (عز وجل) .

وعلينا أن نعلم أن شهر رمضان المبارك هو شهر الجد والاجتهاد والعمل ، فلا يقل جهدنا وعملنا في رمضان مقارنة بغيره من الشهور ، تحت دعاوى الإرهاق والتعب ، فكثير من الناس يركنون إلى الخمول والكسل ، ويكثرون من النوم في نهار رمضان ؛ مما يتسبب في تعطيل مصالح الناس في هذا الشهر الكريم ، وهذا كله مخالف لغاية الصيام التي شرع من أجلها ؛ وهي التقوى ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[البقرة:

١٨٣] ، فالتقوى لا تتحقق بالكسل والخمول؛ وإنما بمزيد من العبادة والعمل ، والإخلاص ومراقبة الله (عز وجل) .

وإذا كان من أخص صفات الصائم المراقبة لله (عز وجل) ، فإن ذلك يقتضي مراقبة الله (عز وجل) في الوفاء بحق العمل ، فالذي يراقب صلاتك وصيامك وإمساكك عن الطعام والشراب هُوَ هُوَ من يراقب وفاءك بحق العمل ، أو تفلتك منه ، وتقصيرك في حقه .

وإذا كان من أهم ما يجب أن يحرص عليه الصائم أكل الحلال واستجابة الدعاء ، فعليه أن يدرك أنه إذا أخذ الأجر ولم يؤد حق العمل، فإنه إنما يأكل سحتًا وحرامًا ؛ لأنه يكون قد أخذ أجرًا بلا عمل ، أو أخلَّ بالعقد والعهد والشروط التي يتطلبها العمل ، سواء أكان ذلك عملًا حكوميًّا أم خاصًّا .

أقولُ قولِي هذا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكمْ

*   *   *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام:

إن العمل والعبادة صنوان ، فالعبادة عمل ، والعمل الخالص لوجه الله تعالى عبادة ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[التوبة: ١٠٥] .

والمتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وسيرة صحابته الكرام من بعده ، وفي التاريخ الإسلامي كله يرى أن شهر رمضان هو شهر العمل والإنتاج ، بل إن كثيرًا من انتصارات المسلمين جاءت في هذا الشهر المبارك ، فهو بحق شهرُ الانتصارات والفتوحات ، ففيه كان النصر في بدر الكبرى التي كانت معركة فاصلة بين الحق والباطل ، حيث أكرم الله (عز وجل) المؤمنين بنصر من عنده ، على قلَّة عددهم وعدتهم ، قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الحكيم} [آل عمران: ١٢٣– ١٢٦] .

وفي رمضان كان فتح مكة الذي كان فتحًا عظيمًا أعز الله به رسوله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين ، وأخزى الشرك والمشركين ، وفي العصر الحديث كان انتصار العاشر من رمضان ، السادس من أكتوبر الذي وفق الله مصر به أن استعادت أرضها وكرامتها ، وكان شعار الجندي المصري: الله أكبر ، مع الصيام والقيام والقرآن والدعاء الصادق ، فكان النصر المبين ، وطرد المعتدين ، دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض ، وكان درسا عمليًّا لكل من تسول له نفسه الاعتداء على مصر .

فما أحرانا أن نستعيد روح رمضان في كل مجالات حياتنا لتحقيق النصر، وتعزيز أركان الحق والعدل ، وحماية الأرض والعرض والكرامة ، وحتى

تستعيد أمتنا مكانتها ومهابتها بين الأمم والشعوب ، ولا يكون ذلك إلا بتوحيد الصف ، وجمع الكلمة ، والالتفاف حول هدف واحد ، بمزيد من الجد والاجتهاد والعمل ، وبذل الخير للناس جميعًا .

اللهم تقبل منا صلاتنا وصيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا واجعلها خالصة لوجهك الكريم واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

* * *

رمضان شهر العتق من النار

الحمد لله ربِّ العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، القَائِل: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد:

فلقد اختص الله (عز وجل) شهر مضان المبارك بعطايا ومزايا ليست لغيره من الشهور ، منها أنه **شهر الهداية** الذي أنزلت فيه الكتب السماوية ، حيث يقول الحق سبحانه: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . . } [البقرة: ١٨٥] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَان عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ) (المعجم الأوسط للطبراني) .

ومنها أنه **شهر الدعاء** : فالدعاء من أعظم الطاعات ، وأجل القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ، والمتأمل في كتاب الله (عز وجل) يجد أن آية الدعاء قد توسطت آيات الصيام ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة: ١٨٦] ، وفي ذلك إشارة إلى أن دعاء الصائم أرجى للقبول ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (للصائم دعوة لا ترد) (شعب الإيمان للبيهقي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (ثَلَاثٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ ، الإِمَامُ العَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الغَمَامِ ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ (عَزَّ وَجَلَّ) : وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ) (سنن الترمذي) .

ولعلَّ من أهم هذه الخصائص أن الله (عز وجل) قد جعل رمضان **شهر العتق من النار** ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ ، وَمَرَدَةُ الْجِنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجِنَانِ فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ ، وَنَادَى مُنَادٍ يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ) (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ لِلَّهِ عز وجل عِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ عُتَقَاءَ ، وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ) (سنن الترمذي) ، والمقصود بالعتق من النار أن مَن منَّ الله (عز وجل) عليه بهذه المنقبة العظيمة ، والنعمة الجليلة لن يدخل النار أبدًا .

فالصوم أحد أبواب الخير ، وخصاله التي تقي العبد من عذاب النار ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الصَّوْمُ جُنَّةٌ – أي وقاية – يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إلا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا) (صحيح مسلم) .

وعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فِي سَفَرٍ ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ خَلِيًّا قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ ، قَالَ: (لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ ، ثُمَّ قَالَ: إلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ . .) (سنن الترمذي) ، كما أن الصوم هو أحد الشفعاء الذين يقبل الله (عز وجل) شفاعتهم يوم القيامة ، حيث يقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ : مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ) قَالَ: (فَيُشَفَّعَانِ) (مسند أحمد) .

كما أن الصوم سبب **من أسباب المغفرة** ، وطريق من طرق الجنة ، فلقد وعد الحق سبحانه عباده الصائمين بالمغفرة والأجر العظيم ، فقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[الأحزاب: ٣٥] ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) : (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) :

(مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) ، بل إن هناك ليلة واحدة من رُزِقَ إحْيَاءَها بالقيام والقرآن والدعاء ، وَوُفِّقَ لطاعة الله (عز وجل) فيها غُفِرَت ذنوبه ، وهي ليلة القدر ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (متفق عليه) .

وفي بيان أن الصوم **طريق من طرق الجنة** يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا ، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا ، أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ ، وَصَلَّى وَالنَّاسُ نِيَامٌ) (مسند أحمد) ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أن رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) سأل الصحابة يومًا : (مَنْ أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنْكُمْ صَائِمًا ؟) ، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (مَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ : (مَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، قَالَ: (مَنْ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟) قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا ، فقال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (مَا اجْتَمَعَت هَذِهِ الْخِصَالُ فِي رَجُلٍ فِي يَوْمٍ ، إلا دَخَلَ الْجَنَّةَ) (صحيح مسلم) ، ولما جاء أبو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيّ (رضي الله عنه) إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسأله : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مُرْنِي بِعَمَلٍ أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ: (عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا مِثْلَ لَهُ) (سنن النسائي) .

إن الصوم سرٌّ بين العبد وربه ، لا يطلع على حقيقته أحد ، فالصائم قد يخلو بنفسه ولا يراه أحد إلا الله (عز وجل) ، وبإمكانه أن يتناول ما حرَّم الله عليه بالصيام ، فلا يفعل ، لأنه يعلم – علم اليقين – أن له ربًّا يطَّلع عليه في أمره كله ، فيترُكُه لله خوفًا من عقابه ، ورغبةً في ثوابه ،

وثقة في معية الله سبحانه ، يقول الحق سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧] .

والصوم من العبادات التي شرفها الله تعالى بنسبتها لنفسه ، وجعل جزاءها له سبحانه ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : قال الله (عز وجل): (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصّوم ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ) (متفق عليه) ، وفي رواية : (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ ، الْحَسَنَةُ بعَشْر أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، قَالَ اللَّهُ تعالى : إِلاَّ الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ . . .) (صحيح مسلم) ، لذا يقول أهل العلم: كفى بقوله سبحانه: (الصوم لي) فضلًا له على سائر العبادات ، وقيل: إن سبب هذه الإضافة أن الصيام لم يعبد به غير الله تعالى ، فالصوم عبادة خالصة لله ، لا يدخلها الرياء ، وقيل: إنه أحب العبادات إلى الله (عز وجل) .

فالصائم دائم المراقبة لربه سبحانه ، حريص على أن يغتنم هذا الشهر المبارك ، فيعرض نفسه لنفحات الله تعالى فيه ، رجاء أن يكون من عتقاء الله من النار .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إخوة الإسلام :

إن الصيام الذي يكون سببًا للعتق من النار هو الصيام الذي يمنع صاحبه من كل سلوك سيئ يحول بينه وبين المعاصي ، ويحقق له التقوى التي هي غاية الصيام وثمرته ، فلا يأكل الحرام ، ولا يخوض في الأعراض ، ولا يغتاب أحدًا ، ولا يمشي بالنميمة بين الناس ، ولا يشهد الزور ، ولا يقول إلا ما يرضي الله (عز وجل) ، ولا يرد السيئة بمثلها ؛ إنما يدفعها بالتي هي أحسن ، متخلقًا بأخلاق الصائمين ، قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ}[القصص: ٥٥] ، وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}[المؤمنون: ٣] ، وقال (جل شأنه): {ادْفَعْ بِالَّتِي هي أحسن السيئة}[المؤمنون: ٩٦] ، وقَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ ، وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ) (متفق عليه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم): (لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ؛ إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ . . .) (صحيح ابن خزيمة) ، وإن من أسباب العتق من النار أن يذب المسلم عن عرض أخيه الغائب ، قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغِيبَةِ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ) (مسند أحمد) .

إن الصائم الحق الذي ينتفع بأجر الصوم ، هو الذي يظهر أثر صيامه في سلوكه وتعامله مع الناس ، حيث إن الصيام يُعَوِّد صاحبه على الإمساك بزمام نفسه ، والسيطرة عليها ، وضبطها حتى تبلغ ما فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، فإذا أطلق المرء لنفسه عنانها أوقعته في المهالك ، وإذا ملك أمرها وسيطر عليها

تمكن من قيادتها إلى أعلى المراتب وأسنى المطالب ، وهذا لا يتحقق إلا لمن صام صومًا حقيقيًّا ، مستشعرًا عظمة ربه بذلك ، وقد صام بطنه وفرجه ولسانه وجميع جوارحه عن كل ما حرم الله (عز وجل) .

كما أن الصائم الحق هو من يحسن عمله ، ويخلصه لربه ، وينشغل بقبوله ، فهذا خليل الرحمن سيدنا إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) يسأل ربه القبول ، وهو يؤدي عملًا جليلًا أمره الله (عز وجل) به ، ألا وهو بناء الكعبة المشرفة ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧] .

وكان سيدنا علي (رضي الله عنه) يقول: كونوا لقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل ، ألم تسمعوا قول الله تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم) ، والآية الكريمة من سورة [المائدة: ٢٧] .

اللهم تقبل منا صلاتنا وصيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا واجعلها خالصة لوجهك الكريم واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

* * *

رمضان شهر الجود والكرم والانتصارات

الحمد لله رب العالمين ، القائلِ في كتابه الكريم: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٤] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، القَائِل في حديثه الشريف: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ ، إلا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـد:

فإن الدين الإسلامي دين القيم والمثل والأخلاق الراقية ، ومن هذه الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها ديننا الحنيف وحثَّ على التخلق بها: خلق الكرم ، فهو خُلق من أخلاق المرسلين ، وصفة من صفات الصالحين ، به تسُود المحبَّة والمودَّة والإخاء بين الناس ، فيثمر ذلك مجتمعًا قويًّا متماسكًا يقوم على التكافل والعطاء ، ويهيمن عليه الإخلاص والوفاء ، ويتحقق فيه قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ ، وَتَرَاحُمِهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) (متفق عليه) .

والكرم صفة من صفات الحق تبارك وتعالى ، واسم من أسمائه الحسنى، فسبحانه هو الجواد المعطي الذي لا يُغلَق بابه ، ولا ينفد عطاؤه ، ولا يرد سائله ، ولا يخيب آمله ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وسلم): (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَيُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا) (المستدرك للحاكم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ . . .) (سنن الترمذي) ، وفي الحديث القدسي: (. . . يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ ، إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، . . . . يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ) (صحيح مسلم) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ) (متفق عليه).

ولقد بين القرآن الكريم أن الكرم من أخلاق الأنبياء والمرسلين ، فقال تعالى في قصة إبراهيم (عليه السلام) : {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ إلا تَأْكُلُونَ} [الذاريات: ٢٤-٢٧] ، ولعظم كرمه وجوده لُقب (عليه السلام) بأبي الضيفان .

ولقد حثنا رب العزة (عز وجل) أن يُكرم بعضنا بعضًا ؛ حتى نكون أهلًا لكرمه ومزيد فضله ، حيث يقول سبحانه : {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا إلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور: ٢٢]، ويقول جل شأنه: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[البقرة : ٢٦١] ، ويقول جل وعلا : {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ}[البقرة : ١٧٧] ، ويقول تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}[الإنسان: ٨- ١١] ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (أَنْفِقْ ، يُنْفِقِ اللَّهُ عَلَيْكَ) (المعجم الأوسط للطبراني) .

ولقد كان شهر رمضان ولا زال شهر الجود والكرم والسخاء والعطاء والتكافل ، فقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) ، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ) (متفق عليه) .

وإذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) قد حث على إطعام الطعام في كل حال فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ ، تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ) (سنن

الترمذي) ، ورغَّب (صلى الله عليه وسلم) في إكرام الضيف في كل وقت فقال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) (متفق عليه) .

فقد بيَّن (صلى الله عليه وسلم) أن إطعام الطعام ، وإكرام الضيف في هذا الشهر أعلى أجرًا ، وأعظم ثوابًا ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، إلا أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ) (سنن الترمذي) ، وهذا الأجر يبلغه كل من فطَّر صائمًا غنيًّا أو فقيرًا قريبًا أو صديقًا ، أو غير ذلك ، فقوله (صلى الله عليه وسلم): "صائمًا" جاءت نكرة لتفيد العموم والشمول ، فإلى جانب إطعام الفقراء وسد حاجتهم هناك مقصد شرعي آخر يُفهم من كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو تعميق أواصر الترابط بين الناس في شهر البر والصلة ، بالاجتماع على مائدة الأسرة ، مائدة العائلة ، مائدة الأصدقاء ، مائدة الزملاء .

كما أن المعنى المفهوم من الحديث يشمل كل من فطَّر صائمًا حقيقةً ، بأن دعاه إلى الإفطار أو وفّر له طعامًا ، أو حُكمًا بأن تصدق عليه أو أهداه ما يفطر عليه أو يعد به إفطاره ، فالغاية من الحديث أمران: الأول ، التكافل بألا يكون بيننا في الشهر الكريم جائع ولا محتاج ولا محروم ، والآخر حدوث الألفة وتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس بصفة عامة ، وفِي الشهر الفضيل بصفة خاصة .

لقد ضرب لنا الصحابة (رضوان الله عليهم) أروع الأمثلة في البذل والعطاء والجود والكرم بالمال والنفس ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) خاصة وقت الشدائد والمحن ؛ تحقيقًا للتكافل والتعاون والتراحم ،

فهؤلاء الأشعريين يمتدح النبي (صلى الله عليه وسلم) ما كان بينهم من تكافل وتعاون فيقول: (إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الغَزْوِ ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ) (متفق عليه) .

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ (بِيْرُحَاءَ) ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قال أنس (رضي الله عنه) : فَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية : {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أنزل عليك: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ (بَيْرُحَاءَ) وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ تعالى ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أراك الله ، فَقَالَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : بَخٍ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وإني أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ، فقَالَ أبو طلحة: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ) (متفق عليه).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: (أُهْدِي لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) رَأْسُ شَاةٍ ، فَقَالَ: (إِنَّ أَخِي فُلَانًا وَعِيَالَهُ أَحْوَجُ إِلَى هَذَا مِنَّا) ، قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ إِلَيْهِ وَاحِدًا إِلَى آخَرَ ، فتَدَاوَلَهَا سَبْعَةُ أَبْيَاتٍ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ ، فَنَزَلَتْ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} (الحشر: ٩) (المستدرك للحاكم) ،

فكانوا (رضي الله عنهم) يتنافسون في الجود والكرَم ، ويتسابقون إلى البذل والعطاء ؛ استجابة لأوامر الله (عز وجل) ، وأوامر نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، ورغبةً ورجاءً فيما أعده الله (عز وجل) لأهل الجود والكرم.

فما أحوجنا إلى التخلق بهذا الخُلق العظيم ، بعيدًا عن كلِّ مظاهر البخل والشح والأنانية ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ) (المعجم الكبير للطبراني) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) (صحيح مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) (صحيح مسلم).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام :

إن الجود والكرم بالنفس من أعلى وأرقى صور الجود ، فهو صفة الكرماء وشيمة النبلاء ، وهو أرقى درجات الإيثار ، وأنفس أنواع الجود والكرم ، يقول الشاعر :

يجود بالنفس إذ ضنَّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وإن من أعظم صور الكرم بالنفس ما يبذله الجندي المرابط على الحدود ، يدافع عن وطنه وأرضه وأهله وعرضه صابرًا محتسبًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (سنن الترمذي) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (ما اغْبَرَّتْ قدَما عَبْدٍ في سبيلِ اللَّه فتَمسَّه النَّارُ) (صحيح البخاري) ، على أن جود الإنسان بنفسه يضمن له الفلاح في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] .

ولا شك أن رمضان هو شهر الانتصارات ، ففي هذا الشهر الكريم كانت غزوة بدر الكبرى ، حيث أكرم الله (عزّ وجلّ) المؤمنين بنصر من عنده على قلّة عددهم وعدتهم بالقياس إلى أعدائهم ، يقول الحق سبحانه: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران: ١٢٣– ١٢٦] .

وفي شهر رمضان كان **فتح مكة** في السنة الثامنة من الهجرة ، وفي هذا الفتح ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أروع المثل في مكارم الأخلاق وخاصة في العفو والصفح والتسامح والرحمة ، حيث جمع

(صلى الله عليه وسلم) من آذوه وأخرجوه وتآمروا على قتله ، ثم قال لهم: (مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ ؟) قَالُوا : خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ) (السنن الكبرى) .

وفي شهر رمضان كانت **حرب العاشر من رمضان** ١٣٩٧هـ ، السادس من أكتوبر ١٩٧٣م ، حرب العزة والكرامة ، حيث وفق الله (عز وجل) قواتنا المسلحة الباسلة في تحطيم أسطورة جيش العدو الذي كان يزعم أنه لا يقهر ، ووجهت إليه ضربة أفقدته صوابه ، وكبحت كبرياءه ، وأجبرت العالم كله على احترام مصر وقواتها المسلحة ، وكان شعار الجندي المقاتل: الله أكبر ، مع الصيام والقيام والقرآن والدعاء الصادق ، فكان النصر المبين ، وطرد المعتدين ، وهنا نذكر بما قدمته قواتنا المسلحة ومصرنا الغالية من شهداء عظام رووا أرض الوطن بدمائهم ؛ دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعرض .

وما زالت قواتنا المسلحة الباسلة صمام أمان لمصرنا الغالية ، ولأمتنا العربية والإسلامية ، ولا زال رجالها الأوفياء يخوضون حربًا شريفةً في مواجهة قوى الإرهاب والشر ، ويقدمون كل يوم تضحيات جديدة في سبيل الدفاع عن أمن الوطن وأمانه ، وعزته وكرامته ، ويحرصون على الشهادة حرص غيرهم على الحياة ، وهم على استعداد تام للتضحية بالغالي والنفيس دفاعًا عن تراب هذا الوطن ، وقطع يد أي عابث يريد أن يعبث بأمن الوطن أو استقراره ، فهي على مرِّ التاريخ درع الأمة وسيفها ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

اللهم تقبل منا صلاتنا وصيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا واجعلها خالصة لوجهك الكريم واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

رمضان شهر الإيمان وصناعة الرجال

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب:٢٣] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن الإيمان بالله (عز وجل) من أجل نعم الله تعالى على العبد ، حيث يقول الحق سبحانه: { . . وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات:٧] ، ولا شك أن شهر رمضان المبارك شهر الإيمان الحقيقي ، ولذا بدأت آيات الصيام في القرآن الكريم بالنداء بوصف الإيمان ، فقال سبحانه : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] .

والإيمان الحقيقي تصديق بكل ما جاء عن الله سبحانه ، والعمل بمقتضى ذلك ، وقد جاء في حديث جبريل (عليه السلام) المشهور بيان حقيقة الإيمان الّذي ينبغي أن يتجسد في قلب المؤمن ، حينما سأل النبيَّ (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ) (متفق عليه) ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان فقط ، ولكن

الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ، يقول سبحانه: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال:٢ -٤] ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ مِنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دمائهم وأموالهم) (المستدرك للحاكم) .

أما من انحرف بأخلاقه وتصرفاته عن أوامر الله تعالى ونواهيه فقد انحرف عن طريق الإيمان ، وفي ذلك يقول (صلى الله عليه وسلم): (لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (متفق عليه) .

ولقد صرَّح النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفي كمال الإيمان عمن يؤذي جاره ، أو من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، لأن الإيمان لابد له من عمل ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (المستدرك للحاكم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ) (المستدرك للحاكم) .

فالإيمان الحقيقي هو الذي يحفظ صاحبه من التعدي على حقوق الآخرين ، والاعتداء عليهم ، وينقي صدر صاحبه من الحقد والحسد ، والأنانية والأثرة ، والغل والغدر والخيانة ، والفساد والإفساد ، وهو الذي يهذب أخلاق صاحبه فيظهر أثره على سلوكه وسائر تصرفاته وحركته في

الكون والحياة ، وتعامله مع خلق الله أجمعين ، رحمة بالإنسان والحيوان والجماد ابتغاء مرضاة الله وحده ، قال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} [الإنسان: ٨ ، ٩] .

والإيمان شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إذا قويت أصولها ، وثبتت جذورها ، آتت أكلها كل حين بإذن ربها ، والصيام الحقيقي ينبع من هذا الإيمان ، فيبث في النفس السكينة والطمأنينة ومراقبة الله (عز وجل) ، **فترى الصائم الحق لا يكذب** ؛ لأن الصيام والكذب لا يلتقيان ، فالصيام قائم على أعلى درجات مراقبة الله (عز وجل) في السر قبل العلن ، فهو سر بين العبد وربه ، والكذب أبرز علامات النفاق وأعلاها في سُلَّمه ، وهو ما يتناقض غاية التناقض مع حقيقة الصيام ، لذا فهما لا يجتمعان ولا يلتقيان ، فإما صائم وإما كذاب ، ولذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) (صحيح البخاري) ، وعندما سُئل رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ) ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا ؟ فَقَالَ: (نَعَمْ) ، فَقِيلَ لَهُ: (أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا) ، فَقَالَ: (لَا) (موطأ الإمام مالك) .

وللإيمان بالله طعم وحلاوة لا يستشعرها إلا أهل الرضا الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) رَسُولًا) (صحيح مسلم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ

بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا ، وَأنْ يُحِبّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ اللهِ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ) (صحيح مسلم) .

والإيمان وحسن الخلق قرينان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (أَكْمَلُ المؤمنين إِيمَانًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلاقًا ، الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ) (المعجم الأوسط للطبراني) ، فالإيمان نور ، والعبادة نور ، ومن ذاق حلاوة الإيمان ، ولذة العبادة لا يمكن أن يعرف إلا السماحة واليسر وحسن المعاملة ، فلا يتكبر على خلق الله ولا يعبس في وجوههم ، ولا يستطيل عليهم ، ولا يرد السيئة بالسيئة ؛ وإنما يعفو ويصفح ؛ لذا يقول (صلى الله عليه وسلم): (فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ ، فَلَا يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ) (متفق عليه) ، وعلى العاقل أن يدرك أنه قد لا يدخل الجنة بعبادته ، غير أنه قد يدخلها بأخلاقه وسماحته ، وحسن معاملته للناس ، وفي هذا المعنى يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ ، إلا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ ، فقَالَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): (نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ) (صحيح مسلم) .

على أننا نؤكد أن الإيمان الحقيقي نور يقذفه الله تعالى في قلب العبد ، فيورثه الحكمة واليقين ، ويجعله يرى بنور الله (عز وجل) ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم)

خَرَجَ يَوْمًا فَاسْتَقْبَلَهُ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَقَالَ لَهُ: (كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ ؟) قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) : (انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟) ، قَالَ: عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، فَأَسْهَرْتُ لِيَلِي وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كَيْفَ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ كَيْفَ يَتَعَادَوْنَ فِيهَا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَبْصَرْتَ فَالْزَمْ (مَرَّتَيْنِ) ، عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ الْإِيمَانَ فِي قَلْبِهِ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

والإيمان شعب متعددة ينبغي على كل مؤمن أن يحرص على الالتزام بها ، يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم): (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) (متفق عليه) ، ولما سأل رجلٌ الحسنَ البصري (رضي الله عنه): أمؤمن أنت ؟ فقال له: "الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال:٢ –٤] فو الله ما أدري أنا منهم ، أم لا " (شعب الإيمان).

والإيمان الصادق يورث صاحبه الأمن والأمان ، والحياة الطيبة التي لا تتحقق إلا به ، يقول تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ

مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً} [النحل:٩٧] ، ويقول سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] ، ولله در القائل:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضي الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلِىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام:

إذا كان رمضان هو شهر الإيمان ، فإنه أيضًا شهر صناعة الرجال ؛ فالصيام مدرسة عملية تبرز الرجال الحقيقيين ، يقول أحمد شوقي: "الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، وكيف ألمه إذا لذع" .

إنَّ المتأمل في القرآن الكريم يدرك أن الرجولة وصف لم يمنحه الحق تبارك وتعالى إلا لمن امتلك مؤهلاتها ، والتي منها: **صدق العهد مع الله سبحانه** ، دون تغيير ، أو تبديل ، أو انحراف ، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ

مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا}[الأحزاب: ٢٣] ، كما أن الرجال الحقيقيين هم من باعوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين ، ويظهر ذلك في **التضحية بالنفس والمال في سبيل الدين أو الوطن أو العرض** ، ابتغاء مرضات الله ، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبة: ١١١] .

إن رمضان شهر عمارة المساجد وقيام الليل ، وهما من أهم عوامل بناء الشخصية وصناعة الرجال ، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبيه (صلى الله عليه وسلم): {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إلا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} [المزمل: ١- ٦] ، ويقول سبحانه: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور: ٣٧] ، ويقول جل شأنه في وصف أهل الجنة: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات:١٧ ، ١٨] ، ويقول تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ*فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٦ ، ١٧] .

إن قيام الليل من الأمور التي ينبغي أن نحرص عليها خاصة في العشر الأواخر من شهر رمضان اقتداء بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يجتهد في هذه العشر ما لا يجتهد في غيرها من الأيام ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَه ، وأحيَا ليله ، وأيقظَ أهلَه) (صحيح البخاري) ، ومعنى شد المئزر: أي اجتهد في العبادة وبذل وسعه فيها ، وقيل: كناية عن اعتزال النساء ، وقالت (رضي الله عنها): (كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يَخْلِطُ الْعِشْرِينَ بِصَلَاةٍ وَنَوْمٍ ، فَإِذَا كَانَ الْعَشْرُ شَمَّرَ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ) (مسند أحمد) ، وفي رواية قالت: (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ ما لا يجتهدُ في غيرِه) .

إن رمضان يصنع الرجال بكبح جماح النفس ، والسكينة ، ويقظة الضمير ، وانضباط السلوك ، وحسن التصرف ، وإعلاء القيم الخلقية والإنسانية ومكارم الأخلاق التي تنظم سلوك الإنسان ، وتجعله مستقيمًا في كلِّ شئون حياته ، فيحفظ الحقوق ، ويؤدى الواجبات ، ويسعى لتحقيق كل أنواع الخير والصلاح لنفسه ، ولمجتمعه ، ولوطنه ، ولأمته ، ومن ثم ينعكس ذلك على استقرار المجتمع وتقدمه ، وتنتشر روح المودة والألفة والرحمة ، وغيرها من المعاني النبيلة التي تسهم في تقدم الشعوب وتحضرها .

فلنحرص على أن نغتنم هذه الأيام بالذكر والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والاجتهاد في فعل كل ما يقربنا إلى الله (عز وجل) ، حتى لا نكون من

المحرومين من رحمات الله تعالى في الأيام المباركة ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) (المعجم الكبير للطبراني) .

اللهم تقبل منا صلاتنا وصيامنا وقيامنا وسائر أعمالنا
واجعلها خالصة لوجهك الكريم واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

* * *

رمضان شهر البر والصلة والتعرض لرحمات الله

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك علَيهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعـــد:

فإن شهر رمضان المبارك شهر الطَّاعَات والنفحات والرحمات ، شهر الصيام والقيام والصلة والمودة والتعاون على البر والتقوى ، شهر يُختبر فيه المسلم في صبره واحتسابه ومراقبته لله (عز وجل) ، فالصائم يتحمل الجوع والعطش ، ويكبح جماح النفس ، ويصبر على الأذى ، إلى جانب التقرب إلى الله تعالى بالطاعات المختلفة ؛ كقراءة القرآن ، والذكر ، وقيام الليل ، والصدقات ، والصلح بين الناس ، وبذل كل خير فيه مصلحة البلاد والعباد ، وذلك من الإحسان الذي يستجلب به العبد رحمة الله (عز وجل) ، حيث يقول (سبحانه): {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ هَذَا الْخَيْرَ خَزَائِنُ ، وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ مَفَاتِيحُ ، فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا

لِلْخَيْرِ ، مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لَلشَّرِّ ، مِغْلَاقًا لِلْخَيْرِ) (سنن ابن ماجه) .

إن شهر رمضان المبارك ميدان للتنافس في أعمال الخير والبر ، حيث يتسابق فيه العباد بخالص الأعمال تقربًا إلى الله (عز وجل) ، ولقد كان هذا حال النبي (صلى الله عليه وسلم) في رمضان ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: كان رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ) (صحيح البخاري) .

فرمضان مجال واسع للبر ، وبخاصة إطعام الطعام الذي هو من سمات هذا الشهر الكريم ، وسمة من سمات ديننا الحنيف ، يقول سيدنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَام (رضي الله عنه): لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قِبلَهُ ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: (أَيُّهَا النَّاسُ: أَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ) (شعب الإيمان للبيهقي) ، فقد اشتمل كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) على أربع خصال ، ثلاث منها تتصل بالعلاقات بين الناس ؛ وهي: إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، وصلة الأرحام ، والرابعة تتعلق بالعلاقة بين العبد وربه ؛ وهي: الصلاة بالليل والناس نيام ، وقد سأل رجل النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): أَيُّ الإِسْلَامِ خَيْرٌ ؟ قَالَ: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ) (متفق عليه) .

وينبغي للإنسان أن لا يستصغر أو يحتقر شيئًا من المعروف ، فإنه لا يدري أي عمل يقبله الله (عز وجل) ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي ، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ ، فَلَا تَسُبَّهُ فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ ، وَمَا سَرَّ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَاعْمَلْ بِهِ ، وَمَا سَاءَ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ فَاجْتَنِبْهُ) (مسند أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ) ، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قَالَ: (يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ) ، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ ؟ قَالَ: (يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ) ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قَالَ: (يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ أَوْ بِالْعَدْلِ) ، قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَ ؟ قَالَ: (يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ؛ فَإِنَّهُ لَهُ صَدَقَةٌ) (مسند أحمد) .

على أننا نؤكد أن البر اسم جامع لكل خصال الخير ، ولكل فعل يرضِي الله (عز وجل) وينفع الناس ، وجماع ذلك كله في حسن الخلق ؛ لذا قال النبي (صلى الله عليه وسلم): (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) (صحيح مسلم)، كما أن الوفاء والاعتراف بالفضل والجميل لأهل الفضل خلق أصيل لا يتحلى به إلا النبلاء ، ولله در القائل:

إن الوفاء على الكريـم فريضة   واللؤم مقـرون بـذي الإخـلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا   وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ويقول الآخر:

إن الكرام إذا ما أيســروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومن أعظم صور البر الصلة والتواصل بين الأهل والأقارب والجيران والناس جميعًا ، وذلك من أكبر عوامل تحقيق التآلف والترابط، ونشر قيم التراحم بين الناس كافة ، فرمضان لا مجال فيه للتشاحن ولا للمتشاحنين ، وإذا كان رمضان شهر الصلة ففي مقدمة هذه الصلة يأتي أمران: صلة الرحم ، وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) قدرها ومكانتها في الحديث القدسي الذى يرويه عن رب العزة سبحانه: (أَنَا اللَّهُ ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ ، وَشَقَقْتُ لَهَا مِن اسْمِي ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ) (سنن الترمذي) ثم قال نبينا (صلى الله عليه وسلم): اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: {فهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٢ -٢٤] (متفق عليه) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ ، فَيَغْفِرُ اللهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا إلا امْرًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ ، فَيُقَالُ: اتْرُكُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) (صحيح مسلم) .

ولقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) صلة الأرحام من دعائم الإيمان التي دعا إليها (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) في بداية بعثته ، فعن عمرو بن عبسة قال: دخلت على النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) – يعني في أول النبوة– ، فَقلتُ: ما أنت ؟ قال: (أنا نَبيّ اللَّهِ) ، قلت: وما نَبيّ اللَّهِ ؟ قال:

(رسولُ الله) ، فَقلتُ: آللَّهُ أَرْسَلَكَ ؟ قال: (نَعَمْ) ، قلتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قال: (بِأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ) (مسند أحمد) ، وجعلها (صلى الله عليه وسلم) علامة من علامات الإيمان، فقال: (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) (صحيح البخاري) ، وأكد على ذلك قوله تعالى: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ} [الأحزاب: ٦] .

الجانب الآخر من الصلة هو صلة كل من حولك ، فلا تقطع أحدًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ) (صحيح البخاري) ، وليس معنى ذلك أن يبدأ بالسلام إذا لقيه في الطريق فحسب ، إنما يبدأ بالسلام بكل ما تعنيه كلمة السلام بمفهومها الشامل ، بأن يكون السلام سلامًا حقيقيًّا ، لا شكليًّا ، ليس مجرد سلام باللسان ونكران بالقلب ، إنما هو سلام مع النفس ، مع الصديق ، مع الأهل ، مع الجار ، مع الزميل ، مع الإنسان ، مع الحيوان ، مع الجماد ، مع الكون كله ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين} [البقرة: ٢٠٨] .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلامِ:

لقد اقتضت حكمة الله (عز وجل) أن جعل العشر الأواخر من شهر رمضان فرصة للمحسن أن يستزيد من الخيرات ، وللمقصر أن يستدرك ما فات ، فهي أيام مليئة بالنفحات الإلهية والعطايا الربانية التي امتن الله (عز وجل) بها على عباده ، فحريٌّ بكلِّ مسلم أن يتعرض فيها لرحمات الله (عز وجل) ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا) (المعجم الأوسط للطبراني) ؛ لذا كان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يخص العشر الأواخر من رمضان بمزيد من العبادة والطاعة ، والإقبال على الله (عز وجل) .

ومن الأمور التي يجب أن نحرص عليها في إحيـاء العشـر الأواخر من رمضــان:

الاجتهاد في إحياء الليل ، تأسيًّا برسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقد كان النبيّ (صلى الله عليه وسلم) يجتهد في هذه العشر ما لا يجتهد في غيرها من الأيام ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَه ، وأحيَا ليله ، وأيقظَ أهلَه) (صحيح البخاري) ، وعنها –أيضًا– قالت: (كَانَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يَخْلِطُ فِي الْعِشْرِينَ الْأُولَى مِنْ نَوْمٍ وَصَلَاةٍ ، فَإِذَا دَخَلَتِ الْعَشْرُ جَدَّ وشَدَّ الْمِئْزَرَ) (مسند أحمد) .

ولقد اختص الله تبارك وتعالى الليالي العشر الأخيرة من شهر رمضان بليلة من أعظم الليالي وأفضلها ؛ ألا وهي ليلة القدر ، إكرامًا منه سبحانه

لأمة حبيبه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فعن مُجَاهِدٍ (رضي الله عنه) أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حمل السِّلَاحَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَلْفَ شَهْرٍ ، قَالَ: فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ } [سورة القدر] (السنن الكبرى للبيهقي) ، فعبادة هذه الليلة بإخلاص تفوق الجهاد في سبيل الله مدّة ألف شهر في سبيل الله .

ولقد أخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن قيام هذه الليلة سبب في مغفرة الذنوب ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (صحيح البخاري) ، ومن ثم فعلى المسلم أن يحرص على إحياء هذه الليلة العظيمة ، تقربًا إلى الله (عز وجل) ، وطمعًا في مغفرته ، وقد حثّنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) على تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، لما فيها من كثرة العطاء والكرم الإلهي ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الوِتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ) (صحيح البخاري) ، وفي رواية: (التَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ -لَيْلَةَ القَدْرِ- فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى ، فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى ، فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى) (صحيح البخاري) .

ومن أهم الأعمال الصالحات في هذه الأيام **إخراج صدقة الفطر** التي هي طهرة للصائم وطعمة للفقراء والمساكين ، فعن ابنِ عَبّاسٍ (رضي الله عنهما) قال: (فَرَضَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) زَكَاةَ

الفِطرِ طُهرَةً لِلصّائِمِ مِنَ اللَّغوِ وَالرَّفَثِ ، وَطُعمَةً لِلمَسَاكِينِ ، مَنْ أدّاهَا قَبلَ الصّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقبُولَةٌ ، وَمَن أدّاهَا بَعدَ الصّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصّدَقَاتِ) (المستدرك على الصحيحين للحاكم) .

ومنها: **الاجتهاد في الدعاء**: فإذا كان الدعاء في شهر رمضان أرجى للقبول فهو في العشر الأواخر منه أشدُّ رجاءً ، وعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا قَالَ: (قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ كَرِيمٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّى) (سنن الترمذي) .

فلنحرص على أن نغتنم هذه الأيام الفاضلة ، وليلة القدر المباركة بالذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، وكل ما يقربنا إلى الله (عز وجل) ، حتى لا نكون من المحرومين من رحمات الله تعالى فيها ، فإن الحرمان في هذه الليلة هو الحرمان الحقيقي ، حيث يقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) (لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ) (شعب الإيمان للبيهقي) .

اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نقمتك وتحول عافيتك
ونعوذ بك من جميع سخطك يا أرحم الراحمين
اللهم احفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

* * *

الأعياد عبادة (**خطبة عيد الفطر**)

الحمد لله ، والله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلًا ، الحمد لله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأَشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فقد خلق الله تعالى الخلق لعبادته ، فقال (جل شأنه): {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦]؛ ومفهوم العبادة في الإسلام لا يقتصر على أداء الفرائض من صلاة وصيام وزكاة ، ونحو ذلك ، بل هو مفهوم واسع وشامل لكل مناحي الحياة ، فكل ما يصدر عن المسلم من أقوال وأفعال من الأمور الواجبة والمستحبة فهو من العبادات التي يثاب العبد عليها ، بل إن ترك فعل المحرمات ، وإخلاص النية لله (عز وجل) في فعل العادات كل ذلك يدخل في مفهوم العبادة التي يثاب الإنسان عليها ، حيث يقول الحق سبحانه: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢ ، ١٦٣] .

وها هو شهر رمضان قد انقضت أيامه المباركة سريعًا بعدما تقلب العبد فيها بين ألوان من الطاعات والعبادات ، يرجو رحمة الله (عز وجل) وفضله ومغفرته ، واليوم أشرقت علينا شمس عيد الفطر المبارك ببهجته

وفرحته ، أعاده الله علينا وعليكم وعلى العالم أجمع بالخير واليمن والبركات ، وهو نعمة تستحق الشكر ، كونه مظهرًا من مظاهر البهجة والفرح والسعادة ، بإكمال عدة الشهر ، وإتمام نعمة الله تعالى على عباده من جهة ، وكونه فضلًا من الله تعالى يوسع فيه على عباده بالخير واليمن والبركة من جهة أخرى .

إن العبد بصيامه رمضان قد أدى عبادة من أسمى العبادات ، حيثُ تَغلَّب على شهواته ، وقاوم رغباته ، وجاهد في تحقيق التقوى التي هي غاية الصيام وسبب لقبول الأعمال ، حيث يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٣] ، ويقول تعالى: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧] ، ثم يأتي يوم العيد ، يوم الجائزة ، والبراءة من الذنوب ، والطهارة من العيوب ، اليوم الذي يباهي فيه ربنا سبحانه بأهل الإيمان ملائكته التي تقف على أبواب الطرق تبشر الصائمين بمغفرة ذنوبهم ، وقبول طاعتهم ، ورفعة منزلتهم ، فيبدأ المسلم يومه بالتكبير والصلاة والتقرب إلى الله (عز وجل) بالطاعة بعد الطاعة ، فبعد نعمة الصيام والقيام تأتي نعمة التهليل والتكبير ، يقول الحق سبحانه: {وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة: ١٨٥] ، وكان أحد العلماء يقول: إذا وفقني الله إلى طاعة ، ثم وفقني إلى شكر الطاعة ، علمت أن الشكر نعمة جديدة تحتاج إلى شكر جديد ؛ لأنها هداية جديدة .

فكما كان رمضان شهر عبادة وطاعة ، فإن الفرح بالعيد عبادة وطاعة ، فحق المسلم أن يفرح بيوم العيد ، حيث يقول سبحانه: {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨] ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا ؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ) (متفق عليه) .

وفي الأعياد تتجسد مظاهر الفرح المشروع ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا ، فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى ، وَيَوْمَ الْفِطْرِ) (المستدرك للحاكم) ، وذلك من مظاهر سماحة الإسلام وعظمة شعائره ، فيوم العيد هو يوم سعادة وسرور وإدخال البهجة والفرحة على الناس جميعًا .

إن من مظاهر الفرح المشروع في الأعياد التوسعة على الأهل والأبناء والأحفاد بكل مظاهر التوسعة المباحة ؛ بالطعام والشراب والثياب والنفقات ، وغير ذلك ، وهذا كله من الأمور التي يثاب الإنسان على فعلها، فقد قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) : (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ) (صحيح البخاري) .

وكذلك ينبغي للإنسان أن يكون حريصًا على إدخال السرور على الناس جميعًا ، خاصة الفقراء والمساكين واليتامى ، فقد جعل الله (عز وجل) زكاة الفطر عفّة وإغناء للفقير عن سؤال الناس في هذا اليوم ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (أَغْنُوهُمْ عَنْ طَوَافِ هَذَا الْيَوْمِ) (السنن الكبرى للبيهقي) ، فقوله (صلى الله عليه وسلم) : (أَغْنُوهُمْ) ، أي:

أعطوهم ما يحقق لهم الغنى ، ويكفيهم ذلّ المسألة ، ولم يقل (صلى الله عليه وسلم): أعطوهم ، ولا أحسنوا عليهم ، ولا تصدقوا إليهم ، وإنما قال: (أَغْنُوهُمْ) ، ترغيبًا منه (صلى الله عليه وسلم) في كفايتهم في هذا اليوم .

الخطبة الثانية:

الحمد لله ، والله أكبر كبيرًا ، والحمد لله كثيرًا ، وسبحان الله بكرة وأصيلًا ، الحمد لله وحده ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، ومَنْ اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام:

إن من مظاهر الفرح والسرور التي تندرج تحت مسمى العبادة في هذا اليوم تقوية الروابط والصلات المجتمعية ، ومن أهمها: صلة الأرحام التي تعد من أعظم الواجبات ، وأفضل الطاعات ، فبها تنتشر المحبة بين الأهل والأقارب ، وتتآلف القلوب ، ويزيد الله بها في العمر ، ويبسط الله بها في الرزق ، ويبارك بها في المال ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) (متفق عليه) ، والصلة تقتضي العفو والصفح ، ودفع السيئة بالحسنة ، لذا يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا) (صحيح البخاري) .

ومن الصلة التي حث عليها الشرع الحنيف العمل على توطيد العلاقات الاجتماعية بين الناس جميعًا ، بالتزاور والتلاقي ، والتصافح ، والتهاني ، والتآلف ، والتعارف ، ونشر التراحم بين الناس كافة ، وذلك من أسمى العبادات التي تستجلب محبة الله (عز وجل) ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(رضي الله عنه) ، عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ: لا ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ) ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ) (صحيح مسلم) .

لذا كان من هدي النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا اليوم أن يخرج المسلم إلى المصلى ماشيًا ، فعن علي (رضي الله عنه) قال: (مِنَ اَلسُّنَّةِ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى اَلْعِيدِ مَاشِيًا) ، فلا يَرْكب إلا من عذر أو بُعد مسافة ، وكذلك من هديه (صلى الله عليه وسلم) أن يذهب المسلم إلى مُصلاه من طريق ، ثم يرجع من طريق آخر ، فعن جابر بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قال: كَانَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ) (صحيح البخاري) ، وذلك ليشهد له الطريقان عند الله يوم القيامة ، وليسلم على عدد كبير من الناس ؛ وليتبادلوا التهاني فيما بينهم بهذا اليوم المبارك ، فعن جبير بن نفير (رضي الله عنه) ، قال: كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا التقوا يوم العيد يقول بعضهم لبعض: تُقُبِّل منا ومنك .

على أننا نؤكد أن مواظبة العبد على فعل الطاعات بعد رمضان علامة من علامات قبول الصيام ، فإذا ما أتم الله علينا النعمة والفضل بصيام شهر رمضان ، فإنه يستحب لنا صيام الست من شوال التي حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على صومها ، ورغبنا فيه ، وأرشدنا إلى فضله، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ

شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ) (صحيح مسلم) ، فصيام ستة أيام من شوال بعد رمضان يُستكمل بها أجر صيام الدهر كله ، فلنحرص على صيامها ؛ تقربًا إلى الله (عز وجل) ، وطمعًا في رضاه ، سائلين الله (عز وجل) أن يتقبل منا الصيام والقيام وصالح الأعمال ، وكل عام والعالم كله في أمن وأمان ، وسلم) وسلام .

* * *

ماذا عن شوال ؟

الحمد لله رب العالمينَ ، القائلِ في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إِلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمّدًا عَبدُه وَرَسُولُهُ ، القائل في حديثه الشريف: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا ، وَإِنْ قَلَّ) (متفق عليه) ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ .

وبعــد:

فإن المتأمل والمتدبر لسنن الله (عز وجل) الكونية في خلقه يرى سرعة انقضاء الأيام والشهور والسنين ، فما الحياة الدنيا إلا أنفاس معدودة ، وآجال مضروبة ، وفي ذلك عبر لمن تفكر وتدبر ، يقول الحق سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦٢] ، ويقول جل شأنه: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا} [مريم: ٨٤] .

ولمَّا كان الإنسان في الدنيا مرهونًا بعمله ؛ حيث يقول الحق سبحانه: {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إلا مَا سَعَى*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}[النجم: ٤١] ، كان على العاقل أن يحرص على الطاعة ، وأن يداوم عليها حتى يبلغه الله (عز وجل) حسن الخاتمة ، فيلقى ربه وهو راض عنه ، فالإنسان لا يدري بأي طاعة تفتح له أبواب القبول ، فإن الله (عز وجل) قد أخفى رحمته في طاعته ، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه

وسلم) : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ ، فَوَجَدَ بِئْرًا ، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ) (متفق عليه) ، وفي رواية: (فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ) (صحيح البخاري) .

كما أن الله (عز وجل) قد أخفى غضبه في معاصيه ، فلا يدري الإنسان بأي معصية يؤخذ أو يعاقب ، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه وسلم): (دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا ، فَلَمْ تُطْعِمْهَا ، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ) (متفق عليه) ، فالأعمال بخواتيمها كما أخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ العَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا) (صحيح البخاري) ؛ لذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يسأل الله حسن الخاتمة ، ويعلم أمته ذلك ، فعَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ) ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: (نَعَمْ ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) (سنن الترمذي) .

ولا شك أن أرباب البصيرة يدركون أن ربَّ رمضان هو ربُّ شوال ، ورب سائر الشهور والأيام والأزمنة والأمكنة ، فإذا كان رمضان قد مضى بما فيه من الخيرات والبركات والنفحات ، فماذا عن شوال ؟

إن أبواب الخير كلها لا زالت مفتحة ، ولا يزال رب العزة (سبحانه وتعالى) يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل في رمضان ، وفي شوال ، وفي ذي القعدة ، وفي كل وقت وحين ، حتى تطلع الشمس من مغربها ، فعن أبي موسى (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا) (صحيح مسلم) .

وإذا كانت أبواب الجنة قد فتحت في رمضان ، فإنها لم تغلق بعد رمضان ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، قَالَ: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا ، إلا رَجُلٌ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا) (صحيح مسلم) ، على أن من ذاق عرف ، ومن عرف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، فمن ذاق حلاوة الصيام والقيام وقراءة القرآن لا يمكن أن ينقطع بعد رمضان عن هذه العبادات .

ولقد ذكر أهل العلم أن من علامات قبول الطاعة حبها وزيادة الإقبال عليها ، حيث يقول (الحق سبحانه): {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢] ، ويقول سبحانه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٢٣] ، فمن عاش مع القرآن الكريم في رمضان لا

يمكن أن يهجره بعد رمضان ، كما أن من ألف القيام وذاق حلاوته لا يمكن أن يهجره بعد رمضان ، ومن استشعر لذة العطاء والجود والإنفاق في سبيل الله في رمضان ، لن ينقطع عن ذلك بعد رمضان ، فإذا ما اعتاد الإنسان على الطاعة وأحبها وألفها في رمضان ، فإن عليه أن يبقى على نهجه طوال العام ، وقد حثنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على عدم الانقطاع عن الصيام بانتهاء رمضان ، بل حثنا على المبادرة بالصيام في شوال ، وهو ما عبر عنه النبي (صلى الله عليه وسلم) بالاتباع ، فقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ) (صحيح مسلم) .

إن الصائم الحق هو الذي أورثه صيامه تقوى الله (عز وجل) ، وحينما تحدث الحق (سبحانه وتعالى) عن وصف المتقين وجزائهم قال: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٥– ١٨] ، فلم يخص سبحانه ذلك بليل رمضان ، وعندما قال سبحانه في وصف مقيمي الليل: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة: ١٦ ، ١٧] ، لم يقصر ذلك على رمضان دون سواه ؛ إنما جعله فضلًا عامًّا في سائر الأيام والشهور .

ومن هنا يجب على المسلم أن يستمر على الأعمال الصالحة ، وأن يستقيم على طاعة الله (عز وجل) ، ودوام مراقبته ، يقول سبحانه:

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [هود: ١١٢] ، ويقول جل شأنه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إلا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧] .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي ، قال: قلت يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك ؟ قال: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ) (صحيح مسلم) ، فالاستقامة على الطاعة والاستمرار عليها من صفات عباد الله المؤمنين ، حيث يقول الحق سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأحقاف: ١٣] ، ويقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إلا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} [فصلت: ٣٠] .

وقال الحسن البصري: "إنَّ من جزاء الحَسَنةِ الحسنة بعدها ، ومن عقوبة السيئة السيئةُ بعدها ، فإذا قبل الله العبد فإنه يوفقه إلى الطاعة ، ويصرفه عن المعصية" ، فمن عمل حسنة ثم أتبعها بأخرى كان ذلك علامة على قبول الحسنة الأولى ، ومن عمل حسنة ثم أتبعها بسيئة ، كان ذلك علامة على ردِّ الحسنة وعدم قبولها ، فالطاعة المتقبلة تتبعها مثلها ، وهذا من حسنها وبركتها ، والسيئة تجر إلى مثلها .

على أننا نؤكد أن المداومة والمواظبة على الطاعات والعبادات هو امتثال لقول الله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: ٩٩]، وامتثال لقوله جل شأنه:{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ*وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}

[الشرح: ٧ ، ٨] أي: إذا انتهيت من عبادة وطاعة فتلبس بطاعة وعبادة أخرى ، قاصدا بها وجه الله (عزّ وجلّ) ، وهذا ما كان يفعله النبي الكريم (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فقد سئلت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها): يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئًا مِنَ الأَيَّامِ ؟ قَالَتْ: لاَ ، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً) (متفق عليه) ، وفي رواية قالت: "كان إذا عَمِلَ عملًا أثبتَهُ" (صحيح مسلم) .

أقولُ قولِي هذَا ، وأستغفرُ اللّهَ لِي ولكُمْ .

* * *

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ ، وأشهدُ أنَّ سيدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُه ورسُولُه ، اللهُمَّ صَلِّ وسلم وبارك عليهِ ، وَعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ ، وَمن تَبعَهُمْ بإحسانٍ إِلىَ يومِ الدِّين .

إخوةَ الإسلام:

إن المداومة على طاعة الله (عز وجل) وحسن مراقبته من أسباب حسن الخاتمة ، حيث إن المقدمات الصحيحة تصل بصاحبها إلى النتائج الصحيحة المرجوة ، وقد فهم بعض العلماء ذلك فهمًا دقيقًا من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللَّهَ حَقّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢] ، فذكروا في تفسير هذه الآية أن المراد: حافظوا على إسلامكم ، وداوموا على أعمالكم الصالحة ، وتقواكم لله حق تقاته ، لتعيشوا على ذلك ، وتموتوا عليه ، وتبعثوا عليه ، فإن الكريم (عز وجل) قد جرت سنته سبحانه في خلقه ، أن من عاش على شيء مات عليه ، وبعث عليه .

وفي الحديث النبوي الشريف يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ ، إلا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنُ الدّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ) (متفق عليه) ، ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) رجلًا قد وقصته ناقته وهو محرم ، قال (صلى الله عليه وسلم): (اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ ، وَكَفِّنُوهُ فِي ثَوْبِهِ ، وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ، وَلَا تُقَرِّبُوهُ طِيبًا ، فَإِنّ اللَّهَ يَبْعَثُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُحْرِمًا) (متفق عليه) .

كما أن من أهم أسباب حسن الخاتمة صدق العبد مع ربه ؛ لأن صدق النوايا يبلغ المقاصد ، ولا أدل على ذلك من هذا الأعرابي الذي جَاءَ إِلى النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) بَعْضَ أَصْحَابِهِ ، وعندما قَسَمَ له النبي (صلى الله عليه وسلم) قسما ودَفَعُوهُ إِلَيْهِ ، قَالَ: مَا هَذَا ؟ قَالُوا: قسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) ، فَأَخَذَهُ فَجَاءَ بِهِ النَّبِيَّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فَقَالَ: مَا هَذَا ؟ فَقَالَ: (قَسَمْتُهُ لَكَ) ، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ ، وَلَكِن اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى هَاهُنَا -وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ- بِسَهْمٍ ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، قَالَ: (إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ) ، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم): (أَهُوَ هُوَ) ، فَقَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: (صَدَقَ اللهَ فَصَدَّقَهُ) ثُمَّ كَفَّنَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم) فِي جُبَّته ، ثُمَّ قَدَّمَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ ، فَكَانَ مِمَّا ظَهَرَ مِنْ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ: (اللهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ) (سنن النسائي ، والمستدرك على الصحيحين للحاكم) .

فهنيئًا لمن وفقه الله لطاعته ، وأحسن عمله ، وحسَّن خلقه ، وأعانه على قضاء حوائج الناس ، وتفريج كربهم ، ونشر الخير في مجتمعه ووطنه، فإن ذلك إن دل فإنما يدل على رضا الله (عز وجل) عنه ، وتوفيقه له ، لأن حسن الخاتمة من إرادة الخيرية بالعبد ، فعن أنس (رضي الله عنه) ، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ) ، فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال: (يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ) ، قيل: وما عسله قبل موته ؟ قال: (يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ) (صحيح ابن حبان) .

اللهم تقبل سائر أعمالنا واجعلها خالصة لوجهك الكريم
واحفظ مصرنا وسائر بلاد العالمين

* * *

فهرس الموضوعات

* * *